

فتحى رضوان

الخليج العاشق

8

اقرأ

تصدر أول كل شهر

[٤٥٥] - إبريل - ١٩٨٠

رئيس التحرير أنيس منصور

فتحى رضوان

الخليج العاشق



تصميم الغلاف : شريفة أبو سيف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

فهرس

مملكة الطفولة

لقد كشف لنا تاريخ الإنسانية على مر عصوره وأدواره أن الحدود هي مبعث الخلافات ، ومثار الحروب بعد المنازعات . تنازعت القبائل ، وهى تبحث عن المرعى من جراء حدود الأراضى . واختلفت الدويلات على ما يدخل فى أرضها وما يخرج من أرض الجيران ؛ لأن بضعة فراسخ تروح يمينا ، أو تمضى شمالا تعنى منبعا لنهر ، أو منجما من ذهب ، أو بئرا من نفط ، أو ثغرا على بحر ، أو قمة فوق جبل ، أو موقعا منيعا يصد الغزاة ، أو مدخلا سهلا ، يتسلل منه العداة .

وقد كنت أحسب أن الحدود المثيرة للنزاع ، هى الحدود المرسومة بالقلم والمسطرة على خريطة ، فلما عزمت أن أكتب قصة هذا الصبى المصري بعد أن فرغت من كتابة قصة طفولته فى كتاب « خط العتبة » رأيت جانبا طريفا من مشكلة الحدود ؛ فقد كنت أحسب أن الحدود بين أدوار عمر الإنسان واضحة المعالم ، بينة المواقع لا

يختلف فيها اثنان ، ولا ينتطح عنزان ! ولكن لم ألبث حتى عرفت عكس ما وهمت ؛ ففى أدوار العمر الإنسانى حلقات يتنازعها الجيران ، حتى لا تكاد تعرف لها فى حياة الإنسان حيزا تقنع به ، ويقنع بها : فالطفولة دور له مقام يقربه الجميع ، وتؤلف فيه الكتب وتنظم القصائد ، وتنشأ حبا وتقديرا له ، المؤسسات وتقام من أجله الدور ، وينافسه فى كل هذه المزايا الشباب ؛ فالطفولة هى البداية ، وهى البراءة ، والطفل هو ابتسامة الحياة ، وقرة أعين الأبوين ، وضحكته فى البيت الحزين ناقوس من ذهب ، يبدد ظلام الحزن .

أما الشباب فهو ربيع الحياة تصل به إلى قمتها ، وتبلغ أجمل فتنتها ، وتصبح الدنيا أمامه ، ساحة فسيحة يتألق الجمال على جانبيها ، تتخللها الينابيع الضاحكة بمائها المتلألئ ، وخريرها المهموس ، وجريانها المتوارى غير المحسوس ، وهى مع ذلك ميدان معركة يطيب فيها الصولان والجولان بحثا عن الحب والمجد ، والتضحية التى توهم بالخلود ، وتوحى بالعظائم .

ولكن قل لى بربك : ماذا يكون دور (الصبا) ، بين مراحل الحياة ؟ وماذا يكون الصبى بين الطفل والشاب ؟ لا هو البداية ، ولا هو النهاية ، ولا هو أقصى القوة ، ولا هو غاية الضعف ، لا يذكره ذاكر ، ولا يطريه ناثر أو شاعر ، وإذا سألت الكتب أو الناس عن السن التى يبدأ بها الصبى صباه لم تجد جوابا شافيا ولا ردا هاديا وقد فرحت إذ ذكرت أن القرآن الكريم جاء فى موضعين منه لفظ الصبى مقرونا باسم نبيين كريمين ، وفى سورة واحدة هى سورة مريم ، ولكن الأمر زاد غموضا عندما لجأت إلى تفسير المفسرين :

فى أحد الموضعين : جاءت مريم عليها السلام تحمل عيسى ، وهى لم يمسسها بشر ، فهال الأمر قومها ، فسألوها كيف تلد وهى لم تزف إلى رجل ولم يعرف عنها

ولا عن أمها سوء ؟ فكان جوابها كما قال الله تعالى : « فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا ؟ » .

ولعلك معى فى أن اجتماع لفظى « المهد » و « صبيا » يزيد الباحث حيرة ، ويزيد البحث تعقيدا : فالمهد من خصائص الطفل ولوازمه ، أما الصبى الذى تقول كتب الطب إنه يكون فى السابعة – فكيف يحمل وهو فى هذه السن أو حتى الرابعة فى مهد ؟ وإن جاز أن يحمل على كتف بشىء من التجاوز والتسامح ، ولجأت إلى كتب التفسير ، فلم أظفر منها بما ينقع الغلة ، فقد قال القرطبى : « وروى أن عيسى عليه السلام إنما تكلم فى طفولته بهذه الآية ثم عاد إلى حالة الأطفال ، حتى مشى على عادة البشر إلى أن بلغ مبلغ الصبيان ، فكان نطقه إظهار براءة أمه » .

فعيسى عليه السلام فى رأى المفسر العظيم ، كان طفلا يحمل على الأيدى ، أو يرفع فى المهد ، ولكنه حينما تكلم كان صبيا ، انتقل من الطفولة إلى الصبا للحظة ، وعاد إلى طفولته ، ولكن تبقى الطفولة والصبا متداخلتين ، بل إن بعض الشراح يقولون : إن عيسى كان يرضع فلما سمع كلامهم ترك الرضاعة ، وأقبل عليهم بوجهه واتكأ على يساره وأشار إليهم بسبابته اليمنى .

وفى موضع آخر من سورة مريم ، جاء عن نبى الله « يحيى » عليه السلام : (يا يحيى خذ الكتاب بقوة ، وآتيناه الحكم صبيا) وجاء فى تفسير القرطبى عن الرازى عن « معمر » أن الصبيان قالوا ليحيى ، اذهب بنا نلعب ، فقال : ما للعب خلقت . فأنزل الله تعالى (وآتيناه الحكم صبيا) وقال قتادة : كان ابن سنتين أو ثلاث سنين . وقال مقاتل : كان ابن ثلاث سنين . ومن هنا ترى أن اثنين من كبار رواة الحديث الشريف ، يعتبران الصبى من بلغ الثانية أو الثالثة ، ولست أدرى : كم يكون عمر الطفل إذن ؟ كما لا أدرى إلى كم من السنين تمتد سنوات الصبا ؟

وهأنتذا ترى أن شكواى من ميوعة الحدود بين الطفولة والصبا شكوى تقوم على رجلين ، وأنها تخلو من المبالغة . ولا ذنب لعهد الصبا إلا فى أنه بين عهدين عظيمين ، ظفرا من أهل الأدب : كتابا وشعراء ومفكرين من العناية ، ما استنفد اهتمامهم ، فلم يعد باقيا منها ما يمكن صرفه إلى عهد الصبا الذى حرمه الله جاذبية الطفولة ، ورواء الشباب .

فإذا طالت قامة الصبى ، واشتد عوده ، ودبت إلى صوته خشونة ، وامتلأ بدنه بالقوة ، وأصبحت له لحية كثيفة تتدلى على صدره ، وشاربان حادان ، تصل أطرافهما كنصلى السيف إلى ما فوق الوجنات ، قريبا من جفون العيون فإن طفولة الإنسان تبقى من خلف هذه المظاهر الغليظة وذلك التنكر الثقيل : فالرجل طفل كبير ، حسبه أن تنزل به النازلة ، أو يستبد به هوى شىء مما يسيل له لعاب الرجال : امرأة يهواها ، أو منصب يحلم به ، أو صفقة يتمناها ، أو مكيدة يفتل حبالها ، حتى تتعرى طفولته ، وتسقط عنها الأستار ، فإذا هو يبكى بكاء الأطفال ، أو يفرح فرحهم ، أو يتحلل من أسر الوقار ، أو يخرج من حدود الاحتشام ، فإذا تكلم وهو فى حالة من تلك الحالات – أدهشك أن ينقلب الجاد المتزمت الرصين فى لحظة إلى طفل لا يضبط نفسه ، ولا يلزمها جانب الاعتدال ، بل يتركها على سجيتها تهزل وتسف ، وتبكى وتصرخ ، أو تقفز فى الهواء ، أو ترتمى فى الأرض لا تبالى أن يراها الناس على هذه الصورة ، وأن يكون الحافز على كل هذا أهون من أن يستدر من العيون دمعة ، أو يبعث من الصدور أنة .

والغريب أنه كلما تقدم بالإنسان العمر ، اقترب من الطفولة ، فبدت عليه مخائلها ، لا فى تصرفاته ومسلكه ، وما يحب وما يكره بل فى خصائصه البدنية فصوته يرق وخطاه تقصر وحاجته إلى رعاية الناس تزيد ، وميله إلى الثرثرة يشتد ،

ومن هنا ترى أن الأجداد والحفدة يتبادلون الحب والود ، وطيب الأحاديث ، ويسهل عليهم التعامل والتفاهم . فإذا وصل الإنسان الى أرذل العمر ، انقلب طفلا كامل الطفولة !

فلا عجب بعد ذلك أن يبهت دور الصبى إلى جانب دور الطفل ؛ وأن يصبح الحديث عن قصة الصبى أصعب من الحديث عن الطفل ، وغرائب أطواره ، ولطائف أدواره ، وأشق من قصة الشاب ، بمجازفاته فى دنيا الحب ، ومغامراته من أجل المجد ؛ ولكن لابد ، مما ليس منه بد !

فما دمت قد فرغت من قصة « خط العتبة » التى رويت فيها قصة هذا الطفل المصرى الذى كان بطلها فالترتيب إذن على قصة الصبى الذى استحال إليه الطفل .

طالت قامته وإن بقى نحيفا ، وأصبح أقل حركة وإن بقى قلقا لا يستقر على حال ، سريعا لا يعرف المسير إلا عدوا : والنزول على السلم إلا قفزا ، والصعود إلا وثبا . وتناول الطعام إلا خطفا . لا تراه أبدا إلا وفى يده « منديل » كأنه العلم المنشور . يضعه بين أسنانه حينا ، ولكنه فى جميع الأحوال لا يفارقه ، ثم هو محتقن الوجه . متصبب العرق لاهثا . يلقف أنفاسه : كأنه فى سباق مستمر مع منافس مجهول فى حلبة غير منظورة ومن أجل خاتمة غير مرئية يمارس كل ما يمارسه الصبيان وربما ساهم فى لعبتين أو ثلاث خلف المرمى (البلى) بين كل هجمتين أو يرى فى يد صبى مثله طائرة من الورق فيأخذها منه غصبا أو عن رضا . فيفرح بمرآها وهى تصعد وتعلو وتتأرجح فى الهواء . وتكاد تهوى على الأرض . فإذا ما اقترب الأعداء من الحمى الذى يحميه أسلمها لصاحبها وأنقذ الشرف ، وأدى الواجب . وعاد يبحث عن شىء آخر ، ولكن إذا كانت المباراة حامية الوطيس واللعب يستأهل

التركيز رأيته فى المرمى ، أو على خطوط الدفاع على الرغم من ضعف جسمه ونحوله متوثبا متأهبا ، تكاد نفسه تذهب حسرة وألما . لو أفلتت منه الكرة .

والحق أنه حمل جسمه أكثر مما يحتمل فقد كان كثير المرض ، لا يكاد يشفى من التهاب فى لوزتيه حتى يصاب بألم فيها من جديد ، وفى كل مرة يعد بأنه لن يعود إلى العنيف من عدوه وركضه ، ووثبه وقفزه . وصياحه وصراخه ، وتشتت ذهنه بين الألعاب ، حتى يكمل شفاؤه ، ولكنه ماكاد يستطيع أن يرفع رأسه عن وسادة المرض – والصفرة بادية فى وجنتيه . والضعف مطل من عينيه حتى تراه فى الطريق ومنديله فى يده يعلو ويهبط ، وينشر ويطوى ، وهو كريشة فى مهب الريح ، قلة وزن ، وكثرة تأرجح ، وسرعة عطب ، ولكن مغالبة المرض وإنكار حقه فى طلب الراحة والاستجمام كانت لذة هذا الصبى الضعيف الواهن ، وكأنها لعبة من ألعابه الكثيرة بيد أن هذا الصبى المسكين كان أشبه شيء « بدون جوان » أحب كثيرا ، لأنه لم يحب واحدة . فلو استأثرت به إحدى معشوقاته فآمن بها . واطمأن إليها ، ما أحب سواها ، ولانقطع لها ، فهو عاشق فاشل وإن بدا عاشقا غازيا فهو كشهريار قتل معشوقاته ، لأنهن جميعا كن لا يصمدن لتذبذبه . وتقلب هواه !

كذلك أحب الصبى كرة القدم والملاكمة والمصارعة ، ولعب « البلى » وركوب « الدراجات » وممارسة الألعاب الأخرى على اختلاف أسمائها وتباين قواعدها : فمن لعبة « الرستة » أو « الأولى » وإن كانت لعبة بنات ، أو لعبة الحجلة المعروفة باسمها الفرنسى (اتانسيو) أى الاهتمام ، والقفز على الحبل . وإن لم يتقنه قط ، دع عنك ألعابا لا أدرى هل كنت قد سمعت عنها ؟ مثل (الجديد) و (اليدس) والنطة « الإنجليزى » والطرة ، والقطة العمياء . وألعاب « الكوتشينة » والطاولة والدومينو . ومغازلة الشطرنج عند الاقتراب من سن الشباب ، وألعاب الذاكرة ، والذكاء ،

والألغاز والفوازير . عشرات من الألعاب لكل منها سحر ولكل منها وقت ، ولكل منها موسم يشتد الإقبال فيه عليها . ثم تُنسى ثم يتجدد الاهتمام بها والإقبال عليها . كأنها عرفت لتوها .

ففى الشتاء تحلو ألعاب البيت ، وتحلو هذه الألعاب فى الأمسيات والليل ، أما فى الصيف فتحلو ألعاب الطريق العام ، والأندية التى لم تكن نسميها « الشعبية » لأن هذه الكلمة لم تكن قد عرفت بعد . ولم نكن نقول قط عن أحد من الكبار أو الصغار : إن له « شعبية » لأننا كنا نقول : رجل طيب أو محبوب . أو « عشرى » : أو « خدوم » ، أو « شهم » .

والحق أننا كنا سعداء بألفاظنا المتواضعة تؤدى لنا معانيها ، على أحسن منوال : ونزيد علائقنا توثقا كأننا أسرة واحدة تضم جميع الصبيان فى جميع الأحياء فى القاهرة كلها . وكأنهم نشئوا فى بيت واحد . وتلقنوا فى التربية أسلوبا مشتركا ، فما من مرة تجاوزنا الحى الذى نعيش فيه ، إلا رأينا أنفسنا أمام نفس الألفاظ ، وذات الألعاب ، وعين القواعد !

ولقد ماتت الألفاظ التى كان قاموسنا يعرفها ، اختفت ولم يعد أحد يذكرها ، بل لم يؤبنها أحد ، كأنها لم تضع نفسها فى خدمتنا طويلا ، وكأنها لم تمنح كلامنا حرارة ولطفا وأنسا ، لم نكن نقول : « تخمنى » لبيان محاولة إدخال الغش والخديعة والغفلة علينا ، ولكن كنا نقول : تستغفلنى وتستكردنى ، وكنا نقول عن الخام غير المجرب كروديا ، وخشنى ، كما كنا نقول عمن أعوزته رقة الإحساس : « بأف » و « دغف » .

لم تكن قد ولدت بعد ذلك ألفاظ مثل : هنبكة وبعككة ، و « على ودنه » ، ولكن هذه كلها ألفاظ الطريق فى أيامنا لا تصل أبدا إلى حجرة الدراسة ، ولا إلى

البيت ، ولا تتسرب إلى لغة الصحف ، ثم قل أن تسمعها فى المسرحيات الفكاهية ، حتى لوكانت فى مسارح الدرجة الثالثة . كان الناس فى تلك الأيام أشد حرصا على استعمال الألفاظ : وأكثر إحساسا بالجمال والقبح ! ربما لأن كل شيء كان يتم فى نطاق محدود . يخلو من الزحام والتدافع ومن ثم ينجو من الضجيج والصراخ الذى يعود الإنسان كل ما هو غليظ وجاف . ولم يكن هناك سوى « الفونغراف » وقد كان صوته بالنسبة إلى أصوات مكبرات الصوت المستعملة فى السرادقات ، والمدارس والأندية وفى الحفلات رقيقا متواريا محتشما . أما صوت أجهزة الإذاعة التى تعمل اليوم بالكهرباء أو بالبطاريات الجافة – فقد عودت الناس فرقعة كدوى القنابل حتى أصبحت الأعصاب فى حاجة إلى غلاف خارجى غليظ فى مثل غلظه ، ظهر التمساح أو الفيل ، وفى ظروف كهذه تجد الألفاظ السمجة الجارحة الباب مفتوحا تدخل منه إلى البيت والجامعة والصحيفة .

ولد هذا « الصبى » القلق الكثير الحركة . السقيم البدن : الضعيف البنية فى عصر كله حركة ، وكانت لهذا العصر مفاخره العظيمة ، ومآثره الرائعة . ولكنه لم يكن عهدا بلا أسقام وبلا علل ، بل كانت أزماته ومآزقه وسقطاته وعيوبه فى مثل ضخامة أمجاده وجلال آثاره !

مات مصطفى كامل قبل أن يولد « الصبى » بثلاث سنوات ، ولكن بقى العصر موسوما بميسم منسوب إليه ، متأثر به ، كانت جنازته التى احتشد لها الشعب كله أول حدث من نوعه فى مصر منذ قرون ، ولعل مصر لم تشهد مثله من قبل ، وكانت صور هذه الجنازة حية فى الأذهان والنفوس ، وما هزت به وجدان المصريين ، وما استثارت من شعر الشعراء وقول الكتاب وتعليق الساسة ، وما أدت إليه من خروج السيدات والعقائل إلى الشوارع يشهدن ويخطبن ، وما أعلنته من

إرادة الشعب وتصميمه بكل طبقاته . فى مقدمة هذه الطبقات جميعا . الفلاحون الذين مثلهم سجناء دنشواى الذين فك قلم مصطفى كامل ولسانه إسارهم . . وأعادهم إلى الحرية .

وكان قد سبق مصطفى إلى ختام رحلة الحياة . محمد عبده ، ولحق به فى العام نفسه قاسم أمين ، وكان فريد قد نزل إلى الساحة جادا صارما . لا يحسن المداورة ولا يعرفها : فاشتد الصراع بفضله بين الشعب ممثلا فى الحزب الوطنى ، وبين الإنجليز ، فحمى وطيس المعركة وسقط أول قتيل من الساسة فى معركة الوطنية ، وخفت صوت أصدقاء الاحتلال البريطانى . وتواروا عن المسرح إلا أن يكونوا وزراء تقتحمهم الأعين وتسلقهم الألسن . وتسىء الأمة بهم الظن ، ثم لم تلبث الحرب العالمية الأولى أن انفجرت فى دوى هائل هز أركان العالم ، حتى كاد يتهاوى واشتد أوارها حتى رأت الإنسانية على ضوء نيرانها المشبوبة عالما جديدا تتداعى فيه عروش الأباطرة والقياصرة وتخرج من أحشاء التاريخ القديم مواليد جديدة لم يسمع الناس بها من قبل : كحق تقرير المصير والديموقراطية للشعوب المغلوبة على أمرها ، والاشتراكية بأنواعها ودرجاتها ، والشيوعية بمصطلحاتها ومدلولاتها .

وفى مصر ساد الظلم ، فكسرت الأقلام ، وكممت الأفواه ، ونهبت الأرزاق ، وفتحت السجون ، وابتعلت المعتقلات شباب مصر الرافضين لسلطة الغاصب ، ولو دجج بالسلاح جيوشه ، ولو غطت الشمس أعلامه ، فأصبحت مصر كلها تهجس بالثورة ، وإن كانت لا تعرف كيف تندلع ولا على أى صورة تبدأ ، وأثمرت دعاية الحزب الوطنى وإن غاب زعماؤه بالموت والنفى ثمرتها ، فما كادت الحرب تضع أوزارها حتى اندلعت ثورة مصر فى التاسع من مارس سنة ١٩١٩ بتلقائية ، ولم يعرف التاريخ لها نظيرا ، وتشابهت أعمال أبطالها فى أقصى

الشمال ، وأقصى الجنوب دون زعامة توحى ولا قيادة ترسم ، واختفت تماما كل عبارات الظن الحسن فى الاحتلال البريطانى والرغبة فى التعاون معه ، وبدا هذا الاحتلال على حقيقته شيطانا مريدا ، لا يبغى إلا الفساد فى الأرض واسترقاق الأحرار واستعباد الأمم والشعوب .

فى هذا العصر الحر المليء بإرهاصات مستقبل جديد ومجيد تتنفس فيه الآراء الجريئة وتخرج بفضله بطولات – طال انتظار مصر لها ولد « الصبى » .

وقد تأثر « الصبى » بهذه الثورة ، لأنها كانت فى الهواء الذى يستنشقه هو ، ويستنشقه كل الناس ، وقد دخلت إلى بيته . ووصلت إلى مدرسته . وسمعها ورآها فى الحى الذى يقيم فيه أناشيد ترتل ، وجنازات للشهداء تخترق الطرق ، ومظاهرات تبدو له فى الأفق . ويهل عليه صوتها الهادر من بعيد . ثم تقترب ، فيرى الأعلام تخفق وتهتز فى أيد ترتعش من فرط الحماسة قد امتلأت وجوه أصحابها بالدم وهم يتصورون عدوا ينازلونه : ويحاصرونه ويقضون عليه ، حتى يظهر هذا العدو حقا فى سيارات مصفحة وبنادق مصوبة ، ومدافع مسلطة ، ووجوه كريهة تعلوها خوذات ثقيلة تهدد بالموت وتنذر بالشر ! ثم تقع الواقعة فيدمدم الرصاص فى صوت متلاحق مكتوم ، ثم تسقط الضحايا ، فيغسل وجه الأرض دم فى مثل لون العلم المصرى الأحمر الذى كان يرفرف فوق الرءوس ، ويعلو على الهامات .

لوحات إثر لوحات تصل إلى أعمق الأعماق ، فتهز النفوس هزا ، وتنفض عنها أقبح عيوبها ، وأسوأ أمراضها : الخوف والحرص على الحياة وتبعث فيها أجمل فضائلها : استهداف الخطر من أجل خير عميم ، وأمل عظيم .

ولكن هذه الثورة التى صاحبت صبا الصبى لم تلبث أن خبا أوارها . واختفى نهارها . وحلت محلها حرب أهلية دبر لها الغاصب ، فأحسن التدبير . وتورطنا فيها

فى غفلة ليس لها نظير ، وقد كان لهذا كله ، صداه فى حياة الصبى ، فقد كان يرى ويسمع ، وكان ما يراه ويسمعه يعلمه ، عن طريق أن الحياة لا تسير على وتيرة واحدة ، وأنه كما يمرض هو ويطول مرضه ، تضعف النفوس وتمرض الشعوب ، ولكنها تعود إلى الشفاء . ربما على مهل وفى بطء ، وقد تكون العلة بابا إلى عافية أكمل ، وقد يكون المرض درسا يقى من علل أعظم .

الزمان والمكان

الإنسان يحسب أنه يتأثر بالمكان أكثر من تأثره بالزمان ، وهو لذلك يرد كل تاريخه إلى الأمكنة التى عاش فيها واتصل بها . وانتقل إليها . تاريخنا : تاريخ مدن وبلدان ، الوقائع منسوبة إلى موقع من الأرض ، لا إلى فترة من زمن ، فنحن نقول : « بدر » و « القادسية » و « جبل طارق » و « العلمين » و « ترلو » و « رشيد » و « إمبابة والأهرام » ، ولا أحد منا يقول موقعة السابع عشر من رمضان ، فى السنة الثانية من الهجرة . ولو قال ما فهم عنه السامعون شيئا إلا أن يكون ين السامعين عالم بالتاريخ أو دارس له .

وتفسير هذا سهل ميسور ، فالإنسان مجبول على فهم المادى من الأمور ، والإحاطة به أما المجرد فلا تطيقه إلا عقول الفلاسفة والشعراء ، ومن ثم هبط العامة ، بالدين من الكليات إلى الجزئيات ، ومن المجرد إلى الملموس ، فهم

يقسمون بالنبى ، أكثر مما يحلفون بالله ويعرفون المصحف أكثر مما يعرفون القرآن . ويعرفون الولى أكثر مما يعرفون النبى ، ويحبون الضريح والقبة ويتبركون ويتمسحون بها أضعاف ما يتأثرون بالمعانى المجردة فى دينهم ، كلها حركات متصلة بالمكان ، ولهذا كله أحببت أن أحدثك عن ثلاثة بيوت عاش فيها الصبى ، حياة صباه وكلها فى حى السيدة زينب وأنا أروى لك قصة طفولة هذا الصبى .

أقول لك عن البيت الأول . فى (خط العتبة) أن صاحبته كانت ممثلة مشهورة فى أيام صبا هذا الغلام ، لأنها كانت الممثلة الأولى فى فرقة المطرب الأول فى مصر فى تلك الأيام ، كان اسمها «مليا ديان» ، كانت تؤدى الأدوار النسائية الأولى فى تراجيديا سلامة حجازى ، ولقد صورها له الخيال سيدة طويلة القامة . مملوءة الجسم فى غير ترهل ، ذات أذرع بيضاء سمينة وطلعة بهية ، وصوت جهورى يملأ القاعة فأمن على هذا التصور من رآها رأى العين ، وسمعها على المسرح تشارك سلامة حجازى فى أدوارها . وقد درج الصبى على القول بأنها حين كانت تزوره فى بيتنا الذى استأجرناه منها ، فى عربة تجرها الخيول ، تبعث زيارتها فى الشارع حركة ، فيجتمع الناس ، ليروها وهى تهبط من عربتها الفاخرة ذات الخيول المطهمة ، فيبعث ذلك كله فى نفس الصبى شعوراً بالزهو ، لأنه يقيم فى بيت تملكه فنانة جميلة مهيبة ذائعة الصيت . تشارك فى البطولة أحب المطربين إلى قلوب أهل بلدنا والبلاد العربية المجاورة ، وأستطيع أن أعترف لك الآن أن شيئاً من هذا لم يحدث ، فلا أنا أذكر أنها كانت تملك عربة فاخرة ، ولم يخبرنى أحد أن هذه العربة كانت تجرها الخيول المطهمة ، ولا أن هذه الزيارة كانت تبعث فى الحى حركة ، وفى الشارع زحاماً أمام دارنا ، ولكن بقى أن تفسر لى ما الذى حملنى على أن أقول هذا الكلام فى أكثر من موضع دون أن أعنى تزييف الواقع ، ولا تجميله ،

ولا أطرف السامع بشيء يرضى فى الواقع صورا يتمناها ، أى يتمنى لو حصلت فعلا فى حياته ، لتضفى عليه أهمية وخطرا ، ثم يحسب الخيال حقيقة ، ثم يستولى الواقع على الوهم ، ويدمجه فى ذاته ويأبى النزول عنه ، ويرفض أن يطلقه من قيده وأسره .

هأنذا أروى الواقع . وأضعه بين يديك ، وأدع لك أن تحكم كما تشاء ، ولن أرفع أصبعى احتجاجا واعتراضا ، بل حسبى أننى كذبت نفسى . وأنا طفل وصبى ، لينتفع الأدب وعلم النفس إن كان فى حياة هذا الصبى شيء ينفع الناس .

ولست أدرى ما الذى جعل الصبى يتصور هذا البيت الأول على هذه الصورة أيكون مرد ذلك إلى أن الصبى كان – فى أثناء إقامته فى ذلك البيت – فى مطلع حياته ، فكان كل شيء وكل شخص يكبره كبيرا ، ولكنه حينما تقدم به العمر أصبح إحساسه بكبر الآخرين بالنسبة إليه ، وصغره هو أضعف .

فى هذا البيت – عرف الصبى أول امتحان فى حياته ، ولم يكن امتحاناً فى العلم ، وإنما كان كشفاً صحياً ، فقد كان دخول التلميذ إلى المدرسة الحكومية معلقاً على نتيجة الكشف الطبى ، وقد كان من أكبر عناصر هذا الامتحان امتحان قوة إبصار التلميذ . ولما كان . قادراً على أن يقرأ الصحيفة أو الكتاب على بعد أمتار فقد كان نجاحه مضمونا . ولكنه عاد إلى بيته شاعراً بالنصر . ولم يقلل من هذا الشعور أن جميع الذين اختبروا معه نجحوا نجاحه فقد كان يداخله شعور بأن نجاحه هو من نوع يخالف نجاحهم ، إذ ليس فيهم من يدانيه فى قوة النظر !

وفى أثناء إقامته بهذا البيت وقع أول تماسك بالأيدى بينه وبين زميل له ، والتماسك بالأيدى – وإن كان جزءاً عادياً من نشاط الصبيان – كان بالنسبة لهذا الصبى حدثاً ذا قيمة نفسية بارزة فقد عرف نفسه فى ذلك اليوم . وبقى ما عرفه

جزءا من تجربته النفسية ، لم تغيره الأيام ، فقد أدرك أنه لا يصلح لهذا اللون من النشاط الحيوى الطبيعى ، لا لأنه فقط ضعيف البدن كثير الأمراض ، فقد لاحظ أن أقدر زملائه على الشجار ، وأبرعهم فيه وأحبهم له ليسوا أقوى زملائه بدنا ، فالقدرة على الصراع البدنى نوع من اللياقة العصبية أكثر منه لياقة جسمية . وأبطال المعارك فى حارات القاهرة ، لم يكونوا قط من ذوى الأجسام الطويلة العريضة منهم ، بل كانوا فى الغالب على النقيض من ذلك رجالا أميل إلى القصر منهم إلى الطول ، ومن الهدوء إلى الصخب ، ومن النحول إلى البدانة ، ولكنهم عندما يجد الجد تبدو عليهم شراسة لا تدرى من أين جاءت ، وميل إلى الإيذاء لا يوقفه دم سائل ، ولا سلاح مشهر ، ولا سلطة تهدد بالعقاب والجزاء .

فى ذلك اليوم أمسك الصبى بتلابيب زميله ، وأمسك زميله بتلابيبه ، وكان الزمان ساعة مبكرة فى صباح اليوم المدرسى . وساحة المدرسة لم تمتلئ بعد بالتلاميذ . وهو لا يذكر سبب هذا الشجار ، ولكنه يذكر تماما اليوم – ماذا كان يساوره فى تلك اللحظات ، كانت كل لحظة جزءا منفصلا عما قبلها ، وعما بعدها ، يذكر موقفه من صاحبه ، ويرى فى وضوح كامل يده على ملابس زميله ، فهو لم يغب قط عن وعيه : ولم يصرفه الغضب ، ولا الرغبة فى النصر عن تتبع حركاته وحركات خصمه ، فأدرك فى الحال ، أن هذه معركة خاسرة ، أو بعبارة أخرى أنها ليست معركة إطلاقا ، فلا هو حريص على الوصول بها إلى غايتها ، ولا هو مؤمن بضرورتها . وحتميتها فليس هو إذن مقاتلا فى هذا الطراز من الصراع ، فأكبر ضرورات القتال أن ينسى الإنسان نفسه وألا يشغله مطلقا ماذا سيصيبه من هذا القتال أو ماذا سيصيب عدوه ؟ وأن يأبى أن ينهى المعركة متدخل .

أدرك الصبى أن طاقته الغضبية محدودة إذا ما وصلت إلى نطاق الأيدى ، وأنها

تبلغ أقصى الغاية حينما تكون فى نطاق الإحساس والفكرة . لقد مزق لزميله شيئا فى ثيابه . ومزق زميله ياقة حلته ، وجاء شيخ الفراشين فقال « أمسكوهم ! » . وتدخل التلاميذ وانتهت المعركة !

ولكن الصبى شعر بإهانة بالغة سممت حياته أسبوعا أو أكثر ، لا لأنه هزم ، فهو لم يهزم ، ولا لأن حلته تمزقت ، فقد كان قليل الاحتفال بخسائر من هذا القبيل ، ولكنه أدرك – كما قلت لك – أنه ليس من طراز المقاتلين الذين يراهم من زملائه ، يدخلون فى اليوم الواحد عشرات المعارك . يضربون ويتلقون الضربات ، ويجندلون فى الأرض ضحاياهم . ويسقطون معهم ، ثم يقفون ويستأنفون القتال فى إيمان وثقة وتلذذ !

آه لو كان واحدا من هؤلاء وإن كان أكثر هؤلاء من أقل التلاميذ حظا من النجاح فى الدراسة ، وأقلهم نصيبا من احترام المدرسين والزملاء ! ولكن إلى الجحيم الدراسة والنجاح فيها ، وإلى الجحيم الاحترام إلى جانب أن يكون الإنسان طليقا من القيود النفسية قادرا على أن يستغرقه الغضب ، فتهوى قبضة يده على الوجه والعين حيثما اتفق الضرب بلا تفكير فى النتيجة ، ولا حساب لها .

هذا التنبه الدائم لنتائج الكلام ونشاط الأيدى عبء يحمله الإنسان على صدره ، وكأنه ظهر السلحفاة الثقيل الذى يذهب معها أينما ذهبت ، أما هذا التفجر بالغضب وانطلاق ألفاظ السباب كأنما هى حمم من بركان – فتلك هى الحرية حقا !

وقد زاد من شعور الصبى بالإهانة أنه حينما رأى زميله فى المشاجرة بعد ذلك لم يحس له بالكره ولا بالرغبة فى معاودة القتال معه ، بل إنهما اجتمعا فى صف واحد ، فكلمه زميله فى لهجة المتودد ، فأوجعته هذه اللهجة ، لا لأنه ألفى صاحبه

متسامحا ، فيكون أكثر منه سموا ، فمثل هذا المعنى لا يرد على خاطر هذا الصبى ، مهما أردنا أن نصفه بالنضج العقلى أو العاطفى ، وإنما كان مصدر الشعور بالإهانة أن هذا التلطف البالغ أطلعه على أن خصمه فى الشجار لم يأخذه مأخذ الجد ، ولم يأخذ شجاره كما يفعل المتشاجرون عادة عراكا بحق ، وقد يدهشك أن تعلم أن الصبى عاش سنين يتحاشى الاتصال بهذا الصبى أو الاقتراب منه ، لأنه كلما كلمه رآه لا يذكر من واقعة الشجار شيئا ، وهو اليوم يؤكد لنفسه أنه يجهل اسم هذا الزميل ، ولا يستطيع أن يتذكر ملامحه ، وأغلب الظن أن نسيانه لاسم خصمه وملامحه ضيق بالمشاعر التى خلفتها هذه الموقعة .

وفى هذا البيت مرت بالصبى تجربة نفسية أخرى لم يحدث بها أحدا لا عند وقوعها ولا بعد وقوعها . حتى ظن أنه نسيها تماما . ولكنه حينما بدأ يستعيد ذكريات صباه إذ بها تقفز بقوة مملوءة بالحياة وبالحيوية معا ، وإذا به يحس بكل آلام الغربة التى كابدها يوم وقعت هذه الحادثة البسيطة التى كانت عنده يوم ذاك كبيرة وضخمة .

كان يلعب مع صاحبه « محمد » فى حجرة « ببدرون » المنزل ، وكان هو يعيش مع أسرته فى الدور الأعلى ، و« محمد » وأهله فى الدور الثانى ، وما يتبعه من حجرات فى أسفل المنزل ، وكان أبوه ووالد محمد مهندسين تخرجا فى مدرسة واحدة ، ولكن والد الصبى اشتغل فى مصلحة الرى ، واشتغل والد زميله فى إدارة بمصلحة المساحة تسمى « إدارة نزع الملكية » . وكان والد محمد ينتمى إلى أسرة تنتسب إلى « باشا » ، ثم خرج منها فيما بعد رجلان اشتغلا بالسياسة ، ووصل كل منهما إلى رياسة الوزارة كما خرج محام شهير اختير عضوا بالوفد عندما التهبت البلاد بالثورة ، فأسرة صديقه إذن أسرة لها مكانها فى المجتمع . ولكن ما كان يدخل شىء

من ذلك فى عقل الصبى ولا تقديره ، فهو وصاحبه متساويان ، بل إنه يحس أن فى صاحبه سذاجة تدنيه شيئا ما من الغفلة وقلة الحيلة ، ولكن إحساسا جديدا غمر الصبى ، وأوجعه ، إذ فُتح الباب ذات يوم عليهما وهما يلعبان ، وإذا بهما فجأة أمام والد محمد ، دخل وهو يزم شفتيه وأنفاسه تتردد فى صدره ، مضطربة ، كأنما قطع شوطا ، ثم جلس على مقعد كان قريبا من الباب الذى فتحه ، ثم سحب ابنه من يده وبلا كلام أو مقدمات ، ثم وضع رأس محمد على أحد فخذيه ، وراح يضربه على إليتيه ضرباً متلاحقاً بكف يديه بطريقة لا توجع ، ثم دفعه إلى الوراء وانطلق من الباب لا ينظر إلى وجوهنا ، ولا يقول شيئاً .

تمت هذه العملية فى سرعة خاطفة ، ثم وقع نظر الصبى ، على وجه صاحبه . فإذا صاحبه حائر لا يدرى ماذا يقول مستخذيا لا يستطيع أن يرفع عينيه فى وجه الصبى الذى شعر بأن صدره يكاد ينفجر ألما ؟ وشعر بأن والد صاحبه ، جبار يستحق أن يعاقب أشد ما يكون العقاب ، ولكنه شعر أيضا بأنه عاجز عن أن يفعل شيئا ! فانطلق من نفس الباب دون أن يقول لصاحبه حرفا ، فلما بعد عنه انفجر فى البكاء ، ومضى يعدو حتى وصل إلى أولى درجات السلم المؤدى إلى الدور الذى يقيم فيه وكان له باب مطل على شارع آخر ، لا يفتح عليه « البدرون » الذى كان يلعب فيه الصبيان .

والغريب أنه لم يجد عنده الرغبة فى الصعود إلى بيته ، فقد جلس على الدرجة الأولى ، وراح ينتحب حتى شعر بأن ما كان عنده من دموع نفد ! ثم قام يصعد السلم كأنه يعانى من دوار ، فما كاد يصل إلى بيته حتى هال أمه منظره ، فاحتوته بين ذراعيها ، وهى تكاد تذهب نفسها حسرة على منظره الباكى ، وشعر بالحاجة إلى البكاء تتجدد . ومضى يبكى زمنا ، فلما هدأت نفسه روى لأمه ما جرى ، وهو يود

لو ينعت والد صاحبه بأقسى النعوت . . ثم طيبت أمه خاطره ، فانتحى جانبا شاعرا بالميل إلى العزلة ، فترة ولكن الصبى لم يلبث أن أدرك أن بكاءه لم يكن كله إشفاقا على صاحبه ، ولا مشاركة له . بل رأى فى أعماق نفسه شعورين لا يكاد يستطيع أن يحدث الناس عنهما ، كان أولهما شعورا عاديا مفهوما أن يساور مثله ذلك شعور الرعب من الوالد . والقسوة التى اتسم بها أداء العقاب ، مع أن العقاب نفسه كان بسيطا وهينا ، ولكن انفعال الوالد المكتوم الذى عاقه عن الكلام أضفى على الوالد – وهو مشهور بالطيبة – شكل الجلاد ، أما الشعور الغريب الذى أحس به الصبى – يوم ذاك أيضا . والذى لم يفض به إلى أحد – فذلك هو إحساسه بأن محمدا ووالده من طبقة أعلى من طبقته . فهذا الأسلوب فى العقاب لا يجرى فى بيته . وهذا الصمت الوقور الذى صاحب العقاب بدا كأنه علامة من علامات الحياة الرفيعة . وضايق الصبى أن يرى هذا كله . وقد كان ذلك فى الواقع مبعث تألمه ، وإحساسه بأنه جرح . كان إحساسه غامضا بطبيعة الحال ، فلم يستطع أن يصفه لأمه ، ولو وجد من يستمع إليه لفرج عن ضيقه وسرى عن نفسه . .

ومضت الأيام وأصبح والد صاحبه « باشا » ، وما من مرة رآه الصبى إلا تداعت صورة ذلك اليوم وما جرى فيه ، واضحة أكثر ما يكون الوضوح . . . وكبر الصبى ، حتى أصبح شبابه مقلقا لبعض الناس . . ومنهم الحكام فأودع السجون فى قضية الشروع فى قتل رئيس الوزراء ، وأحكمت الرقابة على الزنازين التى نزل فيها ، ونزل فيها زملاؤه فى القضية وشددت الحراسة . وندبت مصلحة السجون كل ليلة ضابطا يقضى الليل فى السجن ساهرا زيادة فى التوقى والاحتياط ، على أن باب السجن الرئيسى كان يغلق بمفتاح فى ذلك الباب . . ويودع المفتاح ظرفا يختم بالشمع الأحمر ، ولا يفض إلا فى صباح اليوم التالى بمحضر يثبت فيه أن الختم لم يمس .

وفى ذات ليلة . وكان السكون يشمل السجن . . وكان المساجين قد أخلدوا إلى الراحة أو كادوا ، فهدأ صياحهم ، وغناؤهم وشجارهم ، وانقطع كلام المحبوسين على ذمة القضية السياسية من شراعات الزنازين ، ثم دبت حركة غير عادية ، أفزعت الجميع . فنفى النائمون النوم عن عيونهم ، وانتبه الذين كانوا قد لاذوا بالصمت فى إغفاءة تمهيدا للنوم أو استحضارا له ، وسمع لمزاليج الباب الكبير دوى فى الليل الساكن ، كما سمع وقع أقدام تروح وتغدو ، كأن حدثا هاما قد وقع ، أو شخصية كبيرة رأت أن تفاجىء السجن ، وأن تتيقن من يقظة الحراس . وسلامة إجراءات الأمن والاحتياط ، وانتبه الصبى ، أو انتبه الشاب الذى نحكى قصة صباه . وتساءل بدوره ماذا يكون قد حدث ؟ أتطور جديد فى القضية ، أم قضية جديدة مماثلة ، أم مسجون لفظ أنفاسه فى الزنزانة ، أم اشتدت به العلة أو الوجع ؟

وفيما هو يتساءل إذا بباب زنزانته قد فتح ، وبدا على الباب ضابط سمين . تتردد على شفتيه ابتسامة خجلة . وكرت الأيام إلى الوراء فى لحظة أو جزء من لحظة ، ونسى كل ما كان حوله : نسى السجن ، والزنزانة والقضية التى حبس من أجلها ، بل نسى الضابط الذى كان واقفا على الباب ، وخجله يمنعه من أن يتصرف كما كان زملاؤه يفعلون : فقد رأى الصبى الذى أصبح سجينا سياسيا : رأى محمد صديقه فى بيت شارع سلامة . . ورآه صبيا صغيرا ، واقفا خلف باب حجرة فى « البدرون » بعد أن ضربه أبوه . على طريقة أهل الأرستقراطية وبأسلوب الذوات ، ومد الضابط له يده ، والسعادة والألفة والامتنان تشمله ، وأمر الضابط ، فى حيائه الذى لايفارقه السجان أن ينصرف ، وأغلق الباب خلفه . وجلس يتحدث إلى صاحبه ، حديث صبيين صغيرين ، ومضت الساعات فى كلام من هنا ، ومن هناك لا انتظام له ولا ارتباط ، فقد كان « محمد » ممن لم تمنحهم السماء موهبة

الحديث الطلى ، ولكن فى مثل تلك الظروف يصبح أى حديث من ضابط مع مسجون طليا وشهيا معا ، وزاد من طلاوته ومن حلاوته أن رئيس ديوان الملك القائم آن ذاك فى الحكم كان قريبا لمحمد . . . أما المساجين الآخرون فقد تعبت أقدامهم من طول ما وقفوا على مقاعدهم الخشبية ، ليعرفوا ماذا هناك وكلت أذهانهم من طول ما تساءلوا : ما معنى هذه الزيارة ؟ ومن الزائر ؟ وما وراءه ؟ وعرفوا فى الصباح شيئا عنها من الصبى الذى أصبح شابا ، وتكررت الزيارة ، كلما جاء دور محمد ليؤدى واجب الحراسة ، ثم أفرج عن الصبى ، وأنسته الأيام كل ما كان فى السجن ، وفى ذات يوم قرر أن يبحث عن صاحبه ، وأن يزوره : فى بيته أو فى عمله ، ثم نسى ذلك أياما ، ثم تذكر ، وخرج من بيته على نية أن يؤدى الزيارة لصاحبه بأى ثمن حالما يفرغ من قضية كان عليه أن يترافع فيها ، وفى أثناء جلوسه فى مقعد المحامين ، ينتظر بصبر نافد أن يحضر السادة القضاة ، مد يده إلى جريدة الصباح ، وأجال فيها نظره ، لغير غرض واضح ، سوى دفع السأم الذى تملكه ، وسقطت الجريدة من يده حقا لا مجازا ، فقد قرأ فى رأس العمود الأول فى صفحة الوفيات اسم صاحبه وزميل طفولته ، ولم يستطع أن يفكر ، كما لم يستطع أن يبقى فى مكانه ، والتفت بمشقة إلى زميل كان يشاركه فى الجلوس فى المقعد بقاعة المحكمة أن يحضر عنه فى القضية ، ويلتمس التأجيل فيها لأنه قرأ الآن نبأ وفاة عزيز عليه ، ومضى تائهاً فى الشوارع لا يدرى أين يذهب ؟ ولا ماذا يفعل ؟ وكلما رأى والد صاحبه بعد ذلك ود لو يأخذ يده ليقبلها وما من مرة نظر إلى وجه الباشا والد محمد ، إلا رأى فيها صورة من تقاطيع والده هو ، وإن كان الشبه بينهما فى الواقع ضعيفاً . فكيف تحول والد «محمد» من جلاد إلى والد حنون ومحبوب ؟

وفى بيت شارع سلامة ، وقعت حادثتان صغيرتان ، غاية الصغر للصبى ككل

حوادث صباه ، ولكن بقى أثرهما – كالعادة أيضا – فى نفسه طويلا . . وجرت الحادثتان فى المدرسة !

كان من بين الذين درسوا للصبى . فى مدرسة محمد على شاب طويل من خريجى دار العلوم الذين اختاروا البذلة الأوربية والطربوش زيا لهم ، ونضوا على أنفسهم ، العمامة والجبة والقفطان وكان أفراد هذه الطليعة الثائرة آن ذاك قليلين . وغاب المدرس عن المدرسة وقيل : إنه مريض ، ثم قيل إنه توفى ، وكان هذا أول نبأ وفاة يقع فى محيط الصبى ، ومر على النبأ دون أن يستوقفه طويلا ، فإن أحدا من زملاء المدرس لم يكلف خاطره أن يقول شيئا عن الزميل الذى غاب ، ولكن أصبح لهذه الوفاة معنى أكبر ، حينما وصل عدد مجلة اللطائف المصورة إلى بيت الصبى ، إذ رأى فيها صورة غير صغيرة لأستاذه ، وقد كتب تحتها أنه مات على إثر عملية جراحية بسبب « قيلة مائية » ! ارتفع مقام المدرس الفقيد فى عين الصبى ، فقد كانت اللطائف المصورة عنده ذات خطر ، فلم يكن يرى فيها إلا صور أناس كان يعرف من ذوى قرباه أنهم أشخاص مهمون وعظماء ، فإن ينضم إلى قائمتهم أحد معلميه فلابد أن يكون عظيماً بدوره . ولكن الذى احتاج إلى تفسير وبيان ، هو ما جاء تحت الصورة عن العملية الجراحية وعن القيلة المائية . وقد كانت العمليات الجراحية فى تلك الفترة غاية فى الندرة ، لذلك احتاج الصبى أن يشرح له خاله معناها ، وتيسر له أن يفهم هذا الشرح . ولكن الذى صدمه ، أن يعرف أن « القيلة المائية » فتق فى الخصية وأذهله أن يموت مدرسه لهذا السبب . وزاد من دهشته أن تنشر الصحف صورة رجل مات لعملية جرت له بسبب هذا المرض . وعبثا حاول خاله أن يفهمه أن هذه عملية ككل عملية أخرى . وأن مدرسه لا بد له فى وفاته ، وأن المجلة لم تخطئ إذ نشرت صورته ، فلابد أن يكون رجلاً فاضلاً وأن عليه أن يهنئ نفسه أن

يكون فى مدرسة تنشر المجلات صور العاملين فيها أحياء أو أمواتا !

وفى نفس السنة الدراسية وإلى نفس الفصل المدرسى الذى كان يدرس فيه المدرس الفقيد ذهب الصبى إلى المدرسة ببذلة من قماش « السكروتة » ، وحول عنقه ربطة عنق من نوع (البابيو) ولكنها كانت ربطة عنق حريرية حمراء فاقعة الحمرة . فمر به مدرس الرسم ، وهو يوزع عليهم أقلام « الباستيل » فقال للصبى دون أن يتوقف : أأنت بولشفيكى ؟ .

وسأل الصبى جميع زملائه عن معنى الكلمة ، وخشى أن تكون لفظا مهينا فلم يجد عند أحدهم الجواب ، ومضى إلى خاله ، وسأله ، ما معنى هذه الكلمة . . وأجهد خاله نفسه فى شرحها ولكن الأمر ازداد عند الصبى غموضا ، كان عليه أن ينتظر وقتا غير قصير . حتى يفهم معناها ، فهما كاملا . .

منازل وأرواح

وجد العقاد يوما فى رفوف مكتبته مسرحية « عطيل » لشكسبير ، إلى جوار رواية « الزنبقة الحمراء » لاناتول فرانس ، وكلتاهما تدور حول عاطفة الغيرة ، فهتف : إن للكتب أرواحا فشبيه الشيء منجذب إليه ، لذلك سعت الزنبقة إلى عطيل أو سعى عطيل إليها ، فتجاورا ، ولا يعلم إلا الله ، ماذا قالت إحداهما للأخرى . .

ولكن يبدو أن لكل شيء فى هذا الكون الرحيب روحا . ومن بين عناصر هذا الكون ، التى تتضح آثار روحها ، وتعبيراتها ناطقة معبرة المنازل من قصور وأكواخ .

والصبى الذى نروى ذكريات حياته يأبى أن يترك حديثه عن منزله بشارع سلامة . من حى السيدة زينب . وهو شارع يكاد يبز شوارع القاهرة جميعا ، إذ اجتمع فيه فى جوار حميم عدد من كبار الكتاب لم يجتمع فى وقت واحد فى شارع

آخر ، أما الذين اجتمعوا فى الشوارع القريبة غاية القرب من شارع سلامة ، فافذاذ مرموقون ، وهم كثيرون أيضا مع آخرين من ذوى الصيت الذائع والشهرة المستفيضة . فى دنيا الفن والفكر .

فقد كان يلاصق بيت الصبى فى شارع سلامة ، الشاعر على الجارم ، وكان آن ذاك معمما عاد لتوه من إنجلترا بعد بعثة ضمت عددا من الصفوة من أبناء دار العلوم الذين سهروا على اللغة العربية ، وجددوا شبابها ، فكان منهم الكتاب والخطباء والمربون .

ولا ينسى الصبى أن أول مظاهرة سمع بها ، أو سمع هتافها كانت المظاهرة التى اجتمعت فى مساء ذات يوم من أمام منزل على الجارم ، ثم هتفت بسقوطه ، فأطل من شرفة منزله ، وأطلت عشرات من الرءوس . رءوس الصبيان والفتيات والنساء والرجال ، وهم لا يعرفون ماذا يجرى ، ولا يفهمون لهذا الصياح معنى ، فقد كان عهد المصريين بالمظاهرات جديدا غاية الجدة وخصوصا إذا كانت مظاهرات محلية ، فى شوارع جانبية ولو أن المناسبة التى هتف فيها المتظاهرون بسقوط الجارم كانت مناسبة عامة ، فإن الخلاف بين سعد وعدلى كان قد اشتد ، وكان كل من يقف مع عدلى ، يعتبر خائنا للوطن ، وخارجا على الإجماع ويستحق أن يهتف بسقوطه ، وقد كان هوى الشاعر الجارم كأكثر كبار الموظفين فى تلك الأيام مع عدلى باعتباره ممثل الصفوة الرصينة ، فى حين كان سعد ممثل الرعاع وأصحاب الجلاليب الزرقاء ، وقد كان ذلك مصدر تفوق سعد على خصومه الذين كانوا من نفس مدرسته وسر التفاف الناس حوله دونهم . .

وغير بعيد من منزل الجارم كان يسكن مدرس فى المدرسة الإعدادية ، الثانوية التى أنشأها عبد العزيز جاويش يدرس فيها الترجمة والتاريخ ، ولم يكن اسمه قد

بزغ ، ولا شهرته قد بدأت ، ذلك هو إبراهيم عبد القادر المازنى . وفى ذات ليلة عادت أخت الصبى الكبرى مع خاله وخالها ، وكانت نافذة حجرة المازنى مضاءة ، فأشار إليها وهو يقول : هذا بيت مدرس سيكون له شأن كبير : وبقيت الكلمة فى ذاكرة أخت الصبى . ! فذكرته بها مرارا ، كلما وجدت فى يده كتابا للمازنى .

وفى نفس الشارع . عاش طالب فى مدرسة الحقوق السلطانية ، لم يكن أحد قد سمع بشىء مما يؤلفه ، ولم يكن الفرع الذى اختاره ميدانا لقلمه ، مما اعتادت أقلام الكتاب والمؤلفين المصريين والعرب أن تقترب منه ، أو تجول فيه ، ذلك ميدان التأليف المسرحى ، ولم يكن ذلك الطالب سوى توفيق الحكيم الذى اتخذ من شارع سلامة وداره فيها ميدانا لحوادث روايته « عودة الروح » .

وخلف شارع سلامة أو بعده بشارعين اثنين منزل أحب كتاب مصروإلى قلوب شبابها ورجالها فى ذلك العهد ، ألا وهو السيد مصطفى لطفى المنفلوطى صاحب « مجدولين » والعبرات والنظرات ، والتاج والفضيلة الذى جعل النثر العربى مزاجا من الموسيقى السهلة ، والأناقة المرسلة .

وفى نفس البقعة كان يقيم الشيخ عبد العزيز البشرى وهوكاتب فحل آخر لانت العربية الفصحى فى يده فاستعملها فيما لم تستعمل فيه من قبل ، حتى استطاعت أن تحمل إلى قلوب وعقول نكات ومداعبات وقفشات « أبناء البلد » ، فى لغة من الفصحى النقية ، فى رصانة لا تصد الناس عن تذوقها ، وكأن « الجاحظ » قد بعث ليكتب فى شئون حياة المصريين اليومية ، وجلساتهم على أفاريز الشوارع فى المقاهى والأندية و« البارات » وفى الأفراح والسهرات ، وقد كانت له فكاهات ومداعبات تروج على ألسنة ظرفاء أيامه كشاعر النيل حافظ إبراهيم . والشاعر إمام

العبد وعميد الظرفاء محمد البابلى ، وقد ذاعت له دعابة لاذعة . عندما خلع الجارم العمامة ولبس البذلة الأوربية . فقد قال : إن حافظا والبابلى يذهبان كل مساء بالجارم وهو يعتمد على ذراعيهما من يمين ويسار ، إلى ميدان عابدين يعلمانه المشى بالبذلة وقد كان ميدان عابدين المكان الذى يتمرن فيه الصبيان على ركوب الدراجات . عند بداية التعليم .

وقبل أن أصف لك شخصية بيت شارع سلامة ، كما وقعت صورتها فى نفس الصبى ، وبالقدر الذى كان يعى به الأمور ويفهمها – أحب أن أروى لك ، آخر ما بقى فى ذاكرة الصبى عن هذا المنزل من وقائع ، فقد عرف فيه أول السيدات العاملات اللاتى صادفهن ، فقد كانت المرأة العاملة كالمدرسة والطبيبة أو الحكيمة أو الممثلة أندر من الكبريت الأحمر . ففى محيط عشرات بل مئات من الأسر لا يسمع الإنسان عن واحدة ، تخرج كل صباح إلى عملها فى ديوان من دواوين الحكومة أو فى مكتب أو فى شركة . ولذلك كان من الطريف الذى يستحق الذكر أن يكون أمام دار الصبى فى شارع سلامة سيدة تعمل ضابطة فى إحدى مدارس البنات الحكومية . وهو لا يزال يذكرها طويلة عريضة ، مملوءة بالحيوية ، وبالطيبة وكان زوجها على النقيض منها قصيرا نحيلا ولكنه رجل يجمع بين الطيبة أيضا والذكاء والهمة ، وكان عائدا لتوه من إنجلترا ، فكان بدوره شخصية جديرة بأن تثير الاهتمام فى النفوس ، إذ كان العائدون من أوربا كالعائدين من القمر ! وكان ما يروونه عن مشاهداتهم فى بلاد بره ، أشبه بمجازفات أبطال المغامرات فى أدغال أفريقيا ، ولا ينسى الصبى ، أنه سمع فى غرفة المحامين بمدينة الزقازيق ، حديث المحامى الأستاذ السيد حامد فهمى ، شقيق أستاذ القانون محمد حامد فهمى . الذى درس « المرافعات » بعد ذلك بعشر سنوات وقد تحلق المحامون حول زميلهم ، وهو

يروى لهم شيئا غريبا غاية الغرابة ، رآه فى باريس فماذا تظن أن يكون هذا الشيء الغريب ، كان تحدث المستمعين إليه عن « المنادى » الذى يفتح لك باب السيارة ، أو « التاكسى » من غير أن تدعوه لذلك . ثم تكون بعد ذلك ملزما بأن تدفع له مبلغا من المال . لم يصدق المحامون ذلك ، وانهالوا على زميلهم بالأسئلة : ماذا يحدث لك إذا لم تدفع «البقشيش» . وهل الحكومة تترك هؤلاء الأشخاص يفرضون أنفسهم على الناس وهل جرؤت على عدم دفع هذه الضريبة التى يفرضها هؤلاء السمجاء ؟ ولم يدر هؤلاء السامعون أن هذا الذى أثار تعجبهم . وتساؤلهم واحتجاجهم سيصبح ظاهرة عادية ومألوفة فى بلادنا بعد حين .

وقد كان لهذه الأسرة الكريمة فى المنزل المقابل أثر فى حياة الصبى أى أثر ، لا لأن هذه الأسرة . رزقت أول ما رزقت من الأطفال بنتاً ولا لأن أم الطفلة خطبته – وهو صبى – لابنتها – على عادة الأسر التى تربط الصداقة والمودة إحداها بالأخرى – والصبى يسمع عن هذه الخطبة ولا يشعر بشىء لا من الزهو ولا من الرضا ولا من السخط ، لأنه لا يدرى من هذا الكلام شيئا ، وإنما كان أثر هذه الأسرة فى حياته ، على وجه آخر ، فقد رشحت هذه الأسرة لأخت الصبى الكبرى زوجا ، وكان من أصدقاء الزوج الحميمين ، فشهد الصبى ، مراحل الخطبة وعقد القران والزفاف . وهى تجارب تحفز ذهن الأطفال ، وتطلعهم على جانب من الحياة ، يثقف وجدانهم . . ويوسع إدراكهم . ولكن كان لهذه الخطبة فى نفس وحياة الصبى ، أثر أعمق ، فخطيب أخته ثم زوجها بعد ذلك أصبح للصبى صديقا حميما مع أن فارق السن فى ذلك الحين كان ربع القرن أو يقل قليلا ، كان زوج أخته من تلاميذ مصطفى كامل ، فثبت عند الصبى حبه لمصطفى ، وإعجابه به . وإيمانه بمبدئه وكان قارئانهما ، لا يكف عن القراءة ، فقوى الميل فى نفس

الصبى إلى القراءة ، وكان ميالا للدراسة القانونية ، فانتسب إلى كلية الحقوق مع أنه كان قد أتم تعليمه العالى بنجاح ، فجعل عزم الصبى على أن يكون محاميا ومن رجال القانون قرارا لا رجعة فيه ، وهو بعد يكاد (يفك الخط) متعثرا .

ومن أمتع المشاعر التى مرت بالصبى حينما كبر ، وشاب رأسه – أن يسمع بولدين . لهذه الأسرة المحبة المجاورة (ولدا فى صباه ، ورأى أحدهما فى المهد ، ورأى صورة الآخر طفلا تسنده يد من خلفه « ليصور » وقد أصبحا ضابطين كبيرين أديا فى حياة مصر ، فى الحرب والسلم دورين كبيرين ، وما زال دورهما ممدودا إلى اليوم . وقد تعجب أنه لم يلتق بأى منهما قط وأنهما إذا رأياه فقد لا يعرفان من هو . وماذا يكون منهما ؟ وقد بقى جاهلاً لاسميهما حتى نبهته إحدى أخواته ، وهو يطالع خبراً فى الصحف ، أن ذلك الضابط الكبير هو الطفل الذى سمعت بمولده إبان كنا فى شارع سلامة . . وسكت الصبى – وكان آن ذاك رجلاً بل كهلاً – وهو يعجب من دورة الزمان !

وإذا كنا نود أن نخرج من نطاق ذكريات الصبى فى شارع سلامة ، لننتقل إلى سواها – فلابد أن نذكر أن قاضيا شابا عاش فى هذا الشارع على ما روى الصبى فى قصة طفولته . وقد أبى الشارع الذى اجتمع فيه وحوله الأدباء إلا أن يدرك بآفته آفة الأدب . هذا الشاب القاضى . فأحب بدوره الأدب . فلما عمل فى مكتب النائب العام محمد عبد الخالق ثروت باشا الذى ترافع فى قضية الوردانى ، ثم فى قضية إمام واكد ومحمود طاهر العربى ومحمد عبد السلام الذين اتهموا بالشرع فى قتل اللورد كتشنر والخديو عباس ورئيس الوزراء محمد سعيد باشا – وجد أن أستاذه ثروت باشا محب للأدب ، والأدب القديم ، أدب العقد الفريد والكامل ونفح الطيب وصبح الأعشى حتى كانت مرافعاته فى تلك القضايا قطعا من أدب القضاء والقانون ،

فنسج القاضى الشاب على هذا المنوال ، فلما أصبح نائباً عاماً بدوره ، وحصل على الباشوية وأصبح محمد لبيب عطية باشا ، وترافع فى قضايا الاغتيال السياسى ، كما ترافع أستاذه من قبل ، ومنها قضية «الفلال» الذى شرع فى قتل رئيس الوزراء صدقى باشا ألقى مرافعة حسنة الديباجة ، ولكن الوفديين الذين كانوا خصوماً للبيب عطية باشا ، تندروا ما استطاعوا على عبارات فى هذه المرافعات ، ووصموها بالتكلف . وهكذا دخل شارع سلامة فى تاريخ الأدب المصرى . لا بمن أقام فيه من الأدباء فقط ، بل بمن سكنوه من أدباء القضاة . . ولا تنس أن الشيخ عبد العزيز البشرى لم يكن أديباً منقطعاً لـلأدب ، وإنما كان قاضياً فى المحاكم الشرعية ، كما كان الحكيم وكيلاً للنائب العام ، فكلهم أدباء قانونيون أو قانونيون أدباء .

فماذا كانت صورة منزل الصبى فى شارع سلامة فى نفس الصبى أيام صباه .

كان يبدو له هذا المنزل كرجل قليل الكلام ، يحترمه الناس . ولا يعرفون ماذا يدور فى نفسه . أنيق بغير إسراف . يطل على الناس من عل ، ولكن بغير استكبار ولا تعال .

فماذا كان من أمر البيت الثانى الذى عاش فيه الصبى فى نفس الحى ، المعبق بذكريات الماضى ، وبآثار الأولياء ، وبأحداث تاريخ مصر الحديث الكبرى .

يكفى تقديمه . بأن أقول لك ، إن هذا المنزل حينما هدم أقيم على جزء من أرضه سينما كاملة ، هى السينما الأهلى ، بميدان السيدة زينب ، ولما أقيمت هذه السينما ، ذهب الصبى ، إليها ، لا ليشاهد فيلما . فإن الأفلام التى تعرضها ، لم تكن لتستهوى الصبى . وإنما ذهب ، ليرى كيف أقيمت على الأرض التى كانت مرتعا من مراتع صباه دارٌ عامة . تؤمها المئات فى الساعة الواحدة أو فى الوقت الواحد

مئات لا يعرف بعضهم بعضا ، بعد أن كانت هذه الأرض ذاتها تقل بيتا يضم أسرة صغيرة لا يزيد عدد أفرادها عن سبعة . ومعهم ثلاثة آخرون يعينونهم على شئون الحياة . سيدة وشابة ورجل . .

ولم يكن من خصائص الصبي الحنين المفرط للماضي فهو يذكره ، ولا يتجاهله ولا يتنكر له ، ولكن لا تنتابه عواطف الحزن ، ولا الأسف على الأيام التي انقضت ، ربما لفرط انشغاله بالحاضر ، أو لشدة تشوفه وتطلعه للمستقبل ، وربما لطبيعة مزاجه الذي لا يد له فيه ، والذي يختلف الناس بعضهم وبعض في نصيبهم منه ، ثم يفلسفون الأمور بعد ذلك ، واهمين أن طبائعهم تخضع لفلسفاتهم وأن العكس ليس صحيحا . .

ولكن لنبادر بسؤالنا عن شخصية هذا البيت الذي يتكون من ثلاثة أدوار غير سطحه والذي كان يضم فناء ، طالما اتخذه الصبي ميدانا للعب كرة القدم مع لداته وأصحابه .

حاول الصبي حينما سمع هذا السؤال أن يسترجع صورة هذا البيت في نفسه ، وبعد جهد استطاع أن يقول إنه بين البيوت كرجل لا شخصية له بين الآدميين ! وكثيرا ما نلقى من الرجال أو النساء فردا نحار في وصف أثره في نفوسنا . وإذا كان من الأسهل تقريب الأشخاص إلى النفوس والعقول باستعارة مذاق الأطعمة والأشربة : فنقول – هذا حامض ! وذاك لاذع . وذلك حريف ، والرابع حلو ، والخامس مر – فهذا البيت لا طعم له ! فهو لا يبعث البهجة ، ولا الانقباض ، ولا يستمتع بالهيبة ، ولا بالتواضع . تمر به فلا يستوقفك ، وتدخله فلا تحس أنك دخلت مكانا جديدا ، وإن كان تصميمه غريبا نوعا ، بل غريبا ممعنا في الغرابة :

فعلى السلالم عدد من الحجرات الصغيرة التي تسمى بمصطلح المصريين

« المسروقة » . وكل دور فيه على اتساعه يضم أربع حجرات فقط ، لا تلتزم منهجا ذا منطق . تصل بين طرفيه طرقة طويلة رفيعة ، لا يمكن الانتفاع بها فى شىء . وفى أحد الطرفين حجرة فسيحة تكاد تصلح قاعة للمحاضرات ، ثم فى الطرف الآخر . حجرة أقل منها اتساعا تفضى إلى حجرة صغيرة ضيقة ، فما الذى انتاب عقل المهندس مصمم المنزل . ليبدد هذه المساحة الكبيرة على هذه الصورة التى تكاد تكون سفها . وكان المنزل يطل على شارعين أحدهما جديد . يجرى فيه « الترام » هو شارع الخليج المصرى ، والآخر قديم غاية القدم والطريف أن هذا الشارع القديم اسمه « الدرب الجديد » وأن الشارع الجديد ، هو فى الواقع أقدم شوارع القاهرة لأنه الشارع الذى كان منذ قرون خليجاً تجرى فيه المياه ، وكأنه شارع من شوارع البندقية . التى تحل فيها القنوات محل الطرقات . وتحل فيها قوارب الجندول محل العربات والسيارات .

ولكن هذا الخليج ردم ، فقد ألف المصريون أن يلقوا فيه جيف الحيوانات والدجاج والكلاب والقطط ، وأن يملئوه بأقذار القمامة ، حتى إذا أصبح مستودعا للنجاسة ، ومصدرا للأمراض ، اغتسلوا فيه وغسلوا فيه أوعيتهم ومواعينهم التى يأكلون فيها ويشربون ، فكان لا مفر من ردمه .

وكان هذا الخليج يشق القاهرة من أقصى الجنوب عند مصر القديمة ، وبالضبط عند فم الخليج حتى غمرة . فلما ردم الخليج . حل محله شارع جديد ، طويل غاية الطول ، تبلغ أرقام المنازل فيه بالمئات وتكاد تصل إلى الألف أو تتجاوزه .

وقد كان فى المنزل شرفات تطل على شارع الخليج مصنوعة على طراز « المشربيات » التى يرى المناظر منها الناس ، وهم لا يرونه ، مما يؤكد أن المرأة حتى فى أشد عصور الحجاب . كانت على صلة بالحياة الخارجية ، بل لعل صلتها بتلك

الحياة كانت أقوى ، لأنها صلة ممزوجة بالشعور بالحرمان . مما يرهف الإحساس بالدقيق والرقيق والخفى من الأمور . ذلك لأن الحرمان يزيد إحساس المحرومين بلذائذ الحياة . فيحصلون منها على مالا يحصل عليه المتنعمون المتخمون . فكسرة الخبز عند الجائع الفقير تمنحه من المتعة والشبع . مالا يمنحه خروف حنيذ لمترف غنى .

ولقد كان الصبى يقف وراء نوافذ هذه الشرفات ، وينظر من خلال ثقوبها ، أو من النافذة الصغيرة التى تتوسط الضلع الأكبر من أضلاع الشرفة ، ويغطى هذه النافذة غطاء مصنوع من خشب المشربيات يدفع إلى الأمام ، فيرى الناظر بغير حجاب ولا ساتر . ولما كان أهم عناصر شارع الخليج هو « الترام » وكان الترام فى ذلك العهد سيد الشوارع التى يمر فيها ، إذ لم تكن القاهرة تعرف من وسائل الانتقال ما تعرفه الآن ، وما عرفته بعد أيام صبا بطل قصتنا من الأتوبيسات وسيارات الأجرة والسيارات الخصوصية ، ووسائل النقل الخفيف من دراجات بخارية ، فكان « الترام » محورا لحياة متعددة الصور ، وكأنها شريط من الصور المتحركة ، لا نهاية له .

وقد زاد من ضخامة دور الترام فى حياة الصبى أن بيته كان على مرمى حجر من ميدان السيدة زينب ، وقد كان هذا الميدان نهاية خطوط عدة من خطوط الترام . فكانت المحطة الانتهائية عالما حافلا بالحركة والحياة ، تلتقى فيه طوائف من البشر ، من النساء والرجال والأطفال من أهل المدينة ، ومن أهل الريف ، من الأغنياء والفقراء ومتوسطى الحال ، فى أزياء لا حصر لها ، أشار إليها الصبى فى قصة طفولته . وكان إلى جانب ركاب الترام سائقو الترام ومحصلوه « الكمسارية » ثم المفتشون من المصريين . ثم كبار المفتشين من الأجانب ، ثم الشيالون الذين ينتظرون فى المحطات ، ثم بائعو الخردوات ، من « الفراتيك » والفلايات والأمشاط

والدبابيس والأزرار. ثم بائعو الحلوى ، وبائعو الصحف . وبائعو لعب الأطفال . وفى كلمة ، كان سلم الترام ، سوقاً تتحرك معه . ويتوالى فيها عرض البضائع وقد تبلغ هذه البضائع من الجسامة بحيث تشمل قطع القماش أو الكتب والمصاحف . والنظارات وورق اليانصيب .

والطريف الممتع أن هؤلاء الباعة . عرفوا كيف يتقنون فنون البهلوانية الخاصة بهذا الترام ، فهم يقفزون إليه وهو سائر بأقصى سرعته ويقفزون منه ، ووجوههم متجهة إلى اتجاه الترام. إذ يديرون وجوههم ، ويقفزون فى اتجاه مضاد . وبضائعهم فوق أكفهم ، ولا تسقط ، ولا يسقط منها شىء ثم تدربوا وتقدموا فى هذا الفن الرائع ، فأصبحوا يقفزون من الجانب الأيسر من الترام ، وهو جانب تمد عليه قضبان حديدية لتمنع النزول منه ، ويرفع فيه سلم الترام ، فيصبح المتعلق بقطاره أو عربته من هذا الجانب كأنه متعلق بالهواء ، ولكنهم على هذا الجانب المحفوف بالخطر لا تطرف لهم عين ، ولا تقف فى أجسادهم شعرة ، ويستمرون فى عرض البضائع والسلع ، كأنهم فى حوانيتهم على مقاعد وثيرة ، لا يحسون بخطر ، ولا يهددهم الموت .

وقد جردت المحافظة أعوانا لها لا هم لهم إلا مطاردة هؤلاء الباعة الأبطال ، ومنعهم من القفز إلى الترام والقفز منه ، ولا سيا القفز من الجانب الأيسر ، فأصبحت هذه المطاردة لونا طريفا من ألوان « سيرك الترام » ، يطيب لمحبى التأمل فى حياة الشوارع أن يتابعوه ، وكأنها فصل فذ من فصول رواية ، من روايات مغامرات السينما التى بدأت تغزو قلوب وعقول وجيوب الصبيان والشبان ، ولا سيا شبان هذه الجماعة المجاهدة من باعة الطريق ، وممارسى الرياضة المحفوفة بالمخاطر على سلالم الترام .

ولقد كان للسيدات قسم خاص فى كل عربة ترام ، مكتوب على بابها « حريم » وكانت هذه الكتابة فى لوحة من الصاج ، وكانت الكتابة بالمينّاء البيضاء على أرضية زرقاء . وقد كان للشبان الذين يقفزون إلى الترام تشبها بالجماعة الجائلين ، غرام شديد بالوقوف على باب حجرة الحريم ، ليغازلوا علنا أو على استحياء ، سيدات وآنسات ، أسدلن على وجوههن ، براقع بيضاء من الموسلين الرقيق ، فزادتهم هذه الغلالة جمالا وإغراء ، إذ أخفت التقاطيع التى لا تستقيم كثيرا فى وجوه المصريات ، وتركت العيون التى هى أجمل ما فى المرأة المصرية ، لتؤدى دورها ، فى إثارة شجون ، وأوهام المحرومين . .

وكثيرا ماكانت تسفر المغازلة عن ظفر الشاب الذى غامر بحياته ليقترب من حرم « الحريم » بصفعتين قويتين من شرطى يرتدى جلبابا للتخفى ، ثم يضع يده على كتف الشاب لجره إلى قسم الشرطة ، ولكن الشاب عادة يقفز إلى الطريق ويعدو ، ومن خلفه غريمه ، فتضحك السيدات والآنسات من هذه المفاجأة التى أنهت مغامرة ، وقعت من أجل سواد عيونهن حقا لا مجازا .

فلا عجب أن يكون « الترام » صديقا للصبى . يتابعه خارجا من المحطة النهائية فى ميدان السيدة زينب وعائدا إليها محملا بحمولته البشرية ، وكأنه مدينة صغيرة تتنقل فى بطء من مكان إلى مكان فى المدينة العظيمة . وقد أصبحت للصبى دراية أكبر بأرقام خطوط الترام واتجاهات مسارها ، ثم معرفة بوجوه سائقى القطر الذين كانوا يقفون أمام جهاز التسيير البسيط . ويميز بين عادات الواحد منهم عن الآخر . وكان فى المحطة النهائية مطعم خاص لعمال الترام من قادة و « كمسارية » ومفتشين صغار ، وهو عبارة عن منضدة يباع فيها لحم رأس الضأن ، فى أرغفة . كأنها الوالد الشرعى ، لما عرف بعد ذلك « بالساندويتش » الإنجليزى الذى كان غرامه بالقمار

سببا فى ابتكار هذا الأسلوب الميسر لتناول الطعام على المائدة الخضراء !

وكان أكثر قادة الترام يفضلون تناول طعامهم من لحم الرأس فى أرغفة يتصاعد منها بخار الموقد ، وهم يقودون قطرهم فيقضمون قضمات كبيرة ، تتضخم لها أشداقهم ، فتثير فى الصبى شهيته للطعام على الرغم من ضعف هذه الشهية وعزوفه عن الأكل لكثرة أسقامه ، وقل أن أرى الصبى قائدا لترام يحمل بين يديه ، كوب شاى فلم يكن الغرام بالشاى قد استشرى استشراءه الآن ، فقد استأثرت القهوة بحب الناس فى تلك الأيام . وكأن الناس يتناولونها فى هدوء . وصفو مزاج لا وقوفا ولا متحركين كما يفعل الآن قادة « الأوتوبيسات » فى مصر بالشاى الذى أصبح مرضاً عضالاً لا علاج له ، ولا شفاء منه !

وكان « للترام » دور آخر فى حياة الصبى . فقد كانت مظاهرات تلك الأيام تبدأ أحيانا ، وتنتهى أحيانا ثانية وتجرى مرة ثالثة فى الترام ، فإذا حدث فى البلد حدث سياسى مرت قطر الترام أمام الصبى مملوءة بتلاميذ المدارس ، وقد ركزوا علم معهدهم عند السائق ، ثم تعلقوا بسلم الترام من الجانبين ، وغيروا مسار الترام وراحوا يهتفون ملء رئاتهم ، وإلى أكثر ما تستطيع حناجرهم . فإذا اشتد بهم الغضب . واستبد بنفوسهم اليأس انقلبوا على صديقهم الترام فأحرقوه ، وقلبوه على الأرض ! كانوا يفعلون ذلك بطريقة لا شعورية يوحى بها العقل الباطن ، فانتظام سير الترام معناه استقرار الحال ، وانقطاع سيره معناه أن الأمور لا تجرى مجراها العادى ، وأن الناس غاضبون وساخطون ، ومظهر المدينة الخالية من الحركة ومنظر العربات المقلوبة ، والمحروقة ، بلا شك منظر كئيب قاتم ، وهو يناسب تماماً بلدا لا ترضى عن حالها ، ولا عن القائمين بالأمر فيها .

وقد كان من حظ الصبى أن يشارك فى مظاهرة كهذه المظاهرات ، وأن ينتقل

من دور المتفرج إلى دور الممثل ، وإن كان دورا ضئيلا شاركه فيه مئات الألوف من أمثاله من الصبيان ، وممن يكبرونه قليلا وكثيرا ، ومن السيدات ، والآنسات ، ممن كن يسمين فى ذلك العهد بالعقيلات وربات الخدور .

وكان ذلك فى اليوم الثلاثاء الثامن من شهر يونيو سنة ١٩٢٠ ، عندما نقل جثمان الزعيم محمد فريد من برلين إلى القاهرة على نفقة تاجر من تجار الزقازيق وهو الشيخ عفيفى خليل فقد خرجت القاهرة كلها ، بل مصر بأسرها . تستقبل هذا الجثمان . وهى تعرف أن صاحبه استشهد فى الغربة وحيدا . لا زوجة معه ولا ابن ولا رفيق ، مجردا من المال ومن السلطة فقيرا معدما لا يجد طعام يومه . ولا ثمن الدواء ليسكن آلام علة اشتدت به . وبرحت به أوجاعها . كل ذلك من أجل مصر ، ومن أجل استقلالها وحريتها . قصت عليه أمه .

قصت عليه أخواته قصة هذا البطل ، فلم يستوعبها ويفهم معناها . فحسب . بل إنه أحب صاحبها مع أنه كان يجد نفسه حائرا أمام هذه الهتافات التى كانت تملأ الجو بسقوط أشخاص وحياة أشخاص ولا أحد من أهله قادر على أن يقرب إلى ذهنه لماذا هذا الرضا ، ولماذا ذاك الغضب ولا الفارق – بين المغضوب عليهم ، والذين أنعم الوطن عليهم .

أما يوم الثامن من يونيو سنة ١٩٢٠ يوم أن ذهب الصبى ليستقبل جثمان رجل أبى إلا أن يحارب الإنجليز وقد تصور أنه قادر على أن يجليهم عن أرض وطنه ، فكان سعيدا غاية السعادة بأن يكون فردا فى هذا الجيش اللجب ، وأن يأخذ مكانه ضمن صفوف لا حصر لها ، وأن يسير على قدميه من ميدان السيدة زينب إلى ميدان المحطة ، وهى مسافة لا شك فى أنها طويلة وبعيدة لصبى ضعيف كثير الأمراض ، ثم سار فى نفس اليوم وبعد ساعات طويلة من ميدان المحطة فى أقصى المدينة ، إلى

مدافن السيدة نفيسة فى أقصى المدينة من الطرف الآخر لها ، ثم يدخل إلى المدفن الذى لم يتسع إلا لمائة أو مائتين ، فكيف استطاع أن يكون ضمن هذا العدد القليل فى ذلك اليوم الذى يشبه يوم الحشر. وسمع يومها واقفا خطبة رجل صاحب صوت مجلجل ومدو ، عرف فيما بعد أنه على فهمى كامل ، وحفظ كلامه ، وسرته طريقة نطقه لأسماء عواصم أوربا قال : سمعتكم تذكرون جهاد فريد فى برلين وباريس فقط . . وكأنه لم يجاهد فى فيينا وبروكسل ولوكسمبورج أيضا . .

كان يطيل هذه الأسماء ، وينطقها كما ينطق الفرنسيون ، فخيل إلى الصبى أنه طاف بهذه البلدان ، وعاد إلى بيته سائرا على قدميه يكاد يطير من فرط النشوة ، ولكن رحلة ذلك اليوم كانت أكبر من أن يحتملها بدنه الواهن ، فمرض مرضا طويلا ، ليكون المرض تدشينا وتكريسا لحبة لفريد ، ولما يمثله فريد فى حياته ، وفى حياة مصر . .

الخليج العاشق

الخليج العاشق هو – كما سبق القول – الخليج المصرى الذى كان يشق القاهرة من أقصاها جنوباً عند « فم الخليج » أو مصر العتيقة إلى أقصاها شمالاً عند منطقة غمرة .

هذا الخليج القديم كانت تقام على جانبيه الحدائق والبساتين وقصور الخلفاء الفاطميين ، كما حدثنا عنه على مبارك فى خططه التوفيقية ، كان نزهة للعيون ، وفرجة للنفوس ، ومنتجعا لطالبى الراحة والتسرية ، فى القوارب والمراكب الشراعية تتهادى فوق سطحه الهادئ ، وفيها أحيانا الطبل والدف والمزمار ، مما يستعمله من يسميهم المقريزى « أهل الخلاعة » ، حتى أمر الحاكم بأمر الله منع ركوب القوارب فى الخليج . ولكنى لم أكن أعرف أن هذا الخليج نفسه قد انتابته لواعج الهوى والغرام ، فأحب فلم يجد محبوبة تشابهه ، وتصلح مطمحا لقلبه ، وغاية لشطحات

وجده إلا « بركة الرطلى » ينتهى إليها ، ويصب ماءه فيها ، ويختلطان معا ، ويجد عندها ، بعد طول السفر الراحة والسكينة .

وقد شاء خيال المصريين « الفولكلورى » إلا أن يتخذ للقاء الحبيبين : الخليج والبركة ، عيدا ، تقام له زينات الأفراح ، وتتقاطر جموع القاهريين ، ومعهم وسائل الطرب ، يغنون ويرقصون ، كأنهم فى مولد من موالد الأولياء الصالحين ، ثم تضرب الخيام ، لفنون التمثيل الشعبى من خيال الظل إلى الـ « قره قوز» ، ويعرض أصحاب المطاعم ما لذ وطاب من صنوف الحلوى وألوان اللحوم التى تتصاعد لها أبخرة تدير الرءوس ، وتنشط شهية من أتخمهم كثرة الطعام كما أتخمتهم الفلوس ، ثم تدار الكئوس ، لتبلغ النشوة غايتها ، وتصل المتعة قمتها ، ولكن يبقى لمن لا يشبعون بهذا القدر من اللذات الحلال والحرام بقية من نشاط فى زوايا مستورة ومفضوحة ، تبذل فيها ذوات الجمال ما اختفى أو اتضح ، من مواطن الفتنة ، وعبث الشهوة . وقد اتسع مجال اللهو والإثارة ، وتعددت صوره ، حتى لم يعد للحياء مكان ، ولا للفضيلة زمام ، فوصل الأمر إلى السلطان ، فجمع أهل الرأى والفتوى ، فأمروا أن يمنع هذا المولد ، العجيب ، فضاع على الفن عيد أى عيد !

وقد فاتنى أن أخبرك أن ختام حفلات هذا الموسم الفريد كان زفاف الخليج إلى عروسه « البركة » . وكان يرمز إلى الخليج بشاب ، ممشوق القوام جميل المحيا تفوح من أردانه أجمل العطور يتمخطر على وقع الطبول والزمور ، وترشقه الأوانس بالورود والزهور ، إذ يرون فى شخصه الجميل ، وقده النحيل ، فارس أحلامهم ، وبطل غرامهم ، أما العروس وهى بركة الرطلى فلم يجرؤ أهل القاهرة على أن يرمزوا لها بفتاة ، فأصبح العريس لا يؤانسه إلا الخيال ، وهو ليس بالقليل على كل حال .

ولم يكن الصبى الذى نروى قصته وهو يطل من نافذته فى شرفته المصنوعة من

خشب المشربيات على شارع الخليج المصرى يعرف من قصة هذا الشارع شيئا ، بل لعل اسمه ، لم يسترع نظره إلى أصله ، لأنه لم يكن يرى فيه ، إلا شارعا ككل شوارع القاهرة ، ولم يكن أحد من أهله ولا معاصريه يلتفت إلى ما توحى إليه أسماء الشوارع من تاريخ قديم لها مثل بركة ، وقنطرة ، وساقية ، وبئر ، فلا يتصور انه كان فى هذه الشوارع فى يوم من الأيام ، قنطرة حقا ، وساقية صدقا ، وبركة وبئر ، بل لم يفكر قط فى أن حى « البغالة » فى قسم السيدة زينب الذى عاش فيه وتنقل فى نواحيه كان فعلا موطنا لتربية البغال ، وأن حى « الفجالة » كان غيطا لزرع الفجل وهكذا وهكذا . .

نعود إلى الصبى ومنزله فى الخليج . وقد شهد فى هذا الشارع شخصية غريبة جديرة ، بأن تصور وتذكر ، وحادثة مؤلمة حقيقة بأن تروى وتقرأ ، ومأساة إنسانية ، سالت لها دموع الصبى حينما وقعت ، وبقيت أياما وليالى ، تؤرقه ويطارده خلالها شبح بطلتها التعسة الحظ .

أما الشخصية فلرجل قصير القامة متين البناء ملتح كانت لحيته السوداء الشديدة السواد ، تدور حول وجه جميل التقاطيع ، تلمع فى صفحته عينان براقتان فوقهما حاجبان غليظان ، يتلاقيان ولا ينفرجان ، وكان الرجل لا يرتدى زيا من أزياء المصريين ، لا القاهريين ولا أهل الريف ، فلا هو ممن يلبسون الجلباب المصرى ولا الريفى ، ولا الجبة ولا الكاكولة ، ولا البذلة والطربوش ، وإنما يصطنع لنفسه رداء أشبه شىء برداء بدو سوريا وفلسطين ، ينتعل « خفا » فى قدميه ، وشالا أبيض على رأسه ، يكوره بأسلوب خاص ، وتنسدل على ظهره من تحت هذا الشال ، ضفيرتان طويلتان . وكان عمل الرجل ، أغرب الأعمال ، لم يكن يشاركه فيه رجل آخر فى مصر ، على الأقل ، إلى حد علم الصبى آن ذاك ، فقد كان يصنع أحذية

وجهها من قماش أبيض كأحذية الألعاب الرياضية ، ولكن نعلها لا يصنع من المطاط ولا من الجلد ولا من الخشب ، وإنما من خيوط الحبال ، يضمها بعضها إلى بعض ، فوق قطعة من الخشب ، تنتثر فوقها بعض المسامير ، فيلف الحبال حول هذه المسامير ، ويدقها بمطرقة صغيرة من حديد ، لها يد من خشب ، ثم يستعين بفتاة قصيرة وفقيرة ودميمة لتشد وجه النعل إلى خيوط الحبل ، فتصبح حذاء خفيفا رخيصا .

ولكن العجيب هو أن أحدا لم يشارك « الشيخ سليم » فى مهنته هذه ، وقد اتخذ لممارستها حانوتاً يواجه منزل الصبى تماما ، وكان الشيخ سليم يتخذ من حانوته مصنعاً ومسكنا ومصلى وخلوة ، فهو يعمل فيه ، فإذا جاء المساء نام داخله على أريكة ، فإذا حانت ساعة الصلاة صلى ، وإذا فرغ من كل ذلك انتحى جانبا ، وتلا ما لم يدر الصبى كنهه : أدعية هى أو تراتيل أو تعاويذ أو « تعازيم » سحرية ؟

كان الرجل يعيش وحده ، كأنه يقيم فى جزيرة وسط المحيط ، ليس له أقارب ولا أصدقاء ولا عملاء ، ولكنه لا يقاطع جيرانه ، ولا يزورّ عنهم ولا يتعالى عليهم بدليل أن الصبى كان يتردد عليه ، ويتحدث إليه ، فلا يضيق به ، ولا يصرفه حتى برفق فضلا على أن يشتد فى الكلام معه . ويحاول الصبى أن يذكر ماذا كان لديه من حديث . يهتم به هذا الرجل الغريب فلا يستطيع ، ولكن تعلق بذاكرته حادثتان أو ثلاث ، أولاهما أن كتاب حديث عيسى بن هشام وقع فى يد الصبى ، وكان فى طبعته الأولى ، فقرأ سطورا فى أول الكتاب ، تروى كيف سار عيسى بن هشام فى صحراء الإمام ، وقد خلا إلى خواطره ينادمها ، وإلى نفسه يناجيها والقبور من حوله يشملها سكون عميق ، والصحراء أمامه ، يظلها ليل بهيم ؛ فخيل إلى الصبى أن هذا الكلام شبيه بما يقوله الشيخ سليم ، فأسرع بالكتاب إليه ، وقرأ منه سطورا ،

فأنصت الشيخ وكف عن طرق حباله قليلا ، فلما رأى أن الأمر كله وصف طويل ممطوطة ، وأنه لا يبش بفكرة عميقة ولا جديدة عاد إلى عمله ، وطوى الصبى كتابه .

الأمر الآخر يذكره الصبى عن هذا الشيخ أنه سأله يوما عن صلاته ، فوعده الشيخ ، أن يصلى أمامه بصوت جهير حينما يوافى موعد الصلاة ، وأنجز الشيخ وعده ، ووقف يصلى صلاة قريبة من صلاة المسلمين ، ولكنها لا تطابقها ، فلعل الشيخ سجد ولم يركع ، أو لعله ركع ولم يسجد ، وما تلاه لم يكن الفاتحة . وقد حارت البرية فى مذهب الشيخ وملته : فمن قائل : إنه درزى : ومن قائل : إنه علوى ؛ ومن قائل : إنه ينتمى إلى طائفة من الطوائف الكثيرة التى تخلفت عن الحركات المعادية للإسلام ، والحركات الباطنية التى يختلط فيها الإسلام بالمانوية الفارسية ، وبعض عقائد الهنود غير الإسلامية

وقد حدث أن قرأ الصبى فى كتاب على فهمى كامل عن سيرة أخيه الزعيم مصطفى كامل أن الزعيم ولد مختونا ، فسأل الصبى عن معنى هذه اللفظة ، فقيل : إنه ولد على حال لا يحتاج فيها إلى عملية الطهارة التى يعانى منها كل صبى ، وتبقى من ذكريات طفولته المريرة ، وقيل للصبى أيضا : إن الصبى الذى يولد هكذا لابد أن يكون ممن ترضى عنهم عناية الله ، وفهم فيما فهم يوم ذاك ، أن عملية الختان جزء من طقوس الإسلام لا يكمل إسلام المسلم إلا بها ، فاختزن هذا كله فى ذاكرته ولما جاءت المناسبة سأل « الشيخ سليم » : هل قام بعملية الختان مادام يقول إنه مسلم ؟ وسكت الرجل ، ولم يبد عليه غضب ولا ضيق . ولكن الصبى ذهب يوما إلى حانوت « المكوجى » المجاور لداره ، فإذا صاحب المحل يقول وهو لا يستطيع أن يتمالك نفسه من الضحك : ماذا قلت للشيخ سليم ؟ إنه يشكو من أنك سألته :

هل هو مختون ؟. وشعر الصبي بحرج شديد ، فلما أفضى إلى ذوى قرابته بماسمع هالهم أن ابنهم اجترأ على طرح هذا السؤال على رجل لا تربطه به صلة حميمة بل على مجرد رجل . وبقى هذا الأمر كله من ذكريات الصبي غير السعيدة .

ولا ينسى الصبي صورة الشيخ سليم فى يوم كان الصبي فيه فى منزله مطلا على شارع الخليج ، فقد رأى يومها الشيخ وقد ترك عمله ، ورفع إلى السماء عينيه يديرهما فى الفضاء وقد ارتسم على وجهه من آيات القلق ما استطاع الصبي أن يطالعه من هذا البعد ، واستمر الشيخ يفعل ذلك ، وهو جامد فى مكانه لا يترك وضعه ، وحار الصبي فى سر هذا الموقف حتى ادار رأسه مصادفة إلى المنزل المجاور ، فرأى فتاة ، واقفة على قاعدة نافذة مفتوحة ، وبيدها خرقة ، وهى تمسح بها زجاج النافذة ، فى همة وفى حركة سريعة متصلة ، وأشفق الشيخ على الفتاة من السقوط ، واستبد به الخوف ، حتى حال بينه وبين العمل ، الأمر الذى قل أن يصدر عنه . وكانت أسنان الشيخ البيضاء تبدو لامعة ناصعة ، وهو يفتح فمه من فرط القلق ، وانطبعت هذه الصورة فى رأس الصبي ، وأحس أنها صورة إنسانية تفيض بحب الإنسان للإنسان وجزعه لمصاب من لا يعرفه ، فأحب الشيخ حبا عميقا .

وكان والد الصبي يزور الشيخ سليم فى حانوته بين الحين والحين ، زيارات قصيرة يتبادلان فيها التحية والسؤال عن الصحة ، ولكن قل أن يعود الوالد من إحدى زياراته دون أن يروى لأهل بيته ومنهم الصبي ، شيئا طريفا أو جميلا أو مؤثرا أو غريبا من حياة الشيخ .

وفى أحد الأيام أفضى الوالد إلى الأسرة ، بأن الشيخ واقع فى غرام الفتاة الفقيرة الضعيفة والدميمة التى تعاونه فى عمله ، والتى تأتى كل مساء لتسلم ما انتهت من إعداده من النعال ، وتتسلم الدفعة الجديدة منها ، وأن الشيخ بدأ يتحدث عن

اهتمامه بالفتاة على استحياء ؛ فهو يتحدث عن ضعفها وشدة حاجتها إلى المعين ، وارتقى من ذلك إلى الحديث عن أمانتها واستقامتها ، فإلى الحديث عن ذكائها وخفة ظلها ، حتى ترقرقت عيناه بالدموع يوما ، وهو يتحدث عن مرضها ، وانقطاعها عن العمل لهذا السبب وواساه الوالد ، ودعا الله أن تكون الوعكة خفيفة وسريعة الزوال ، فمست هذه المواساة الرقيقة شغاف قلب الرجل الوحيد الغريب ، فانهمرت عيناه بالدموع ؛ حتى أخجله أن يضبط فى هذه الحالة من الوجد واللوعة . . .

وبقيت هذه القصة القصيرة تساور خيال الصبي ، وتتردد عليه ، وتدعوه لأن يتأملها من جديد فيتخذها موضوعا لقصة أو رواية ولكنها كانت بذرة لا تثمر .

أما المأساة التى وقعت والصبي فى بيت شارع الخليج فهى جديرة بهذا الاسم بلا مبالغة ، إنها قصة زينب الفتاة التى عانت فى طفولتها من كساح ، فخرج بناء جسمها مختلا ، تحمل رأسا ضخما ، وكتفين عريضتين قويتين ، على جسم قصير ، وساقين ملتويتين قليلا ، وحوض ضيق ، ولكن زينب التى كان الناس يسمونها « زينب المكسحة » . وربما نادوها مباشرة بهذا اللقب ، كأنه اسم أبيها ! كانت فتاة ذات حيوية قوية البدن ، تتكلم فى لفظ بين ، وتعى الأمور وعيا حسنا ، وتقوم بالعمل فى البيت الذى كانت تشتغل فيه على وجه لا يدعو إلى الشكوى . كانت تعتنى بزينتها ، فتشترى لشعرها ضفائر مستعارة تضيفها إلى شعرها الأصيل . فيبدو شعرا طويلا ، وتشترى لهذه الضفائر المستعارة قروشا ذهبية تسمى « خريات » تعلقها بهذا الشعر ، لتزيده جمالا . وكانت فوق ذلك تقتصد من أجرها ، فتشترى من المصوغ الزائف عقدا يسمى « كردانا » .

وربما وضعت فى شعرها وثوبها رائحة رخيصة ، ولكنها تنم عن حرصها على أناقتها .

وكان الصبي يألفها ، ويضحك معها ، كلما رآها ، وكان أحيانا يدس يده فى صدرها فى براءة الطفل وسذاجته ، وشقاوته ، فتضحك ، وتتظاهر بالغضب ، والطفل لا يرى فى كل ذلك ، ما يدعو إلى اللوم ، ولا يستوجب النقمة . وفى ذات يوم شكت زينب من ألم مجهول ، ومرض غامض ، وحار أصحاب الدار التى كانت تعمل فيها فى تشخيص علتها ، ولما غم عليهم الأمر استعانوا « بأم جليلة » التى كانت تعمل فى بيت الصبي ، وخلت أم جليلة بزينب التعسة حينا ، ثم خرجت لتعلن لأهل الدار شيئا بصوت هامس مرتعش ، وقد علا وجهها مظهر حزن صادق وعميق . . مم تشكو زينب المسكينة ؟ أى علة دهمتها ؟ ولم يطل الأمر ، فقد استدعى أصحاب الدار عربة يجرها حمار ، ووضعوا « زينب » فوقها ، وتطوعت « أم جليلة » بالذهاب معها . . إلى أين ؟ عرف الصبي بعد ذلك أن العربة بحمارها ومن تحمله ذاهبة إلى قصر العينى ! وأن قصر العينى هذا مستشفى ، وأن المستشفى مكان لمعالجة المرضى الميئوس منهم عادة ، وأنه قل من نجا من شر المستشفيات التى كانت تسمى فى أحيان كثيرة « الأشلا » ، لا نسبة إلى الأشلاء ، باعتبار أنه لا يذهب إليها إلا من أصبح أشلاء ، كما كان يظن الصبي ، بل تصحيفاً لكلمة تركية هى القشلاق .

وأدرك الصبي من الهمس أن « زينب » ارتكبت خطيئة ، وأنها تدفع ثمن هذه الخطيئة ، ولا ينسى الصبي شكل هذه الفتاة المسكينة التى كان يلعب معها ويعابثها ، ويخاصمها ويصالحها ؛ فقد كان وجهها شاحبا تعلوه صفرة الموتى ، وكان جبينها يتفصد عرقا ، وكانت تقاطيعها تتحدث عن ألم عميق ، يعتصرها اعتصارا ، وكان مع ألم الجسم ألم ممض ، وهو ألم الشعور بالعار . . ومضت العربة بحمارها الهزيل ، والفتاة التعسة ، ملقاة على ظهرها ، كأنها جثة لفظت أنفاسها ،

وظهر أم جليلة على العربة كأنه يروى ويتحدث ويبكى ويصرخ . . لا لمأساة زينب « المكسحة » ، بل لآلام الإنسانية كلها ، وضعفها ، وهوانها وقلة حيلتها .

ولم يبك الصبى ، ولكنه وقف أمام باب داره ، وقد تثلجت يداه ، وتخشبت ساقاه ، وزاغت عيناه ، وغص بريقه ، وصمت واجما حائرا لا يدرى ماذا يقول ؟ ولا ماذا يفعل ؟

كان بوده أن يصحب زينب ، لولا أنه لا يدرى بالضبط بالأمر ، ولا إلى أى مكان تذهب ؟ ولما اختفت العربة خيل إلى الصبى أن كل شىء اختفى : بيته ، والشارع والترام ، وأنه نفسه لم يعد له وجود !

وشمله حزن غريب ، وقلت حركته ، وهو لا يكف عن الحركة ، وانقطع كلامه وهو لا ينقطع عن الثرثرة ، وسمع بعد ذلك من الأقاصيص والحواشى مازاده ألما ، وما بقى فى ذاكرته من هذه الأقاصيص والحواشى أن أحد أهل الشارع روى أنه كان عائداً متأخراً إلى بيته فى ذات ليلة فاصطدم هو برجل مخمور يتخبط فى الشارع ويصبح : يا بت يا زينب . . وقيل : إن هذا الرجل « عربجى » ، وأنه كان يلقى « زينب » فى ليال كثيرة فى حوش الدار التى تعمل فيها ولا أحد يحس بما يجرى هناك !

هل هذا خيال يوحى إلى الناس عند كل حادثة تقع ، أو أنه الحقيقة ؟ ولكن ما الفارق وقد اختفت زينب ولم يعد يسمع عنها أحد شيئا ؟ وقد قطع الجميع أنها لتشوه جسمها لم يكن وضعها للجنين إلا موتا محققا .

وإذا كان الصبى لم يشهد حادثة من الحوادث من شرفة منزله المطلة على شارع الخليج الذى يجرى فيه الترام أكثر مما يجرى فى أى شارع آخر بحسبان شارع الخليج هو أطول شوارع القاهرة فإنه تأثر بحادثة ترام لم يشهدها ، والغريب أنه لم يتأثر بها فور

وقوعها بل بعد وقوعها بشهور :

ففى ذات يوم خرج من مدرسته إلى داره فرأى جمعا حاشدا على مقربة من ميدان السيدة زينب عند اتجاه الترام إلى شارع خيرت فميدان لاظوغلى ، وسأل عن الخبر فعلم أن صبيا كان يحاول التعلق فى الترام فسقط تحت عجلاته ، وأنه سيحمل فى عربة إسعاف إلى المستشفى ، وتمهل الصبى قليلا ثم مضى إلى حال سبيله ، فاذا كان اليوم التالى علم أن المصاب فى حادث الأمس زميل من زملاء الفصل ، فذكر أنه كان صبيا أبيض اللون مستدير الوجه هادئا لا تعرف عنه رعونة ولا خفة ، ومضت شهور ، وعاد الزميل المصاب ، وقد فقد إحدى ساقيه ، واستعاض عنها بأخرى صناعية ، وتهيب الصبى أن ينظر إليه ، وخاف أن تلتقى عيناه بعينى الزميل ، ولكن الزميل المصاب ، كان طبيعيا هادئا لم يبد عليه أنه شعر بأهمية خاصة لنفسه بعد هذه الإصابة ، فلم يشجع تصرفه هذا إخوانه على الالتفاف حوله ، والترحيب به . ومضت الأيام فإذا خلق هذا الصبى يتضح كلما كبر ، واشتد إحساسه بفقده ساقه ؛ فقد اتسم خلقه بالغلظة والجفاء ، وأصبح خطابه لإخوانه أقرب إلى العدوان والرغبة فى المخاشنة ، وبقى هذا طابع مسلكه ، حتى بعد أن أتم تعليمه ، ونزل معترك الحياة العملية .

وكان من المشاهد التى كانت من صور الحياة الثابتة فى شارع الخليج على مقربة من منزل الصبى صورة أسرة مكونة من زوج وزوجته . كانت أسرة فقيرة مدقعة ، يعمل الزوج فى مصنع للسرر الحديدية على بعد خطوات من دار الصبى ، ولكنه لم يكن صانعا بل حمالا ، يرفع السرر إلى العربات التى تنقلها إلى حوانيت التجار أو بيوت العملاء أو ينزلها من العربات إذا كانت فى حاجة إلى طلاء أو ترميم أو إصلاح . وهو يتقاضى لقاء هذا العمل التافه قروشا قليلة ، لم تعنه على شراء خرقة

تستر بدنه ؛ فقد كان يلبس أجزاء من ثياب ، وكانت زوجته فى مثل سوء حاله ؛ ولما كان أكثر وقتهما فراغا فقد كانا يشاهدان جالسين الواحد إلى جوار الآخر يتحدثان أو يأكلان معا قطعة من خبز ، وقليلا من أدام رخيص .

ولكن هدوء هذه الأسرة يفارقها فجأة ، فكانا يبدءان النهار بشجار كلامى يحتدم قليلا ، فإذا أوشك النهار أن ينتصف تحول إلى صراع ، يحاول الرجل فيه أن يضرب زوجته فلا يستطيع ؛ لأنها أسرع منه حركة ، وأقوى منه بدنا ، فهى قادرة على أن تناله بأسنانها وأظفارها ، فيدمى وجهه ، وتقع من ثيابه الممزقة قطع ، فيزداد جسمه عريا ، ثم تظفر يد المرأة بأجزاء حساسة من جسم رجلها ، فيسقط مغشيا عليه ، فيتدخل من الجيران بين الرجل وزوجه ، من يفصلها الواحد عن الآخر ، فيتفرقان ثم يهدءان ويعودان كأن لم يكن بينهما شجار ، ثم يبدأ بينهما حوار عنيف فجأة ، ويزداد عنفا ، فيفضى إلى التماسك ، ويقع الصراع من جديد ، وتسقط أجزاء من الخرق التى يرتديها الرجل ويزداد جسمه تعريا ، ثم يغمى عليه فيثوب إلى رشده ، وهكذا دواليك . .

أيام وراء أيام والحال على هذا المنوال ، لم يشبعا قط من الضرب والصفع والركل والعض ، ولم يتغير وضع أحدهما من الآخر : المرأة دائما أقوى وأشد افتتانا فى العراك ، والرجل دائما مغلوب على أمره ، ولكن لم يفترقا قط ، ولا تبدو عليهما نية الانفصال أو الاتفاق أو مبارحة المكان ، ولا يتدخل أحد من الجيران ولا من عمال المصنع ، ليصلح ذات البين بين هذين الرفيقين الغريبين ، ولكن الخاتمة وافت أخيرا ، فقد سمع صراخ عنيف رهيب . ذات ضحى ، وخرج الناس من البيوت ، وأطلت النسوة من النوافذ فرأوا عجبا : رأوا الزوج لأول مرة وقد لف شعر المرأة على يديه ، وراح يلويه بعنف وهى تتلوى وتصرخ ، ثم أمسك بفتحة ثوبها القديم البالى

فشده إلى ذيله ، فإذا هى عارية تماما ، وأغمى على المرأة ، وعبثا حاول الناس ، إعادتها إلى صوابها ، وبقيت هكذا ، حتى تبرعت لها سيدة بثوب ، وقميص فأعادها ذلك إلى صوابها وبدأت تدير عينيها ، واستخذى الرجل ، فذهب بعيدا ، فلما تحركت امرأته قام فسار بهدوء بعيدا عن المكان فى خطا متثاقلة ، وأسندت المرأة ظهرها للجدار ، فلما مد رجل يده نحوها برغيف فيه بعض الطعام أخذت تقضم الرغيف وما بداخله فى هدوء وتثاقل وحزن ، فلما حل المساء مشت بدورها فى خطى متثاقلة ، ولم يعد أحد يرى أيا منهما أو يسمع عنهما .

حلاق الزعيم

أما الحلاق فهو الحاج طه ، وأما الزعيم فهو سعد زغلول .

وعلاقة الصبى الذى أروى لك حكايته بالحلاق وبالزعيم – أنه انتقل من بيت فى شارع الخليج إلى بيت يملكه الحاج طه .

ولم يكن الحاج طه شخصا عاديا بأى معيار قسته أو وزنته ؛ فقد كان حلاقا لرجل ، أحبته مصر حبا كاد يجاوز حبها وافتتانها ، بأى رجل سواه ؛ فقد نسجت حوله الأساطير ونسبت إليه المعجزات ، ورفعته إلى مراتب القديسين وأولياء الله ، ورفعه أقوام آخرون إلى مصاف أعلى وأسمى . وفى حياة الأمم والشعوب ، فترات يتقد فيها وجدانها ، وتلتهب مشاعرها ؛ حتى تصبح فى حاجة إلى ضرب من الوله تبحث له عن إنسان يجسده : ففرنسا مثلا فتنت بقائد لم يبلغ مبلغ « نابليون » فى البريق ، ولم يتمتع بما تمتع به الكورسيكى البطل من مخائل العبقرية وشارات

النبوغ ، هو الجنرال « بولانجيه » ، وكاد تاريخ فرنسا يتغير بسبب هذا الوله المفاجئ ، لولا أن بطلها المرموق وضع حدا لموجة التدله فى حبه ، بأن وضع حدا لحياته كلها على قبر معشوقة ، لم تره أهلا للاستئثار بقلبها .

ما علينا . .

وددت أن أحدثك عن الحاج طه ، وعن بيته الذى أدى فى حياة الصبى دورا بل أدوارا عظيمة وطويلة لولا أن لبيت الخليج المصرى ، فى ذمة التاريخ البسيط المتواضع الذى نرويه حقوقا صغيرة يجب أن نؤديها .

فقد مرض الصبى فى بيت الخليج مرضا طويلا يمكن أن نسميه مرضا عضالا أعيانطس الأطباء حقا لا مجازا ، حسبك أن تعلم أن هذا المرض ألزم الصبى فراشه ستة أشهر أو يزيد ، منقطعا عن الدراسة تلح عليه آلام شديدة ، يحس بنارها الملتهبة ، وشوكها الحاد فى مفاصل يديه ورجليه . ولم يقنع هذا الداء الكريه ، بما يسببه للصبى من أوجاع حتى أضاف إليها مضاعفتين : صعوبة الحركة ، وورما عند الركبتين ، قيل : إنه ناجم عن «ماء» تفرزه الأجزاء الغضروفية فى المواضع المريضة ، فيصبح محسوسا ، تتضخم له الركبة ، ويترجرج عند الحركة ، وكان يعالج الصبى آن ذاك ، أكبر أطباء مصر الباطنيين وواحد من عباقرة العلماء فى مصر ، ذلك هو الدكتور عبد العزيز إسماعيل باشا ، وكان فى فترة مرض الصبى فى مطلع شهرته ، قليل العناية بملبسه وبأثاث عيادته ، قليل الكلام مع مرضاه ، لا يهش لهم ، ولا يبش ، ولكنه لا يصل إلى مرتبة العبوس والتقطيب والخشونة .

وكان هذا الطبيب العظيم قد عالج الصبى نفسه من قبل من أمراض أخرى خطرة كالتيفود ، ولكن الذى يعنينا من مرض الصبى أن طبيبا آخر كان يقوم بمساعدة الدكتور عبد العزيز إسماعيل ، وكان لهذا الطبيب الشاب بأسرة الصبى أكثر

من علاقة : فقد كان زميل خال الصبي فى الدراسة الثانوية ، وكان يساكن أسرة الصبي فى منزل شارع سلامة الذى حدثتك عنه ، وكان إلى جانب هذا كله الطبيب الخاص للصبي ، فلا ينقضى شهر حتى يعوده من أجل مرض بسيط أو خطير.

ومرت الأيام وكبر الصبي ، وأصبح شابا ، ورأت السلطات أن تزج به إلى سجن الاستئناف ، وكان طبيبه هذا من أطباء مصلحة السجون . وشاءت المصادفة أن يكون الصبي فى صباح أحد الأيام الشتوية يتنزه فى ساحة السجن ، فإذا به وجها لوجه مع طبيبه وجاره السابق ، وصديق أسرته فاستولت عليه فرحة لم يشعر بها حينما أفرج عنه من قبل فى قضايا سياسية ، ولم تكن فرحته بالطبيب راجعة لأمل يعقده على الطبيب ، ولا لخدمة يطمع فى الحصول عليها فى السجن ، فقد كان أكثر موظفى السجن حريصين على التلطف للمسجون السياسى أيا كان مذهبه ؛ حتى اختلفوا معه فى الرأى ، إلا أن يكون موظف السجن دنيئا ضيق العقل ، قليل المرءوة ، وقد كان أمثال هؤلاء قليلين فى تلك الأيام ، لتفاهة الصراع الحزبى ، وقلة جدواه فى نظر الناس ، وإن لم يصرحوا بذلك أو يدركوه بعقولهم.

فرح الصبي إذ رأى طبيبه يتكلم مع موظف آخر من موظفى السجن ، ولم ينتظر الصبي حتى يقبل عليه الطبيب ، ويحييه بحرارة ، ويسأله عن صحته ، وصحة الأسرة فرداً فرداً ، ويذكره بأيام شارع سلامة ، وأيام شارع الخليج ، وتصور الصبي العبارات التى سيقولها له الطبيب ، فخيل إليه أنه سيمسك بيده ، ثم يتأمل فى وجهه ثم يقول له : لقد مضت الأيام سراعا . . ولقد أصبح الطفل المريض شابا ، بل أصبح سياسيا . . دعنى أتأملك ؛ فإنى لا أصدق عينى ثم يلتفت الطبيب إلى زميله موظف السجون قائلا : إنك لا تتصوركم كان طفلا ضئيلا ، وضعيفا . . » .

ولكن شيئا من كل هذا لم يحدث ؛ فقد مد الطبيب إلى الصبي – الذى أصبح

شابا – يدا لا حياة فيها . وقال ما نسيه الصبى لشدة الصدمة وقبح المفاجأة ، وكأنه كان معه فى الأمس القريب : وحارت ابتسامة على شفتى الصبى لا يدرى كيف يتخلص منها ؟ واسترد يده ، وهو يحس بأنها أصيبت ببلولة ، لم يدر أين مصدرها ، وعاد إلى الحائط الذى كان يسند إليه ظهره ، قبل أن يرى طبيبه القديم وعلى وجهه من آيات خيبة الأمل والحسرة ما لا وصف له . .

ولا تحسب أن الرجل فعل ذلك عن خوف من الحكومة ؛ فقد كان يرى ويعرف أن موظفين أصغر منه وآخرين أكبر منه كانوا يجاملون المتهمين السياسيين ، ويتنافسون فى التسرية عنهم ، وإجابة طلباتهم الصغيرة التى لا تخالف قانونا ، ولا تسبب للحكومة أذى . وإنما كان تصرفه راجعاً إلى فتور فى الإحساس ، وبلادة فى الشعور ، وثقل فى اللسان . ولقد غفر الصبى له فى الحال ؛ لأنه كان يعرف خلقه ، وهو الخلق الذى كان يسميه الصبى – عندما شب عن الطوق – بالمزاج الليمفاوى – وهو لا يدرى حتى الآن نصيب هذا الاصطلاح من الصحة .

على أن الصبى لم يتعظ ، فقد عرف وهو طالب فى المدرسة الثانوية جارا آخر كان يعمل قاضيا فى محكمة أسيوط ، وكانت والدة القاضى صديقة حميمة لوالدة الصبى على الرغم من أنها تكبرها بكثير ، وعلى الرغم من أنها كانت دائمة الشكوى من تعصب المسلمين ضد الأقباط .

وكانت هى من أسرة قبطية كبيرة ، وكانت والدة الصبى ، تحب هذه السيدة العجوز ، وتحب ما تصور به أعمال المسلمين وتجنيهم على الأقباط وتضحك ما يشاء لها الضحك ، وتروى للصبى وأخواته ما يدور بينها وبين جارتها من طرائف ولطائف ، بل كانت هذه السيدة تحب الصبى ، وتؤثره بحلواها وكعكها ، وتجلسه إلى جانبها ، وتقبله فى جبينه وتدعو له بخير كثير ، ثم تختم هذا كله بضحكة تداريها

بيدها الصغيرة النحيلة وهى تقول : بس إياك يتمر فيك . . وما تطلعش زى بقية المسلمين ! فيقبل الصبى يدها ويقول لها : نحن لا نقبل الرشوة ؛ فتتظاهر بالغضب وتدعى أنها ستخطف ما أمام الصبى من كعك أو فطير أو حلوى !

فذكريات الصبى مع القاضى وأمه كثيرة وحية وحميمة ، ومضت الأيام وتخرج الصبى فى كلية الحقوق واشتغل بالمحاماة ، وكانت له قضايا غير قليلة فى محكمة عابدين ، ونقل القاضى الجار إلى هذه المحكمة ، وفى ذات يوم لمح الصبى رجلا يشبهه يسير نحو حجرة القاضى ، فسأل الحاجب بلهفة : من يكون هذا الذى دخل الآن إلى غرفة المداولة ؟ فقال الحاجب : زكى بك . . » وانتابت الصبى أو المحامى الشاب الذى كان صبيا من قبل فرحة شبيهة تماما بفرحته وهو فى سجن الاستئناف حينما رأى جاره الطبيب وهى فرحة بريئة خالية من الغرض ، لم يكن الباعث عليها أنه سيجد قاضيا يعرفه معرفة وثيقة ، فقد كان المحامى الشاب ، على صلة غاية فى الجودة بأكثر القضاة ، وكان منهم من يزوره فى مكتبه وفى بيته ، بل كان منهم فى القاهرة على الأقل ثلاثة من أبناء أسرته ، ولكن أن يرى الإنسان صديقا فى حال ثم يراه وقد اكتسب مكانا رسميا ، وقد كتب عليه أن يعامله فى حدود القانون فهذه هى السعادة . سعادة أشبهها بتظاهر الأب بعضّ ابنه مزاحا ودعابة ؛ ففرحُ الطرفين بهذه الدعابة – ترجمته : أنا أستطيع أن أعضك أو أؤلمك ، ولكنى لا أفعل ؛ لأنى أحبك . . وأنا أتظاهر بالعض ، لأقول لك : الآخرون يعضون حقا ؛ فما يسعد أن يوجد من يستطيع أن يؤذينا ، ولكنه بدل الإيذاء يضحك معنا ويلعب . .

كذلك يقف المحامى الصديق أمام القاضى الصديق ، وكأنهما غير متعارفين ، ويتجهم القاضى ، ويعترض المحامى ، ويأخذ القانون كل حقه ، ولكن يحس الاثنان أن من وراء هذا كله حبا لا ينكر ، ومودة لا تنقض ، وعدل لا يميل . . .

وهم المحامى الشاب أن يندفع إلى حجرة القاضى ليرحب به ويحييه ويدعوه إلى بيته ويسأله عن والدته ! ولكنه قد كبر وأصبح شديد التحكم فى نفسه ، قليل الاندفاع إلا فى المسائل العامة ، وانتظر حتى حانت الساعة التى وقف فيها أمام القاضى بعد أيام ونظر إليه وعلى شفتيه ابتسامة خفيفة لا تكاد تلحظ ، وفوجئ بأن القاضى تجاهله تماما ولم يرد على هذه الابتسامة بمثلها أو بأقل منها . وعزّى الشاب نفسه أن ذلك فرط حيدة من القاضى ، وتصادف أن الاثنين تقابلا فى نهاية النهار ، وقد فرغ كلاهما من عمله ، والتفت الشاب إلى القاضى فى حرارة مضبوطة جدا ، فإذا به يرى القاضى مندفعا فى النزول على درجات السلم ، ثم التفت فى سرعة خاطفة إلى الشاب وقال له : إزيك يا أستاذ ، وخيل للأستاذ الذى وجهت إليه التحية ، أن السماء أطبقت على الأرض ، ولكن حياته العامة ، وما رآه خلالها من سقطات الناس ، وأكاذيبهم ، ووضاعاتهم ودناياهم –كانت قد زودته بمناعة ضد الآلام الناجمة عن مثل هذه المواقف فقال للقاضى وهو يهبط درجات السلم بخطى أسرع من خطاه : الله يحفظك» .

وطال عمل القاضى فى محكمة عابدين ، وتعددت المناسبات التى يتلاقى فيها والمحامى الشاب الذى عرفه صبيا ولم تخرج العلاقة بينهما عن حدود الرسميات المخففة بالمودة الناشئة عن كثرة التلاقى وعن احترام المحامى لزملائه : محامين وقضاة . وبقى الصبى الذى أصبح شابا يتساءل : ألم يئن لهذا الحاجز الزجاجى أن ينكسر؟ وفى ذات يوم دهب إلى محكمة جنايات الجيزة ليترافع فى جناية من أعقد ما مر به من قضايا ، قضية محيرة حقا ، لكن المستشارين لا يقرءونها حتى يستقر فى يقينهم أن عقوبة المتهم فى تلك الجناية يجب ألا تقل عن الموت شنقاً بحال . وترافع الشاب فى القضية مرافعة أراد الله أن تزلزل عقيدة المستشار الجار فى وجوب الحكم بالموت ،

ولكنها لم تصل به إلى يقين آخر . يطمئن إليه ويرتاح . . وفى اليوم التالى للمرافعة وكانت القضية قد نظرت أياماً رأى المحامى الشاب جاره القديم ، ورئيس محكمة الجنايات آن ذاك يتلطف معه ويسأله عن الصحة والأسرة ، وهو مأخوذ لا يدرى ما هذا التحول المفاجئ ؟ ولكنه سر به على كل حال ، بيد أن عجبه لم يطل ، فقد خلت المحكمة للمداولة ، وإذا بالمستشار رئيس المحكمة يؤجل الجناية لسبب تافه إلى دور مقبل ، وكان أحد المستشارين تربطه بالشاب المحامى صلة ، فلم يرحرجاً فى أن يقول للمحامى بعد ذلك بأيام « زكى بك . . استأذننا فى التأجيل ؛ لأن صلاتكما وثيقة تكاد تكون فى مرتبة القرابة » وسرنى أن تكون هذه الصلة قد كانت ذات نفع على أى وجه ، للمستشار الجار فقد أنقذته من حيرة لم يكن يجد منها مخرجاً !

نعود إلى بيت شارع الخليج ، لنؤدى له ما بقى فى الذمة : أى فى الذاكرة من حقوق : أى من ذكريات . . .

وقد حدثتك عن مرض الصبى الطويل العضال فى أثناء إقامته فى هذا البيت ، وأريد أن أروى لك من ذكريات هذا المرض : اثنتين أولاهما هى فى واقع الأمر ظاهرة نفسية فى حاجة إلى محلل نفسى ؛ ليدرسها ، ويستخرج منها دلالتها ؛ فقد كان الصبى طوال مرضه يكتب بإصبعه السبابة على غطاء فراشه حرف الحاء بخط الرقعة بلا قلم ، عشرات المرات فى اليوم الواحد ، بل مئاتها ، وقد كانت المدارس الابتدائية فى تلك الأيام حريصة على أن تعلم الأولاد الكتابة المحسنة المتقنة بالحروف العربية ، وكانت توزع عليهم كراسات مستطيلة ، فى أعلى كل صفحة من صفحات هذه الكراسة سطر مطبوع إما بالخط الثلث وإما بالخط النسخ ، وإما بالخط الرقعة وكانت هذه الكراسات تسمى « مشقا » .

ولما كان خط الصبى رديئا إلى أقصى الحد ، فقد كانت حصة الخط ، وهى مرة

فى الأسبوع ، من أثقل الحصص عنده ، ومن أكرهها إلى قلبه فقد قل أن تمر حصه من تلك الحصص دون أن ينال من مدرس الخط وبخاصة فى السنة الثالثة ، من الأستاذ عبد الحافظ عصا على كتفه ! وكانت مع الصبى ساعة لا ينظر إليها إلا فى حصة الخط ، فإذا نسيها أو تعطلت ، استعاض عنها بعد الستينات باعتبار أن كل ستين تساوى دقيقة فإذا انتهت الحصة والمدرس فى بداية الفصل تنفس الصبى الصعداء ، وارتفعت معنويته إذ نجا من ضريبة الضرب ، واستقبل الجزء الباقى من اليوم المدرسى سعيداً ، فإذا قاده سوء الخط ، إلى العصا المعهودة انقضى باقى يومه بغيضاً مراً .

وكان المفروض أن يكون الخط ، وكل ما يتصل به أبعد الأشياء عن خاطر الصبى المريض ، ولكنه بقى طوال الأشهر الستة ، يتمنى أن يبرأ . وأن يستطيع أن يمسك القلم بين أصابعه المريضة الموجعة ، ليكتب حرف الحاء بخط الرقعة . . لماذا الكتابة على الإطلاق ، ولماذا حرف الحاء ، ولماذا خط الرقعة ؟ ؟ معميات بقيت إلى اليوم ، بغير حل . والطريف أن الصبى حينما شفى من مرضه نسى تماما أمنيته القديمة .

وكان فراش الصبى غير بعيد عن الحجرة التى يتناول فيها باقى أسرته طعامهم وقد كانوا يجتمعون عند تناول وجبات الأكل ، وقل أن يتخلف أحد عن الغذاء بخاصة ، وإن كانت مواعيد الطعام جميعا محل احترام عظيم . وكان يترامى إلى سمع الصبى المسكين أصوات أبيه وأمه وأخوته وربما بعض الضيوف ، وهم يتناولون الطعام ، فكان يعذبه من هذه الأصوات ، دون باقيها : صوت المضغ أحيانا إذا وصل إلى سمعه ، والصوت الناشئ عن اصطدام « دورق » زجاجى بالأكواب التى على المائدة ؛ ففى هذه اللحظات كان يحس بالحرمان من متعة الطعام على الرغم من

أنه كان يشكو أغلب سنى طفولته وصباه من فقد الشهية !

وفى الفترة السابقة على إصابة الصبى بالمرض بدأت صلاته بعالم الحيوان ، فاقتنى قطا صغيرا . وأطلق عليه اسم «جناكليس» لأن أباه كان يشرب سجائر يعدها مصنع أجنبى أغلب الظن أنه يونانى ، اسمه جناكليس ، وقد كانت مصانع السجائر فى ذلك العهد موزعة بين الأرمن . وبين اليونانيين وقليل منها للطليان وكان من أشهر السجائر الأرمنية «سجائر ماتوسيان» ثم سجائر «ملكونيان» ، وكان من أشهر سجائر اليونانيين جناكليس ، وأشهر سجائر الطليان كوتاريللى وكريازى . .

ووقع الصبى فى تناقض ؛ إذ بقدر حبه للقط «جناكليس» أحب الفئران البيضاء ، فاقتنى منها اثنين أو ثلاثة وأودعها قفصا من خشب بأسلاك رقيقة من النحاس ، وأحسن تغذيتها . فتضخمت ولكن شاءت المصادفة أن تكون كلها من جنس واحد : ذكور أو إناث ؛ ولذلك لم تتوالد ، ولم يكتشف الصبى هذه الحقيقة . حتى كبر . . والغريب أن القط لم يفكر قط فى أن يمس الفئران البيضاء بسوء ، حتى بعد أن شب عن الطوق : وهاج هائج شبابه ، والتمس لنفسه رفيقة تكمل حياته ، فلما لم يجدها فى البيت انطلق يعوى فى الليل البهيم صارخا كأنه وحش جريح . .

ولكن حدث والصبى مريض لا يكاد يقوى على تحريك عضو من أعضاء جسمه ، وأسرته تتناول الغذاء أن سمع فى المنزل صوت ارتطام جسم ما بالأرض ، ومضت لحظة دون أن ينتبه الصبى إلى أن هذا الصوت قد يكون سببه سقوط القفص الصغير المعلق فى ردهة المنزل الذى تعيش فيه فئرانه العزيزة ، وانفجرت هذه الفكرة كأنها ضوء برق خاطف لمع فى الظلام ، ثم اختفى فجأة ، وأحس الصبى بأن حياة جديدة لا عهد له بها ، وعزماً مفاجئاً لا يدرى من أين مبعثه قد

أستوليا عليه ، ليرفعاه من سريره رفعاً ؟ وصرخ فى مكانه ، وأسرعت الأسرة إليه الأم والأب والأخوات وغيرهم ، فرأوا وجهاً مصفرا ، ويدين ترتعشان ، وشفتين تختلجان وبكاء مكتوماً لا يستطيع أن ينفجر ، وبعد لأى أدركت الأم أن الطفل المريض قد عرف بحدسه أن الصوت الذى سمع هو صوت سقوط قفص الفئران ، فأسرعوا جميعاً إلى حيث وجدوا القفص فى الأرض ، وقطًّا غازياً قد تسلل إلى الدار ، ووقف فى عصبية وخوف يدور حول القفص وهو يرى هذه الفريسة الشهية فئران بيضاء سمينة ، لا يدرى كيف يطولها ؛ فأسلاك القفص لا تسمح له بأن يدخل يده ، وهو يشعر بغريزته أنه فى موقف خطر ، وأن عليه أن ينهى مجازفته سريعاً ، فلما شعر بدنو أهل الدار جرى فى حيرة وهو يتخبط بين الجدران باحثاً عن منفذ ! وحمل القفص إلى الصبى فرأى الفئران فى حال من الاضطراب ، جعلها لا تستقر فى قفصها تروح وتغدو ويصطدم بعضها ببعض ولم يطق الصبى المريض أن يرى هذا المنظر ، فأغمض عينيه ، وهو يكاد يختنق بالخوف على أصدقائه الذين كان يحبهم حقًّا !

وفى هذا الوقت نفسه كان الصبى قد بدأ يربى « دودة القز » بنجاح ؛ فهويرى الدودة وقد تحولت إلى شرنقة ورأى الفراشة ، وهكذا دواليك وأدرك أنه يجب أن يقتل الفراشة حتى لا تقطع الخيوط الحريرية حينما يكمل ميلادها وتود أن تنطلق ، ولكن صعب عليه أن ينفذ الجزء الباقى من وضع الشرنقة فى ماء ساخن ، وأن يبدأ فى سحب الخيوط الحريرية البالغة غاية الدقة والرقة .

ومن غرائب ذكريات تلك الفترة أن الصبى بقى أعواماً يعتقد أنه كان إلى جوار بيته بيت قديم مبنى على الطراز الإسلامى الذى بنيت عليه دور أخرى فى القاهرة كدار السحيمى والسنارى وعثمان الكاشف المجاور لمدرسة السنية ، وأن هذا البيت

القديم كان مهجوراً ، وأن من بين حجراته ، حماماً مزيناً بالنوافذ الزجاجية الملونة التي فى سقفه ، والتي تسكب فيه ضوءاً جميلاً خاصًّا بهذا الطراز من الحمامات ، وما أكثر ما رأى الصبى نفسه بعين الخيال أو بعين الذكرى ! فى هذا الحمام ينظر إلى السقف ، ويسلم نفسه للإحساس الغريب الذى يغمره وهو ينظر إلى النوافذ الزجاجية ، ثم ينتقل من هذا الإحساس المريح المنعش إلى شعور من الاشمئزاز ، والانقباض ، وهو يرى الأحجار المتساقطة ، بفعل الزمن من أسقف وجدران هذه الدار القديمة ، وما اختلط بها من أقذار الناس الذين اتخذوا من هذا المبنى الأنيق الجميل مرحاضاً دون أن تأخذهم رحمة بهذا العمل الفنى الذى ، يدل على مهارة صانعه وحسن ذوقه ، ولطف إحساس صاحبه ، والترف الذى كان يعيش فيه .

ولكن أهل الصبى جميعاً لا يؤيدون أنه كانت إلى جوار المنزل الذى فى شارع الخليج ، دار بالصفة التى يرويها لهم .

أكان ذلك كله خيالاً ؟ ولكن ما سر انبعاث هذا الخيال فى رأس الصبى ؟ وما سر ملازمته للصبى أعواماً بعد أعوام ؟

إن للصبى أن يرحل عن شارع الخليج وداره فى شارع الخليج إلى شقة بعمارة لا يفصلها عن دار الخليج إلا صف من المنازل ، أزيل بعد ذلك بأعوام فأصبح الشارعان شارعاً واحداً ، وكان يمكن أن تبقى الداران ، دار الخليج ودار شارع السيدة زينب متناظرتين ، تنظر إحداهما إلى الأخرى ، وتقول لها : بفضل هذا الصبى أصبحنا متكاملتين : إحدانا تفضى إلى الأخرى لولا أن يد الدهر أبت إلا أن تزيل الدار الأولى ، وأن تعفى على آثارها . وأن تقيم مكانها داراً للسينما إحدى مفاخر العصر الحديث ، وإحدى آفاته أيضاً . ويقتضينا المنطق أن نبدأ الحديث عن دار شارع السيدة زينب ، بصاحبها زعيم الحلاقين وحلاق الزعماء

والحق أن الصبى لم يحترم أيام صباه أحد كما احترم هذا الحلاق الزعيم أو حلاق الزعيم ، أو زعيم الحلاقين .

فقد كان المنزل الذى يملكه بمقاييس تلك الأيام شيئاً ذا قيمة ، يتكون من خمسة أدوار بعشر شقق ، وكانت العمائر ذات الأدوار المتعددة والشقق الكثيرة أمراً نادراً فى تلك الأيام ، وقد بدأت تظهر العمائر فى المناطق التجارية ، ولغير أغراض السكنى ، فقد كانت هناك مثلا عمائر الخديو عباس التى أقيمت فى شارع عماد الدين ولا تزال قائمة إلى الآن . ولكن أن تكون هناك عمارة بهذا الارتفاع فى حى سكنى محض ، وفى حى محافظ كحى السيدة زينب ، وعلى مقربة من ضريح أم العواجز ، وأم هاشم ، وحفيدة الرسول – فأمر غريب غاية الغرابة .

ولكن الأمر الأكثر إثارة للدهشة ، هو الرجل الذى بنى هذه العمارة فى تلك الأيام ، فالحلاقون لم يعرف منهم آن ذاك من يستطيع أن يجمع المال الذى يعينه على أن يملك هذا المبنى الفريد ، ولكن صاحب المبنى لم يقنع بهذا التفرد بين زملائه ، بل زاد عليه أنه بعث بأولاده جميعاً إلى المدارس يتعلمون العلم ويتهيئون لأن يكونوا أطباء وقضاة ومحامين ! ثم بقى فى جعبة هذا الرجل المجدد شىء أكثر طرافة ، وأكثر استحقاقاً للاحترام : ذلك أنه بعث بابنته الوحيدة إلى مدرسة السنية فأكملت التعليم فيها ، ثم بعث بها إلى مدرسة المعلمات ، ولم يكن الآباء ينظرون إلى إرسال بناتهم لتحصيل العلم ثم تلقينه نظرة رضا واطمئنان إلا أن يكونوا على قدر من الشجاعة يخرجهم من نطاق أمثالهم وأشباههم .

ولذلك لا يزال الناس يذكرون هؤلاء الآباء الذين سبقوا جيلهم ، فعلموا بناتهم ، فخرجت منهن المدرسة والطبيبة والكاتبة ، وفى مقدمة هؤلاء بلا جدال الكاتب الشاعر القاضى حفنى بك والد المجاهدين مجد الدين وعصام الدين ناصف ،

ووالد ملك حفنى ناصف باحثة البادية ، وكوكب الطبيبة وأختها حنيفة ، ثم تبعه الأستاذ أحمد الصدر المحامى الوطنى الذى علم بناته ، فكانت منهن ودودة ودولت وكلتاهما بلغت أعلى وظائف التربية والتعليم فى مصر والخارج ، ثم الدكتور السعيد الذى كانت من بناته كَريمة وعظيمة وأمينة السعيد ، ثم والد مفيدة عبد الرحمن المحامية ، وأختها كبيرة طبيبات وزارة التربية والتعليم ، .

ولكن لا يزال الحاج طه فى ذاته شخصاً فريداً ؛ فقد كان بيته يضم عشر أسر لكل أسرة رب ، وفى كل أسرة أولاد وبنات ، ومن هنا كانت العمارة تموج بالحركة من الصباح إلى المساء ، وكان كل فرد من سكان العمارة ينادى على أحد ما فى مناسبة ما ولو مرة فى السنة ، أو يسمع له صوت أو قهقهة ، أو سعال ، وهو صاعد أو هابط . إلا شخصاً واحداً لم يره أحد عند صعوده أو عند هبوطه . وقد رآه الصبى مرة واحدة على السلم لم تعزز بأخرى ، فرآه يصعد متسللاً لا يسمع لخطاه وقع كأنه لص ينتظر اللحظة التى يستطيع معها أن يدخل إلى شقة بعينها مع قبح هذا التشبيه ، وإن كان هو أقرب الصور إلى بيان هذا الرفق البالغ ، والاحتشام المسرف من هذا الرجل الحيى .

وصعد الصبى إليه يوماً ليزوره مع والده ، وكان الصبى فى العاشرة أو الحادية عشرة من عمره ، ولكن كان عهده باللطائف المصورة ، المجلة المصورة الفريدة فى ذلك الوقت قد قدم وكانت قدرته على قراءة الكتب والصحف قد توطدت فعرف ممن عرف من ساسة أوربا الرئيس الفرنسى «كليمانصو» كبير وزرائها إبان الحرب العالمية الأولى . وكان من سماته الجسمية رأس كبير أصلع . ولما كان الحاج « طه » متمتعاً بهذه الخصائص فقد خيل إلى الصبى أنه فى حضرة «كليمنصو» .

فقد رأى رجلاً طويلاً هادئاً إلى أقصى الحد ، مؤدباً خفيض الصوت ، يتكلم

فى أناة وكأنه يفضى بتصريح خطير إلى صحفيين أذكياء ألباء يتربصون به المزالق !
والعجيب أنه تحدث عن الحرب العالمية الأولى ، وقال كلاماً عن الألمان والفرنسيين
مما أكمل الإحساس لدى الصبى بأنه كليمنصو حقاً ، ولم يفض الصبى لأبيه
بشعوره هذا ، ولكن بقى يطوى الصدر عليه ، ويذكره بين الحين والحين ، ويحمل
معه إحتراماً لهذا الرجل .

وفى ذات يوم سار الصبى فى شارع خيرت ، فرأى دكان الحاج طه ، وقد
انسدلت على بابه هذه الخيوط التى تنتظم حبات من الخرز الكبير الملون أحمر
وأخضر وأزرق وأصفر ، وهى حبال ألف الحلاقون أن يستعملوها بديلاً عن الباب
المغلق ، فتحقق الناس فى الداخل الستر ، تحول دون دخول الذباب الثقيل ،
ولا تمنع الهواء . .

رأى الحاج طه وفى يده المقص وهو يحلق شعر رأس ، فراح فى خواطر
متشابكة . أهذا الرجل الوقور المحترم الشبيه برئيس وزراء فرنسا يتواضع إلى حد
استعمال المقص والفرشاة ؛ ليزين رءوس الناس وقال لنفسه : أأستطيع أن أدخل
إلى هذا الحانوت ، وأجلس على كرسى من كراسيه ، فيكون لى شرف الحلاقة ،
على يد حلاق الزعيم الكبير؟ . ثم ماذا يفعل الزعيم حينما يخلو به حلاقه : أيطأطئ
الرأس امتثالاً لأمره ؟ وهل يدير هذا الرأس يميناً ويساراً ؟ ثم كيف لم يتزاحم الناس
على حانوت الحاج طه لتلمس رءوسهم وشعورهم الأنامل التى تلمس رأس وشعر
الرجل الذى أحبوه حتى العبادة ؟

بيت الزعيم الحلاق

تحدث الصبى الذى نروى له ، ونروى عنه ذكريات صباه فقال :

لم أكن أعرف أن لبيت الحاج طه الذى أقمنا فيه سنين دوراً كبيراً ومؤثراً فى حياتى حتى اليوم الذى جلست فيه أستعيد أيام صباى ، وانبعثت من الذاكرة شوارد الذكريات أجمع ما تناثر من فتات أحداثها . وقد تعاظمنى أن يكون لهذا البيت الذى كان يملكه حلاق الزعيم ، أو زعيم الحلاقين ، أو الحلاق الزعيم ، كل هذا الأثر الباقى ، وأنا غافل منه ، غير مدرك لمقامه ، فتبينت أن شخصية الإنسان كطيات الثوب ، يعلو بعضها بعضاً ويخفى بعضها بعضاً ، حتى كأن ما اختفى قد زال من الوجود وانعدم ، وهو فى الواقع حى يتحرك ، وينتج ، فإذا سدت فى وجهه المسالك ، واشتد ظلم الناس له ، وتجاهلهم إياه آثر أسلوب التخريب والتدمير ؛ ليعلن عن وجوده ، ولينتقم من ظالميه . ولعل هذا بعض ما قاله « فرويد » فى تبرير

ما يستتر فى خبايا العقل الإنسانى ، من ذكرياته وتجاربه المؤلمة هرباً من الضوء ، وخجلا من المواجهة أوكرها للعلانية ، فإذا طال الأمد بدأ يفعل فعل النجار ، يبحث عن نقطة ضعيفة فى قشرة الكرة الأرضية ؛ ليمزقها وينطلق منها فى صخب مدمر وضجيج مخرب !

ولكن ذكريات الصبا فى بيت الحلاق الزعيم ، ليس فيها ما يخجل ولا يحزن ، بل حتى ولا ما تضيق له النفس ؛ فإن كان قد غبن فعملا بقانون الحياة البشرية الذى يغبن بعض الفضلاء لغير علة مفهومة حتى ينصفهم الدهر ، بعد حين وهم أحياء ، أو بعد حين وهم موتى .

ويقول الصبى :

لقد جرت لى فى هذا البيت أمور غريبة إذا قيست بمقياس الصبا وما يصح أن يقع فى أيام الصبا للصبيان . وفريدة إذا قدرت الشخصيات التى تعرفت عليها خلال تلك الأيام وماكان من أمر هؤلاء فى حياته وحياة الناس بعد ذلك .

عرفت إبان إقامتى فى ذلك البيت الفريد الذى يملكه شخص فريد – « أحمد سالم » الذى كان آن ذاك تلميذاً بالمدرسة الخديوية ، أشهر مدارس مصر الثانوية وأقدمها جميعاً ، وأحمد سالم قام بدور فى الحياة العامة ، طياراً وممثلاً ، ومغامراً ، وصاحب قضايا ، ثم تعرفت بشاب كان صاحب دور غريب جدا فى الصحافة والسياسة ، لم تكتب له الشهرة التى كان يطمح لها ، ويعمل لها ، ويحلم بها . ولم يكتب له النجاح الذى كان يؤمن بأنه يستحقه ولا المركز العظيم الذى كان يقول بلسانه وبكل جارحة فيه إنه إذا لم يسع المركز إليه ، ويرجُه أن يعلو هامه ، ويرتقى سنامه – ركله بقدمه ، وأدار له ظهره . . ولم يكن هذا الشاب سوى عبد الرحمن العيسوى .

ثم عرفت الأستاذ « حافظ محمود » وكان بيته على مقربة من بيت الحلاق الزعيم أو الزعيم الحلاق لا يفصله عنه سوى بيت أو بيتين . وكان قد فرغ لتوه من تأسيس جمعية القلم ، وبدأ يلقى خطبه وأحاديثه علينا . فرأينا لوناً جديداً من الخطابة فيه من توفيق دياب أشياء ومن منصور فهمي وحافظ رمضان وسعد زغلول شيء ، والباقى كله لحافظ محمود ذاته .

وعرفت فى ذلك البيت نفسه شبانا صغاراً ، غابوا فى زحمة الحياة ، ولم يطف على سطحها منهم قليل أو كثير ، ومع ذلك بقيت وفياً لذكراهم . أستعيد ما كان منهم ، من قول وفعل ، فأضحك فى وحدتى فى أنس وراحة بال ؛ حتى تدمع عيناى ، وأذكر ما كانوا يعانونه من مشقات الحياة وشظفها ، ومن قلة وفائها وكثرة جحودها ، فأبكى لهم وأرثى لحالهم .

وكيف أنسى الأستاذ « بدر » الذى كان يجلس ومعه أنداد له فى سنه . وهم جميعاً يرتدون جلابيبهم تعلوها « جاكتات » ، ويسندون مقاعدهم إلى جدار منزل على الرصيف الذى فوقه بيتنا العتيد ، ثم يتكلمون فى السياسة والأدب والطب والتاريخ واللغة ويروون الفكاهات ، ويتندرون على المارة دون أن يجرحوا إحساساً أو يخرقوا قانوناً أو يؤذوا سمعاً !

وكان من بينهم « محسن » الضخم السمين ، الطيب الذى عاد من أوربا دون أن يحصل على شهادة مكتفياً « بآلة تصوير » كانت بمقياس أيامنا ثروة لا يستهان بها ؛ فقد كانت تصور الصور فى حجم « كابينت » وهو حجم يساوى ضعف « الكارت بوستال » ، فكان يحمض الصور ويخرجها ، وانضم إلى جمعية رحلات ضمت طالباً فى مدرسة الحقوق ، كان جديراً بأن يكون محامياً متفوقاً ؛ فقد كان جهير الصوت ، خفيف الظل حاضر البديهة ، يضع على رأسه عمامة فيتلو القرآن كقارئ

متمكن قوى الأداء ، حلو النبرات ، ثم يخلع العمامة ويتربع على كرسى ليتلو شعراً من طراز الشعر «الحلمنتيشى» الذى كان ينظمه حسين شفيق المصرى ، وبيرم التونسى مقلداً المعلقات وقصائد الكبار ! ثم يضع حول وسطه شالاً فيرقص ، ثم يختم هذا النشاط كله ، بخطبة يرتجلها ، فيأتى فيها بالقول المحكم والعبارة الرصينة وإن كانت كلها هذراً وسخرية بالناس والأشياء .

ولكن هذه المواهب كلها قبرها صاحبها فى وظيفة معاون إدارة فى الفيوم ، وقد أدهشنا أن فتاة من أصل شركسى جميلة وميسورة الحال تعيش فى حينا قبلت أن تتزوج هذا المهرج مع أن والدته كانت تسير فى الشوارع المحيطة بنا بالملاءة والشبشب ! وزادت دهشتنا أن حياتها الزوجية كانت سعيدة ؛ فإن زوجها كان معاون إدارة ناجحاً ، ينسى كل مواهبه على عتبة مكتبه الحكومى ، ويضع على وجهه نقاباً من الوقار والصرامة ، فاستطاع أن يرتقى الدرجات الحكومية واحدة فى إثر الأخرى .

ولكن لو اطلعنا على الغيب ما رأينا فى أيامنا فى ذلك شيئاً من الغرابة ، فقد أسندت الآن وزارة التربية إدارة مدارس كبيرة لها لممثلين فكاهيين فى بلادنا ، لا يعرضون نشاطهم فى الحفلات الخاصة فقط ، بل فى كل بيت عن طريق الشاشة السحرية التى اسمها «التليفزيون» باللاتينية و«المرناء» بعربية المجمع اللغوى !

على أنى لن أحدثك عن كل الشخصيات الكبيرة التى مرت فى بيت زعيم الحلاقين إلا بعد أن أحدثك عن الشخصيات الثانوية أولاً :

وأولى هذه الشخصيات بالحديث هو الأستاذ «بدر» الذى كنا نجهل نحن الصبيان وظيفته ولا المصلحة أو الوزارة التى يعمل فيها ، ولا الدرجة أو المرتبة التى وصل إليها ، وإنما كان يبدو لنا أنه مرجعنا فى شئون الثقافة والكتابة ، وكان يعاملنا

ببساطة لا يتعالى علينا ، ولا يدعنا نألفه أكثر مما يجب . لقد كان له فضل على عظيم ؛ ذلك لأننى مدين له بأول سطور تنشر لى مطبوعة وممهورة باسمى الثلاثى الذى اختفى منه الاسم الأول بعد سنوات من الصبا !

وجملة الحكاية أن مجلة ظهرت تحمل اسم « الصور المتحركة » ، وكان ظهورها آن ذاك فى حياة الصبيان أمثالى ، بل فى حياة الشبان الذين يكبروننا حدثاً يروى ويذكر ويؤرخ : ذلك أن السينما كانت لنا متعة وسحراً ، ومصدراً للإلهام ، ومدرسة نتعلم فيها فنون الشر ، وبعض أعمال الخير . فأصبحت أسماء الممثلين ولاسيما أبطال المسلسلات مثال : أيدى بولو ، ودوجلا فيرابنكس ، وآرت أكورد ، دع عنك مسلسلات القوة مثل : ماشيست البطل الهرقلى الذى يصرع الرجال ، ويخلب ألبابنا بقوة بدن رائع وجميل ومتناسق ، وطرزان الذى علمنا من التاريخ الطبيعى ، وشئون الغابة ، وصور الأدغال – ما عجز التاريخ الطبيعى ودروسه أن يلقننا إياه . فإذا أضفت إلى هذا كله حلقات المضحكين والمهرين الذين لم يسمع أبناء الجيل الجديد من أسمائهم إلا باسم (شارلى شابلن) لأنه عمر فوق ما يستطيع العاديون من الناس ، أما « زيجوتو» و« هارولد لويد » . ولا « لارى سيمون » الذين لم يأت الزمن بأشباههم ، والذى لم يلحق بغبارهم « لوريل وهاردى » وإخوان ماركس ، و « لويس دى فنيس » والمهرج البريطانى « نورمان ويزدوم » . فهؤلاء حرم أبناء هذه الأيام لذائذ وطرائف فنهم .

ومن أجل ذلك كانت مجلة « الصور المتحركة » امتداداً لحياتنا فى السينما ، فكان يسكرنا ، ويدير رءوسنا أن نجد بين أيدينا مجلة تنقل إلينا صور الممثلين وأنباءهم ، وتجعلنا على علم بزواجهم وطلاقهم ، وشرائطهم التى مثلت ورأيناها ، وشرائطهم التى مثلت ولم نرها ، لقد استطاعت هذه المجلة ، أن تفطن إلى ما لم تفطن إليه

الصحافة المصرية إلا بعد أجيال إذ فتحت صفحاتها لأقلام قرائها ، وأقامت منبراً خطيراً وحرًّا يقترحون فيه ويعترضون ، ويناقشون .

وكان من بين الموضوعات التى طرحتها مجلة الصور المتحركة هى « السينما الناطقة » وكانت هذه السينما التى تتكلم وتغنى ، وتسمعنا فرقعة البنادق ، ودوى القنابل ، وهدير المدافع ، وزئير السباع ونباح الكلاب ، ووقع القبلات ، وهمس المحبين والمحبات – كانت هذه السينما بكل سحرها الأخاذ ، وجوها الفتان – غيباً من الغيب ، ولكنا كنا نسمع أنباء إرهاصاتها ، فسألتنا مجلة الصور المتحركة : هل نحن من أنصار السينما الناطقة أو خصومها ؟ ولما كنت عاشقاً من عشاق فن « شارلى شابلن » لا أقدم عليه بطلاً من أبطال الضرب واللكم والقفز على ظهور الخيل ، وكنا قد سمعنا أن شارلى العظيم ضد السينما الناطقة ، وأنه قال : إن نطق السينما يذهب بسحر صمتها ، وإنه يحد من عالميتها ؛ إذ تخاطب السينما الصامتة الناس جميعاً باللغة الإنسانية الخالدة : الإشارة ، تصدر عن اليد ، وتصدر عن الفم – فقد اعتنقت هذا المبدأ ، وجلست أكتب سطوراً ، تعبر عن اقتناعى « لا عن قناعتى » ، وأسرعت إلى أستاذنا « بدر » ، فالتمسته فى مكانه على الرصيف ، فوجدته بجلبابه ، و« جاكتته » على كرسيه ، وعرضت عليه سطورى ، فابتسم ابتسامة الأستاذ الذى وجد أول ثمار غرسه ، ولم يكن يزعجه أن تكون هذه الثمار فجة غير ناضجة ، مرة غير حلوة ؛ فقد كان يعلم أنها البداية ، إذ اكتفى بأن أدار عينيه فيما كتبت ، وأضاف كلمة هنا ، وحذف حرفاً هناك ، ثم قدم وأخر ، وتبرع لى بجملة ضخمة لم يكن علمى باللغة قد ارتقى إليها . فضمنها هذه السطور المتواضعة ، فأصبحت مقالاً صغيراً ، ثم أرسلتها إلى المجلة بشارع محمد على ، بعمارة فى مواجهة دار الكتب فى البريد . ولم يمض أسبوع ، حتى كانت مجلة « الصور المتحركة » فى يدى وفى يد كل

صبيان الحى ، يحدقون فيها ، قبل أن يقرءوها ثم أخذوا يقرءونها . ، ثم يستعيدونها . وذهبت إلى الأستاذ « بدر » فالتمسته فى الأصيل فى مكانه على الرصيف فى جلبابه وجاكتته ، فأمسك المجلة ، وتصفح ما كتبه ، وعلى شفتيه ابتسامة رصينة تليق بأستاذ ، وهنأنى إذ كنت سعيد الحظ بنشر هذه السطور غير القليلة فى رأس الصفحة ، قبل أى كلمة أخرى مماثلة ، وسرنى أننى لم ألمح فى كلامه أثراً ولو خفيفاً من الغيرة . وكثيراً ما يغار الأستاذ من تلميذه وخصوصاً إذا عق التلميذ أستاذه صاحب الفضل عليه !

ولقد كان لهذه السطور أثران : أولهما أن مربياً فاضلاً عائداً من إنجلترا لتوه ، وقد حدثتك عنه فى موضع سابق زارنا ، فقدمت له المجلة فقرأها ، والتفت إلى وقال : أكل هذه السطور لك ؟ فأرضى هذا السؤال كبريائى « أكل هذه السطور لك ؟ » ؛ إذ معنى هذا أنها سطور كثيرة ، ولما كنت أبعد الناس عن عالم المطابع والسطور ، ومعايير الشهرة والقيمة — فقد صدقت هذا السؤال المنطوى على مديح عظيم .

أما الأثر الآخر فقد تمثل فى أن هذه السطور نقلتنى من نطاق التفكير إلى مجال الحركة ؛ فقد ذهبت وحدى دون أن يصحبنى أحد إلى مقر مجلة « الصور المتحركة » وشعرت بسعادة لا تقل عن سعادة « خروستوف كولمب » حينما وصل إلى جزر الهند الغربية التى حسبها جزر الهند الشرقية ، حينما اهتديت إلى مقر المجلة ، ولم يكسر خيالى ولم يصبنى بخيبة أمل حينما اكتشفت أن مقر المجلة كله ، تحريراً وإدارة وتصحيحاً وإخراجاً ، هو أقل من حجرة ؛ إذ لم يزد عن أن يكون « قاطوعاً » خشبيًّا ؛ به ألواح زجاجية من الزجاج « المصنفر » . وأن هذا الجانب المقتطع من الحجرة لا يضم سوى مكتب واحد ، وراءه مقعد واحد ، ويعلو المكتب أكداس من الورق !

وكدت أحرم التشرف بمقابلة صاحب المجلة العزيزة ومحررها لولا أننى استطعت أن ألحق به وهو يهم بإقفال الإدارة متأبطاً مجموعة من الصحف والمجلات . ثم استطعت أن أختلس نظرة إلى داخل المكتب وأن أرى بساطته التى أسكرتنى ، وأسعدتنى أضعاف ما أسعدنى بعد ذلك بسنين أن أجول فى المكاتب وطرقات جرائد العالم الكبرى : الديلى تلجراف ، والديلى هرالد ، والتيمس نفسها فى شارع « فليت ستريت » بلندن ، ودار وكالة الأنباء البريطانية « رويتر » التى فى عمارة بذاتها . . .

وقد بلغ من استغراق هيام الصحافة والسينما لى أن فرحتى بهذه المناسبة لم تقل ولا بمقدار خردلة حينما رأيت أن صاحب المجلة المرموقة كان يرتدى نفس الزى الذى يرتديه أستاذى « بدر » على رصيف شارع السيدة زينب : الجلباب والجاكتة .

وكان صاحب المجلة فى ذلك اليوم يعانى من عملية جراحية صغيرة فى عنقه لعلها أجريت له لفتح « خراج » ؛ فقد كانت الأربطة الطبية حول عنقه ؛ مما جعل إدارته عنقه صعبة ، فكان يحدثنى من زوايا غير مألوفة بين المتحدثين عادة ، تقليلاً لحركة العنق ، فخيل إلى أن كل هذا من مستلزمات العظمة الصحفية . فإن يكن صاحب الجريدة مصاباً بجرح ، وإن يكنْ حول الجرح أربطة طبية ، وإن يكن تحت ذراعه حمل مجلات وصحف ، وإن يكن حديثه معى مقتضباً - فهذه هى سمات العظمة وخصائصها . وقد بلغت نشوتى قمتها حينما ذكرت لأول صحفى أراه فى حياتى ، على عتبة مقر الجريدة التى سعيت إليها بنفسى ، غير معان ولا مصحوب بأحد - اسم ممثل فكاهى أمريكى هو « فاتى » . فقد بادرنى بالقول بأنه لن يكتب عنه حرفاً واحداً لأنه صدر ضده حكم من محكمة فى بلاده ، لتهربه من أداء الضرائب . ولم أفهم ساعتها أكثر من هذا الكلام ، فالضرائب لم تكن معروفة فى

بلادنا بفضل وجود الامتيازات الأجنبية التى كانت تحمى الأجانب من دفع ضرائب الدخل بأنواعها والإيراد العام ، فعوفى المصريون مساواة لهم بالأجانب ، ولكن الصحفى الأول فى حياتى قال : نحن نهتم بالأخلاق !

وإنى أدع لك أن تتصور مدى فخرى واعتزازى بصاحب المجلة التى نشرت لى أول سطور فى حياتى ؛ لأنه لا يكتب عن السينما فحسب ، بل يحرص على الأخلاق ، ولو عرفت يومها مادا يفعل الناس فى العالم كله ، ليفروا من أعباء الضرائب – لاعتبرت أستاذى الجديد قديساً لشدة حرصه على حقوق الخزانة العامة فى أمريكا لا فى مصر؟

ولكن بقيت لهذه السطور الأولى فى مجلة الصور المتحركة آثار ظهرت بعد ثلاثين عاماً من ظهورها . ذلك أننى بعد سنين طويلة أسندت إلى أمور وزارة ما ، لفترة كان فيها وزير الوزارة الأصل فى الخارج ، فلما عاد إلى بلاده ، رأيت أن نمر معاً على مكاتب الموظفين ، أنا أودِّع وهو يحيى .

وفرغنا من زيارة المكاتب الفاخرة ، مكاتب الوكلاء فمكاتب الوكلاء المساعدين فالمديرين حتى نزلنا إلى الحجرات الأرضية التى نسميها « البدرون » ، ووجدت فى ركن من اركان هذه الحجرات شخصاً ارتبك لمرآى ، ثم ابتسم ، ثم صافحنى ، وفى الحال رأيت ذكريات ثلاثين عاماً ، تتدفق على متدافعة ، متزاحمة كسيل اكتسح أمامه سدًّا . . فلم يكن أمامى سوى أستاذى « بدر » صاحب الفضل على فى أولى خطواتى فى طريق الكتابة والنشر فى الصحف والمجلات .

وأرجوك أن تعفينى من محاولة – مجرد محاولة – وصف مشاعرى فى هذه اللحظة : ولكن المرور على الموظفين كان سريعاً ، وكنت مرتبطاً بزميلى ، فخرجت من الحجرة ، وأنا أكاد أتعثر أو أنكفئ على وجهى من فرط الانفعال !

وفى اليوم التالى ذهبت إلى مكتبى الأصيل فى الوزارة ، فجاء من أخبرنى أن بالباب ساعياً يحمل إلى خطاباً من وزارة أخرى ، وأدخلت الساعى ، وأخذت الخطاب الذى كان يحمله ، والذى جاء لينقله إلى ، فماذا تظن فحوى هذا الخطاب ؟

إنه أولاً من الأستاذ بدر ، وكانت هذه وحدها كافية ؛ لتجعلنى هدفاً لانفعالات لا أقوى على احتمالها ، وكان الخطاب أخيراً يتضمن طلب قرض مبلغ عشرة جنيهات ، ومعه صك بهذا المبلغ وتعهد بسداده أقساطاً !

لست أدرى أى شيطان ألقى فى وهمى أن التعامل على هذه الصورة لا تسمح به واجبات الوظيفة ولا ظروفها ، وصرفت الساعى ، ولم أرسل المبلغ المطلوب ، ورددت بطبيعة الحال الصك ، بل رددت معه الخطاب ذاته فى ظرف جديد .

ثم جرت الأحداث بشدة غير عادية ، فنسيت تماماً هذا المطلب الإنسانى البسيط ، فلما ذكرته كانت أيام وأسابيع كثيرة قد مرت . ومرة أخرى لم أجرؤ على الاتصال بالأستاذ « بدر » والجلوس معه ؟ كما كنا نجلس على رصيف الشارع ؛ لأعتذر له ، وأستعيد ذكريات سنين سعيدة . وعشت بعد ذلك لا أذكر هذه الواقعة إلا أحس بالألم بل الخزى !

ولعل إطالتى الوقوف أمام هذه الذكرى المحزنة نوع من تعذيب النفس ، شعوراً بالإثم . على أن مجلة الصور المتحركة ، وسطورها لم تكن التجربة الصحفية الفريدة فى أيام صباى ، إبان إقامتى فى بيت « الحلاق الزعيم » ؛ فقد كنت من قراء مجلة « النديم الروائى » التى كان يصدرها أحد أفراد أسرة صروف وهم أصحاب جريدة المقطم ، وقد بدأت صلتى بها فى أثناء إقامتى فى بيت شارع الخليج الذى أسميه « بالخليج العاشق » ، وقد كانت مجلة النديم الروائى ، تنشر مسلسلة بوليسية لكاتب مصرى بقى من اسمه فى ذاكرتى لقبه « خير الله » . أما سائر القصص التى كانت تنشر

فى هذا النديم الروائى ، فكانت مترجمة ، وفى ذات أصيل قصدت إلى مقر النديم الروائى ، فى شارع متفرع من شارع محمد على ، ولعله أول شارع فرعى بعد العتبة الخضراء فى طريقنا إلى القلعة . . وقد كانت إدارة متواضعة على الرغم من انتساب صاحبها إلى أسرة أثرت ثراء فاحشاً من الصحافة والاتجار بها فى دنيا السياسة ، ولاسيما دنيا سياسة الاستعمار . فلم يزد مقر الجريدة على بيت ، فى أسفله المطابع ، وفى جانب منه سلم خشبى يؤدى إلى شرفة خشبية معلقة فوق المطابع ، يؤدى إليها هذا السلم ، وفى هذه الشرفة مكاتب التحرير ، وتهبط أصول المقالات ، وتصعد التجارب عن طريق سلة مربوطة بحبل ، يشده رئيس التحرير ومعاونوه ويرخونه ، فيتم الاتصال بين عالمى التحرير والطباعة فى يسر وسهولة . كان الكاتب « خير الله » هو المثل الذى نرجو نحن الصبيان ، قراء النديم الروائى أن نحاكيه ، ونتأسى به ، لنصل إلى مقامه الرفيع ومكانه العالى . وفى اليوم الذى زرت فيه دار النديم وقفت أتحدث مع صاحب المجلة وكاتبها الأول ، فى الشارع أمام مقرها وذكرت بالتجلة والاحترام الكاتب المصرى الذى كان يكتب سلسلة المفتش « ماكنتوش » ولم نسترسل طويلاً فى الحديث ، حتى أهل علينا شاب – يكبرنى بسنين – يرتدى جلباباً « أيضاً » وفوقه جاكتة . ولم أكن أتصور أنه صاحب هذه السلسلة العظيمة ، ولكنه اقترب منا وحيا ، فحسبته أول الأمر أحد المعجبين بالمجلة من قرائها ؛ ولذلك كانت سعادتى لا توصف حينما رأيت – بعد أن تمت عملية التعارف بين القارئ والكاتب – أنى أضع يدى فى يد كاتب مرموق ، نقرأ له الصفحات ، وننتظر العدد القادم ؛ لنتابع الأحداث المدهشة التى يرويها لنا .

وبقيت أياماً لا أخلو إلى نفسى حتى تقفز من مكان ما من خيالى صورة خير الله قادماً من بعيد ، والهواء يعبث بذيل جلبابه ، وعلى شفتيه ابتسامة الثقة بالنفس والنجاح !

ولقد كانت مجلة النديم هى أولى المجلات التى قبلت أن توجه إلى خطاباً ، فقد أرسلت إليها شيئاً ما للنشر فأرسلت إلى «كارت بوستال» كانت تعده مصلحة البريد وعليه طابع بريد يغنى عن شراء «الكارت» ، ثم شراء الطابع ، وقد تفضل المحرر بتسميتى الأديب الفاضل ، ووقع باسمه الكريم «صروف» ، ولكن أحد أهل البيت تلقى البطاقة ، فضحك ملء شدقيه وقال لى : خروف . . أرسل إليك خطاباً !

وقد كانت هذه الملابسة المؤلمة جديرة بأن تنقص كثيراً سعادتى بوصول البطاقة ، ولكن البطاقة نفسها كانت قادرة على أن تنسينى كل شىء سواها ، فقضيت وقتاً سعيداً حقًّا ، فلما نشرت لى النديم الروائى فى آخر صفحات عدد من أعدادها ، وفى ذيل هذه الصفحة خمسة عشر سطراً ، بعنوان : هل تعرف ؟ . . . وأوردت فى هذه السطور حقائق لم أكن أعرفها أنا بطبيعة الحال ؛ لأنى نقلتها من هنا وهناك ، ولكن سعادتى بنشرها لم تكن توصف .

شخصيات ونماذج

قال صاحبنا الذى نحكى قصة صباه والذى نروى عنه ما سمعه ورآه :

أرى نفسى بعد نصف قرن من الزمان بعين الذكرى على سطح المنزل الذى كنت أسكنه ، بشارع السيدة زينب غير بعيد من ميدان ضريحها وجامعها الشهير ، فأرانى واقفاً فى جلباب فى حين جلس على سور بهذا السطح صبى مثلى أكبر منى ببضع سنين ، وقد ارتسمت على شفتيه علامة اشمئزاز خفيفة ، عرفت فيما بعد أنها لازمة من لوازم أهل المال أو الشهرة أو المكانة ، تعبر عن برمهم بالناس ، وإحساسهم بالتميز الذى يجعل تحدث الناس إليهم شاقاً فعلاً أو ادعاء . وهذه الحركة شبيهة بما يرتسم على شفتى راقصات البطن فى بلادنا ، وهن يؤدين رقصهن فشفاههن تلتوى قليلاً ، بما يشبه البسمة ، لولا أنها تمتزج بالقرف ، فتدل بمعنييها المتناقضين : الابتسام والاشمئزاز بأنها ترقص لنا ، ولكنها لا تفعل ذلك إلا عن

تفضل . وبعض الناس يرى فى هذا إغراء يزيد من جمال الراقصة وفتنتها .

وفيما بعد حينما كبرت لم أكف عن ملاحظة ظاهره « القرف » التى يعانى منها المشهورون وأصحاب المكانة ، ولاسيما المحدثون منهم ؛ فإنهم ينطقون بالألفاظ وكأنهم يبصقونها ، وهم يبدءون الجملة ، ولا يتمونها ، وفى عباراتهم القصيرة ، تكثر الجمل الاعتراضية ، وأغلبها جمل تدل على الشك وعدم التيقن وعدم الاهتمام ، وكلمة « يعنى » التى كثرت وشاعت هذه الأيام واحدة من قاموس هذه الطائفة .

وقد وقفت فى ذلك اليوم فى سطح منزل الحاج طه ، أمام « أحمد سالم » الذى جلس على السور يتحدث - بأسلوبه - عن جماعة أنصار السينما التى أنشئت فى هذا التاريخ المبكر من حياة السينما فى بلادنا . وكان أحمد سالم يعد بين تلاميذ المدارس الثانوية أقرب إلى الأغنياء منه إلى الفقراء وأوساط الناس . وكان يتردد على بيتنا ليزور خالته ، وكلما جاء لإحدى زياراته سمعنا لمقدمه دوياً وضجيجاً حقا وصدقاً ؛ فقد كانت وسيلته للانتقال دراجة بخارية : وهى « موتوسيكل » أحمر فخم ضخم ، فلم يكن اقتناء السيارات قد بدأ أو عرف بين الأغنياء ، ولم يكن لأولادهم مندوحة عن شراء « الموتوسيكلات » إذا أرادوا أن يشبعوا فى أنفسهم حب الاقتناء والتميز . ولا أحسب أن السيارة الفاخرة أشبعت هذه الغرائز بالقدر الذى أشبعها به الموتوسيكل فى أيامه ؛ فالسيارة لا تصدر عنها من الأصوات ما يصدر عن الموتوسيكل ، والسيارة لا تثير الشعور بسرعتها وانطلاقها ، مثلما يثيره الموتوسيكل . وكان الموتوسيكل من ماركة « انديان » ، علامة تفوق فى مجتمع القاهرة سنة ١٩٢٠ ، وما بعدها ، لا يدانيها ، حتى التمتع بملكية سيارة من ماركة « رولزرويس » فيما بعد ، أوسيارة مارسيدس هذه الأيام .

ولذلك كان من حق أحمد سالم أن يتحدث إلى من أعلى السور بلهجة المتفضل ، وأن تزداد على شفتيه الغليظتين علامة البرم بى والضيق بوجودى ، وربما زاد شعوره بهذا أنه لم يبد علىّ أنى مقدر لمزاياه فى حين أن وصوله إلى دارنا بدراجته الغالية الجديدة اللامعة ، وهو يديرها بمهارة وسهولة وثقة نفس - كان يحمل الآنسات على أن يطللن برءوسهن الجميلة من النوافذ !

فإذا صعد درجات السلم وقفن خلف الأبواب يختلسن النظر إليه ! ولم أعبر عن إعجابى به - علم الله - لا عن رغبة فى المكايدة ، ولا عن كتمان لإحساس موجود ، ولا عن غيرة أو حسد ، ولكنى كنت صبيا قليل المعرفة بجوانب الحياة الاجتماعية التى توقفنى على مكانة مثل « أحمد سالم » فى دنيا الوجاهة والفتيات ! ولكن الذى أغراه باحتمال حديثى معه أننى كنت ندا له على صورة من الصور ؛ فقد كنت من رواد السينما النشيطين وكنت فوق ذلك من قراء مجلة الصور المتحركة ، فعرفت فيها من أسرار وأنباء عالم السينما فى عاصمتها الكبرى « لوس أنجلوس » ما لا تعرفه جماعة عشاق السينما من الصبيان أمثالى ، ولا يبعد أن تكون مجلة « بكتشر شو » الإنجليزية قد وقعت فى يدى مرة أو مرتين ، فذكرت اسمها ، فعَلا مقامى عند هذا الغنى الشاعر بمقام قوامه اللدن ، وجاذبيته المبكرة للنساء !

ولقد هون عليه الأمر اننى أخطأت خطأ أرضى كبرياءه ، وحفظ له - غير منازع ولا مدافع - تفوقه على لا بالموتوسيكل ، ولا بكونه طالباً بمدرسة الخديوية الشهيرة ، ولا بغناه ، ولكن بعلمه أيضاً أو قل بجهلى ؛ فقد اقترحت على جماعة أنصار السينما ، فى شخصه - أن تخرج مجلة لتكون لسان حال الأحرار الدستوريين وقد كانت هذه سقطة ضخمة ، وسببها أننى كنت أطالع جريدة السياسة من قبيل الاجتهاد ، وكانت تكتب تحت اسمها عبارة لسان حال الأحرار الدستوريين

فحفظت هذه العبارة ، فلما جاء ذكر مجلة أخرى لتكون لسان حال جماعة أخرى ، غلب على ما حفظته ، فرددته بلا فكر ولا وعى فضحك وقفز من السور ، كأنه يقول . إنه لم يعد هناك مبرر لإطالة صبره علىّ .

وشعرت بالإهانة وبقيت زمناً لا يقع نظرى على جريدة السياسة حتى تقفز إلى رأسى صورتى أنا وأحمد سالم ، على سطح المنزل ، كل منا فى جلباب ، مقرونة بالشعور بالخجل .

ومضت الأيام وراح نجم أحمد سالم يصعد ، فتنقل من طالب فى إنجلترا إلى رائد مغامر جسور من رواد الطيران المصرى الأوائل ، وصل فى سنة ١٩٣٠ إلى وطنه على متن طائرة يقودها بنفسه بعد الطيار محمد صدقى ، وفشل الطيار أحمد حسنين الذى أصبح أحمد حسنين باشا رئيس الديوان الملكى ، ثم احتل أحمد سالم مكانة بارزة فى المجتمع المصرى : فتى رشيقاً ، لا يمضى خطوة ، إلا تعلقت به قلوب فتيات وآنسات المجتمع ، وصاحبته أنباء المحلات التى تروى ما يدور فى دنيا الوجهاء المتأنقين والأغنياء والمشهورين . واتصلت الأسباب بين أحمد سالم وزعيم مصر الاقتصادى طلعت حرب فأصبح مدير مكتبه ، المقرب إليه ، ثم أصبح مديراً لأستوديو مصر عند إنشائه سنة ١٩٣٤ ، فكبيراً للمذيعين فى الإذاعة الرسمية عند إنشائها سنة ١٩٣٥ ، ثم اقترن اسمه بمغامرات السياسة والحب ، فأصبح زوجاً لأمينة البارودى نجمة المجتمع المتألقة ، وحفيدة البطلين محمود سامى البارودى ، وطلبه عصمت من زعماء ثورة عرابى ورفقائه فى المنفى ، واسمهان المطربة الذائعة الصيت ، ثم الراقصة تحية كريوكا ، وأطلق الرصاص فى هذه المغامرات وسقط فيها جرحى من كبار الشرطة !

وانتهت به مغامراته إلى اتهامه فى قضية عسكرية نسب إليه فيها بأنه ورد للجيش

خوذات مزيفة ، وحاكمته المحكمة العسكرية العليا برياسة المستشار سليمان حافظ وحكم عليه بالحبس سنتين ، واقتيد إلى السجن ، سجن مصر ، وكنت آن ذاك محبوساً على ذمة مقتل الدكتور أحمد ماهر باشا رئيس وزراء مصر.

وفى ذات صباح كنت أتمشى فى حوش السجن فى فترة الراحة ، فإذا بضابط شاب يعدو نحوى ويقول : أحمد سالم يود أن يرانى فهل أسمح ؟ وابتسمت قائلاً لنفسى : منذ متى ، أُستأذن فى شىء وأنا فى السجن ، وكل ما يصيبنى فيه من خير وشر لا أخطر به قبل وقوعه ، دع عنك استئذانى فيه ؟ فقلت : أهلا وسهلاً . وجاء أحمد سالم يرتدى قميصاً بأكمام قصيرة وبنطلوناً قصيراً أيضاً مما نسميه الآن « شورت » وحيانى بحماسة شديدة ، وقد ذهب عنه تحفظه ، ثم قال لى كلاماً لا أحسب أننى سمعت تحية من أحد قبل ذلك أو بعده ، أثرت فى نفسى كما أثرت تحيته تلك يوم ذاك . فقد قال لى : إننى عرفت أكثر الواقفين على مسرح الحياة العامة فى مصر من الصف الأول إلى الصف الأخير إلا أنت . ولقد بقيت زمناً مشوقاً إلى أقصى الحد لأن أراك ، وأتحدث إليك . . وأضاف كلاماً آخر موجزاً ومركزاً ، ولكنه تضمن شهادة مسرفة فى حسن الظن . وعلانى ارتباك ؛ فقد أخجلنى هذا الثناء الذى لم يكن متوقعاً فى هذا الوقت ، ولا فى هذا المكان ، ولقد عهدت فى نفسى أننى حينما أمتحن بمثل هذا الموقف ، أسيء التصرف : فإما أن أسيء إلى نفسى بكلام لا معنى له ولا مبرر ، وإما أن أسيء إلى محدثى بغير داع ولا مقتض ، ولكن الله أنقذنى فسكَت ! ثم وقفنا نتكلم بضع دقائق فقال أحمد سالم كلاماً جيداً إلى أقصى الحد عن سليمان حافظ قاضيه الذى زج به إلى السجن ، فقد قال لى :

كان يجب أن يكون سليمان حافظ أكره الناس إلى قلبى ، فقد حبسنى وقضى بإدانتى فى قضية كنت أومن ببراءتى فيها ، وكان الصحفيون الذين يشهدون جلسات

القضية يؤمنون بذلك مثلى ، بل أكثر منى ، فلما سمعت حكم الإدانة وقع منى موقع الصاعقة ؛ لذلك كان المحتم ألا أطيق سماع اسم سليمان حافظ ، وأن يكون الشيطان أحب إلى منه ، ولكنى مازلت على حبى وتقديرى له ، فقلت له : أنا سعيد أن أسمع منك هذا الكلام فهو صديقى ، فبدت عليه المفاجأة وصاح : والله . . !

فلما قلت له : إننا تعرفنا – أحمد سالم وأنا – منذ خمس وعشرين سنة حينما كنا صبيين ، فتح عينيه وحدق فىّ دقائق وهو لا يصدق أذنيه !

وجاء الضابط يطلب إلينا أن نتفرق ، فقال له أحمد سالم بثقة : ما هذه الحركات البهلوانية يا حضرة الضابط ؟ دعنا فإن الحديث لم يبدأ ، ولكن الضابط رفض ، وأبدى لذلك عذرا ، وسار أحمد سالم إلى عنبر آخر من عنابر السجن غير عنبرى ، وكان ذلك آخر لقاء بيننا لم نتم الحديث ، ولم نكمل التعارف ، ثم مات بعد ذلك ، إثر عملية عادية غير خطيرة ، ولعلها استئصال المصران الأعور ، وغاب عن مسرح الحياة العامة ، وعن مسرح الحياة المصرية بخاصة إلى الأبد . .

أما الشخصية الثانية التى عرفتها فى هذا المنزل فلم يكتب لها أن تظفر من اهتمام الرأى العام ، وببعض ما ظفر به أحمد سالم ، أو أقل القليل منه ، ولكنه شغل من حياتنا نحن الصبيان فى هذا الجانب من حى السيدة زينب مكانا غير قليل ، وترك أثراً غير ضئيل . وكان صاحب هذه الشخصية هو محى الدين الطالب بمدرسة المعلمين العليا ، استأجر من منزل الحاج طه الزعيم الحلاق الدور الأرضى ، ولكنه لم يلبث حتى فتح باب الحجرة الأولى من هذه الشقة وهو الباب المتصل بباب العمارة العام ، فأصبحت هذه الحجرة بلا إجراءات ولا دعوة ناديا نؤمه ، كلما طاب لنا ذلك . وانضممت إلى هذا النادى ، فكان أول ناد أرتاده ، وكان لطالب مدرسة المعلمين العليا زميلان : أحدهما كان طالبا فى مدرسة أعدت لتخريج مدرسى المدارس

الابتدائية سميت بالمعلمين الثانوية ، والآخر لم نعرف ماذا يعمل فى الحياة ، وبقيت أجهل صناعته حتى لقيته بعد ربع قرن من الزمان كاتبا فى وزارة الأوقاف ، يشكو إهماله ونسيانه ، ويلتمس المعونة ، ليحصل على حقه ، ومع ذلك كان يبدو لنا هذا الشاب سليل أسرة عريقة ، فقد كان أنيقا ، رقيقا مهذبا ، لا يؤذى أحدا ، أما زميله طالب المدرسة الثانوية للمعلمين ، فقد كان حريصا على وقاره عظيم الاعتداد بنفسه ، وكان مصدر هذا الاعتداد أن شقيقه كان ناظر مدرسة المعلمين الثانوية بذاتها ، هذا من جهة ومن جهة أخرى فقد بدأت فى هذه السن المبكرة فى قراءة ما كتبه محمد فريد وجدى فى دائرة معارفه « دائرة معارف القرن العشرين » عن مذهب التطور المعروف باسم العالم البريطانى « داروين » فأعددت محاضرة عن هذا المذهب لإلقائها فى هذا النادى ، فامتلأ بعدد كبير من الرجال والصبيان من الفتيات والفتيان ، ومهما أردت أن أصطنع من أسباب التواضع الصادق فإننى سأبقى بعد ذلك مندهشا ، كيف جذبنى مذهب داروين إلى دراسته وأنا بعد تلميذ فى المدرسة الابتدائية وتزداد الدهشة درجات ودرجات من جرأتى على التفكير فى إلقاء محاضرة على هذا المذهب فى نادينا ، أى فى حجرة طالب مدرسة المعلمين العليا ، ثم لا تنفع الدهشة بعد ذلك ، وتنفد كل طاقاتها ، ويبدأ مالا تفسير له ، ولا تبرير ، وأعنى به إقبال أطفال الحى وبناته وبعض رجاله على الاستماع لهذه المحاضرة ، بل على التزاحم على سماعها . وأغلب الظن أنهم سمعوا بلفظ « المحاضرة » لأول مرة فى حياتهم ، والراجح الذى يكاد يكون يقينا أنهم إذ سمعوه لم يعوا من معناه قليلا أوكثيرا . فكيف أقبلوا على المحاضرة ؟ إذا قلنا : إن الذى جذبهم هو الاجتماع فى ذاته ، والأطفال بطبعهم ، يتقاطرون على ما فيه احتشاد للناس وتزاحم وتدافع ، فما تفسير أن بعض الكبار من الرجال وشباب الحى أقبلوا وحضروا وعلقوا

على المحاضرة ، ومازلت أذكر منهم إلى اليوم المرحوم عبد الحميد قناوى المحرر آن ذاك فى جريدة المقطم ، والذى عرفته بعد ذلك فى القضايا الكبرى ، يسجل وقائعها ، وينقل إلى القراء مرافعات المحامين ، ومناقشة الشهود .

وجملة القول إن هذه المحاضرة كانت فى حياتى كلها ، لا فى فترة صباى التى أسجلها وأرويها ، ظاهرة محيرة ، فقد درجت بعد ذلك حينما شببت عن الطوق ثم حينما استقام العود ، وثبتت أقدامى على طريق الخطابة والمحاضرة شيئا ما أن أتهيب موقف المحاضرة ، وأعد له الإعداد الطويل إذا اضطررت إليه ، فأدخل إلى القاعة مضطرب الأعصاب مشتت النفس ، أكاد أتعثر ، فإذا فرغت من المحاضرة ، وسمعت أقل عبارات الثناء ولو من قبيل المجاملة و « جبر الخاطر » تنفست الصعداء ، فقلت بينى وبين نفسى : هذا آخر عهدى بمثل هذا الموقف .

وقد شهد محاضرتى عن « داروين » فيمن شهد صديقى « محى » طالب المدرسة الثانوية للمعلمين ولعله كان يتلقى فى مدرسته شيئا من علم الحياة ، فانتهز فرصة هذه المحاضرة ، فنثر علينا بعض علمه ، فذكر من بين ما ذكر من حقائق علم الحياة ، لفظى « الأميبا » و « البرتوبلازما » وأول اللفظين يطلق على الخلية الفريدة إذا لم أكن مخطئا – وفرحنا وفرح غيرنا من الصبيان بلفظ الأميبا ، فكررناها ، معجبين ، وكررناها ضاحكين ، وأصبح اسم « أمين » صديق « محى » مرادفا للفظ الأميبا ، وإن كان لم يصب مقامه بهذا الترديد بقليل من الأذى أو كثير .

ولكن مقام (أمين) ازداد رفعة بفضل اسم آخر . هو (الدكتور وارنوك) ، ولم يكن (الدكتور وارنوك) سوى المدير البريطانى لمستشفى الأمراض العقلية فى حى العباسية ، وقد درج المصريون على أن يرمزوا للمجنون أو من يتهمونه بالجنون بلفظى « العباسية » و « الخانكة » حيث كان يقوم المستشفيان الخاصان بمرضى العقول ،

وكان أولها للمرضى فى الدرجتين الأولى والثانية أما الثانى فلمرضى الدرجة الثالثة ، فكان التجديد الذى جاء به « أمين » أنه استعمل اسم مدير المستشفى بدلا من اسم المستشفى بالعباسية ، ولما كان الاسم أجنبيا فإن الناطق به يعتبر مثقفا ، وأحق بالاحترام تماما كما يتقدم فى المجتمع من يقول « مرسى » على من يقول « أشكرك » ومن يقول « بردون » على من يقول « لا مؤاخذة » !

ولكن الشخصية التى عرفتها عن طريق – « نادى محيى الدين » أى غرفته التى فتحها لنا فكانت أياديها أى أيادى الحجرة – علينا عميمة تستحق منا أن نقف أمامها طويلا ، فهى شخصية مدرس إلزامى ، بحسب ما سيكون ، إذ لم يكن عندما وفد إلى النادى أكثر من تلميذ بمدرسة عبد العزيز الأولية التى بشارع عبد العزيز الذى يصل ميدان عابدين بميدان العتبة الخضراء . وكان هذا التلميذ من أبناء دمياط أسمر اللون خشن الشعر ، ذا عينين مستديرتين ، تحدقان فى الناظر إليه ، فى دهشة ممزوجة بالتحدى ، والرغبة البادية فى الصدام والعراك . وكان عندما يزور النادى يرتدى الزى المعتاد فى تلك الأيام ، أى الجلباب فوقه « الجاكتة » مع الطربوش ، لا الجبة والقفطان ، ولم نتنبه إليه حتى وقعت الواقعة التى استرعت نظرى إليه ، والظاهر – على حسب ما استنتجته على ضوء ما عرفته فيما بعد من أخلاق هذه الشخصية أن إنسانا ما بدرت عنه عبارة أو حركة اعتبرها ، ولنسمه « عبده » مساسا بشخصه ، وكان شعوره بالإهانة ، شعورا متقدا ، فبدأ يهاجم المعتدى ، بأسلوب خطابى متدفق ، وبعبارة عربية فصيحة أدبية ، وقد اتسعت حدقتاه المتسعتان أصلا ، وزاد تحديقه الغاضب فى الجالسين ، وكأنما يود أن يقتحمهم بعيونه غيظا وغضبا ، وراعنى أن صوته أسكت الحاضرين جميعا ، وأنه لم يتلعثم ولم يتوقف ، وبقى فى ذاكرتى من معانى خطبه تهديده بأنه قادر على أن ينبذ

من يتآمرون عليه ، أو يفكرون فى المساس به بطرف إصبعه فيطيروا فى الهواء ، ثم انتفض واقفا ، وانطلق مسرعا من مكانه كالقذيفة ! .

هذا المشهد المسرحى أعجبنى ، واستأثر بمكانة خاصة به فى ذكرياتى ، فلم يمحه مر الأيام ، ولا ما شهدته بعد ذلك ، من مواقف كبار الخطباء والزعماء ، ولعل مرد تلك المكانة أنه المشهد الأول من نوعه فى حياتى ، وأنه مشهد طبيعى ، لا افتعال فيه ، ولا إعداد يسبقه ، ولست أدرى ماذا حدث بعد ذلك من « عبده » وهل عاد إلى النادى ، كما أنى لا أذكر أين لاقيته ثانية طوال السنوات التالية التى قضيت بعضها فى القاهرة فى مدرسة محمد على وبعضها تلميذا فى مدرسة أسيوط الثانوية ، ولكنى أذكر فقط أننى رأيت « عبده » فى مدينة بنى سويف ، حينما وفدت إليها ، مع أبى ، وإن كنت لا أذكر ماذا كانت الظروف التى جمعتنى به فى بنى سويف ، وكيف كان اللقاء الأول بينى وبينه فى هذه المدينة ، فما أذكره فقط أننى أصبحت أراه فيها ، وكأن العلاقة بيننا لم تنقطع طوال السنوات التى سبقت هذا اللقاء ، وكان المكان المفضل لشباب بنى سويف للقاء اليومى هو محل حلوانى يديره كالعادة يونانى ، وكان يطلق عليه اللفظ الفرنسى « باتسيرى » ، وكان رواده يشربون فيه القهوة والمياه الغازية ، ويجدون ألوانا محدودة من الفطائر ، ويلعبون « الطاولة » وربما احتسى بعضهم الزبيب « العرقى » أو الكونياك .

ثم أخذ « عبده » يزورنى فى البيت ، ولم أستطع أن أعرف بالضبط ماذا يفعل فى بنى سويف ، سوى أنه مراسل مجلة فنية مجهولة يصدرها صحفى فى مصر اسمه «كمال الحلى » . وكانت فى المجلة أبواب ، لنقد الأشخاص العاديين كالعمد والمشايخ وصغار الموظفين من رؤساء الأقلام فى ديوان المديرية أو المحافظة وأحيانا ضباط الشرطة وخصوصا من كان منهم مشغولا « بالمباحث » .

وكانت المجلة تكسب من وراء ما تنشره من الملاحظات اللاذعة لهؤلاء فإما أن يدفعوا قيمة الاشتراك ولم تكن تزيد على ٢٥ قرشا فى السنة أو يعاونوا على تحصيل اشتراكات من غيرهم ، أو أن يمنحوا المراسل مكافآت عينية أو نقدية من مالهم الخاص أو المال العام .

وقد عرفت من « عبده » أن هذه المجلة – على ضآلة شأنها – استطاعت أن تجعله قريبا إلى ذوى السلطة من ضباط المدينة وبعض الموظفين ، ولما قدم عهده ببنى سويف أصبحت علاقاته بكبار أعيانها ، والعمد والمشايخ واسعة النطاق . . وأنه بفضل هذه العلاقات أصبح قريبا من مدير المديرية نفسها . هل كان يروى الحق ، أو أنه كان يروى تمنياته وأحلامه التى لم تفارقه حتى آخر أيامه حينما اشتد به المرض ، ووافته نهاية الأجل ، وانتهت كل الأحلام العظيمة والعريضة ! .

ومن الأيام الأولى لاحظت أنه يزيل الكلفة بينه فى حديثه معى وبين هؤلاء الضباط والأعيان والعمد ، بل المدير نفسه ؛ فهو يشير إليهم بأسمائهم المجردة : فعبد السلام ، هو عبد السلام الشاذلى مدير المديرية ، وسعيد أباظة رئيس مباحث المدينة ، وهو يصر على أن يروى أنه يناديهم هكذا ، فيهرعون إليه ، ويترضونه إذا غضب ، ويتملقونه إذا عاد من القاهرة بعد زيارة منه « لمحمد » أو « لمحمود » أو « لداود » ومحمد هو محمد محمود باشا رئيس الوزارة ومحمود هو محمود فهمى القيسى باشا وكيل الداخلية ، أما « داود » فهو داود بركات بك رئيس تحرير الأهرام !

ولست أدرى هل صدقت هذه الحكايات أو كذبتها ، ولكن الذى أعرفه على سبيل الجزم والقطع أنها لم تكن تثير اهتمامى ، ولا تزيد من احترامى له ، أو إعجابى به ، ولو انقطع عنها ، ما استزدته منها ، أو سألته عن شىء فيها ، بل كان ينفرنى منه إذا سرت فى الطريق معه أن يحيى عمدة ، أو يمازح عينا من أعيان مركز من مراكز

المحافظة « المديرية سابقا »- . ولكنى بقيت أجهل أن « لعبده » وظيفة أخرى ، وأنها وظيفة متواضعة غاية فى التواضع ، وأنه نجح نجاحا باهرا إذ اتخذ من صلته بهذه المجلة الصغيرة المجهولة ، سبيلا إلى التحليق فى عالم ملؤه السلطة والجاه ، وأطايب الحياة تعويضا له عن صغر مقامه ، وقلة ماله ، وحرمانه من الجاه والنفوذ !

وفى ذات يوم أفضى لى عبده أنه مجرد مدرس إلزامى فى قرية « منقريش » من قرى محافظة بنى سويف ، وأنه فى أشد الضيق من هذا العمل الحقير ، ومن ضآلة مرتبه ، وأن السلطة ، أى المحافظة ، لا يكفيها أن يقبل رجل فى مثل علمه وقوة شخصيته ، وصلاته بالحكام وأهل الرأى ، أن يسرف فى التواضع فيقبل هذه المهانة على نفسه ، ويرتضى هذا العمل الدنىء ، فتكيد له ، وتنغص عليه حياته النكدة أصلا بأوامر وسخافات لا غرض منها إلا إحراجه . ورثيت لهذا البائس وكاد قلبى يتفطر حزنا عليه ، فقد تصورت كم يعانى شخص فى مثل إيمانه بعظمته ، وغرامه بالرياسة والجاه ، فى الوظيفة الحقيرة التى وضعه القدر فيها ، وقد تجلد وصبر ، لأنه لم يكن يدرى ماذا يفعل ، لو ترك هذا العمل على تفاهة شأنه ، وقلة جدواه !

ولكن جاء أخيرا القرار المحتوم ، واستقال « عبده » وأسرع إلى العاصمة ، وطاف على دواوين الحكم ، ودور الصحافة ، ومقار الأحزاب ، والله وحده يعلم كم احتمل شعوره المرهف بالإهانة ، وهو يلقى – بطبيعة الحال – الصدود والعزوف عنه . ثم حصلت أنا على إجازة الثانوية العامة ودخلت الجامعة ، واتخذت مع صديقى «كمال » بيتا على شاطئ النيل ، غير بعيد من كوبرى الجيزة . ولقد شاءت المصادفة العجيبة أن يكون هذا البيت بذاته هو بيت أبى منذ خمس عشرة سنة خلت . فكان « عبده » واحدا من الشبان الكثيرين الذين كانوا يترددون على بيتنا الصغير ، وقد

أتيح لكثيرين منهم بعد ذلك أن يظفر بالمكانة والنجاح فى الحياة العامة : السياسية أو العلمية . وتأكدت ملامح شخصية « عبده » فلم يعدل قط عن ثقته التى لا حد لها بنفسه وبمواهبه ، وبخوف الناس منه ، وحبهم له ، كما لم يكف عن رواية وقائعه مع العظماء والوزراء والزعماء ، واختلاطه بهم ، ووقوفه على أسرارهم ، واعتمادهم عليه ، وثقتهم به ، وهو فى كل هذا لا يذكر إلا أسماءهم الأولى بدون ألقاب . وإن كان فى أحيان قليلة لا يرى حرجا فى أن يقترض منك عشرة قروش أو أن يعترف لك بأنه جائع منذ الصباح ، ولكن دون أن تحس فى اعترافه أو طلبه ، برنة الضعف أو التسليم بفشله أو بسوء حالته .

ولما طال إلفه إيانا لم يخجل من أن يقول إنه يكتب تقارير سياسية لبعض رجال الأمن ، بل إنه كان يخلو بنفسه بعض الوقت فى بيتنا ويسود سطورا فى ورقة ، ويضعها أمامنا فى جيبه ، وهو يعلن أن فى هذه الورقة من الأسرار الخطيرة ما لا يعرفه سواه ، ومن هنا أصبح من حقنا أن نعابثه ، وأن نداعب أحلام عظمته ، فيقبل منا هذه المعابثة وتلك المداعبة ، باعتبار أن الصداقة وحدها هى التى تمنحنا هذه الميزة التى لا يتمتع بها كبار رجال الدولة ولا أهل الحل والعقد فيها . بل لا يحلمون بها .

ولقد كان « عبده » بالنسبة لى لغزا لا يحل ، فقد كان يتمتع بأسلوب عربى جيد ، ومحصول لفظى غير قليل ، وعبارة أدبية حسنة الديباجة ، وكان يتكلم أو قل يخطب ، كما لا يستطيع الكثيرون من مرتزقة السياسة ، وكان على سبيل التأكيد على صلة ببعض رجال السياسة والحكم ، أيا كانت طبيعة هذه الصلة ، ثم إنه ألف كتابا فى الإسلام ، جيد الموضوع والعبارة معا . فما الذى قعد « بعبده » هذا عن أن يتقدم فى عالم السياسة أو الصحافة أو يزيد دخله وقد ازدحم ميدانها فى أيامه

بالألوف ممن يبزونه فى نواحى ضعفه ، ولا يتحلون بشىء من مواهبه ومزاياه .

وتراخت الصلة بيننا حتى لم نعد نتصل بعضنا وبعض إلا لماما . ولكنه لا يرانى مصادفة أوعن موعد ، إلا فاضت عواطفه ، وتحدث عن أيامه فى بنى سويف بلهجة صادقة حقاً ، ثم غاب عنى طويلا ، وفى ذات يوم كنت فى سرادق انتخابى أقمته لأعرض نفسى على الناخبين فى مصر الجديدة ، فرأيت من يشق صفوف الواقفين والجالسين ، ليصعد على المنبر ، ثم ينطلق يسبغ على ويضفى على شخصى من الصفات والنعوت ، ما كنت أعرف أن باعثه عليه هو عاطفة الخطيب الصادقة الذى لم يكن سوى « عبده » بعينه ودارت الأيام وأسندت إلى إحدى الوزارات ، وجاء الموظفون يحيون ، ورأيت شبحا يتمايل من فرط المرض ، فإذا بى أمام « عبده » بذاته وهو لا يكاد ينطق ، من شدة نوبة الربو الذى كان يعانى منه واستبقيته ، وتحدثت إليه طويلا ، كما يتحدث الأخوان ، وحاولت أن أخفف عنه ، ولكن عهده بدنيانا بعد ذلك لم يطل . . فقد تركها دون أن يحقق من آماله العريضة ، وأوهامه الكثيرة أملا واحدا .

قلت إننى عرفت فى أثناء وجودى فى منزل الحاج طه بشارع السيدة زينب « حافظ محمود » الكاتب الخطيب ، ونقيب الصحفيين الأسبق ، ولست أدرى إلى اليوم ، ما الذى قادنى الى بيته المجاور لبيتى ، وما الذى عقد الصلة بيننا ؟ بل لست أذكر اليوم الأول الذى رأيته فيه ، وما الذى دعانى ودعا معى رفيق الصبا والشباب « أحمد » إلى الانضمام إلى الجمعية التى أسسها حافظ ، واختار لها « القلم » اسما ، وهو اختيار فى رأيى غاية فى التوفيق ؟ ولو أن جمعية « القلم » التى أسسها ورأسها حافظ كانت فى الواقع جمعية « اللسان » فقد كان نشاطها كله خطابيا ، وكان أكثر هذا النشاط الخطابة جهد حافظ وحده ، إذ كان دور بقية الأعضاء الاستماع إلى

خطبه ، والإعجاب بها ، فلم يكن فى الأعضاء من هياته مواهبه ليكون من فرسان دنيا البيان المنطوق أو المكتوب ، فهم بين مقاول مبان أو موظف حسابى ، وكنت وصديقى أحمد لا نزال طالبين فى المدرسة الثانوية نحاول أن نكتب ونخطب ، ويحاول أحمد فوق ذلك أن يمثل .

ولقد كان حافظ فريدا فى الشارع الذى يحيا فيه ؛ فقد كانت عادة الشبان والصبيان فى القاهرة كلها أن يتخذوا من رصيف شارعهم . محلا مختارا ، يباشرون فيه نشاطهم من حديث أو شجار ، أما حافظ فلم يقف على رصيف منزله يوما ، ولم أشاهده قط فى جلباب أو جلباب وجاكتة ، وهما الزى الذى لا زى غيره إلا فى المناسبات الكبرى من زفاف أو مأتم أو حفلة مسرح ، حتى السينما كان أولاد المدارس يترددون عليها بجلابيبهم وعليها «الجاكته» أو بغيرها . كانت البذلة والكرافتة أو «البابيون» والطربوش هو الزى الذى يطالع به حافظ الناس محافظاً على أناقته ، مثابرا على الحرص على مظهره وجده وبعده عن الناس .

وكان حافظ منذ البداية مشغولا بالكتابة والخطابة وبالحديث عن أساتذته فى الجامعة منصور فهمى وطه حسين ، فلم يلعب كرة القدم التى كانت هواية كل صبى وكل شاب ، ولم يعد فى طريق ، ولم يشتبك فى مشاجرة بالأيدى ، ولا مشادة باللسان ، ولم يلعب الورق أو الطاولة على قارعة شارع أو رصيف .

وربما لا يعرف أحد أنه صاحب صوت جميل ، وأنه طالما أسمعنا من أغانى عبد الوهاب القديمة بداية قصائد متفرقة لشوقى ؛ ولكنه لم يكن يتم قصيدة واحدة منها ، ولو أحب الغناء ، لبلغ فيه درجة يحسده عليها المطربون الذين انقطعوا للغناء ، وقد ألف بعض الأغانى ، ليلحنها بنفسه ، وليغنيها لأصدقائه ، مازلت أذكر منها :

البنت البيضا الفلاحة واقفة ع النيل مرتاحة
واقفة والبدر قصادها طالع على وشه جمالها
والهـــــوى بيجرى على خدها الخمرى

ولقد كان يواجه منزل حافظ ، منزل الشاب « حسين الداغستانى » ، وهو من أصل داغستانى حقا ، إنه جدير بأن يشار إليه هنا ، فقد كان أول طالب يحصل على دكتوراه من كلية من كليات الجامعة المصرية الحديثة ، وقد كانت رسالته عن « السكك الحديدية فى مصر » قدمها إلى كلية الحقوق ، وقد حضرنا مناقشتها ، ومازلت أذكر كيف ألهبنا أكفنا بالتصفيق حينما أعلنت لجنة الامتحان أنها منحته « درجة الدكتوراه » ، فقد كان هذا الحدث فى نظرنا يوما مشهودا فى تاريخنا العلمى والثقافى ؛ فقد أثبتت الجامعة فى هذا اليوم أنها إستقامت واستقرت ، لا تعلمنا فقط ، ولكن تمنح علماءنا أكبر الشهادات وتجعل منهم أساتذة ودكاترة .

كتب ومدارس

قال الصبي الذى نروى ذكرياته :

طالت قاماتنا ، وغلظت نوعا ما أصواتنا ، وبدا تحت أنوفنا ظل خفيف يبشر بأن شوارينا ستنبت بعد قليل ، وأن نسائم ربيع الحياة ستهل علينا ، ولكنا كنا فى الحقيقة صبيانا أقرب أن نكون أطفالا نلعب ونلهو وإن قرأنا الكتب ، وطالعنا الصحف ، واقتنينا المجلات ، ولكن أكثر مانحب ونهوى كان مما يشغل الصبيان ، كرة قدم ، أوملاكمة فى الطريق ، أومصارعة فى المنزل ، أوصياح بلا مقتضٍ أشبه شىء بالصراخ من ألم الفراغ الذى لايطيقه الإنسان بعامة ، والصبى الملىء بالحيوية بخاصة .

ولست أريد أن أنساق مع الرغبة الصادقة فى التواضع ، فأغمط نفسى حقها فى أن تتحدث عن المجلد محمود حنفى ، الذى كان حانوته أودكانه ، على مرمى حجر من

دار الكتب . إن فى مكتبتى إلى اليوم كتبا جلدها هذا الصانع الماهر رحمه الله . ولاتزال إلى الآن آية من آيات فن التجليد بعد أن انقضى عليها نصف قرن أويزيد ، فقد عرفت طريقى إليه وأنا دون العاشرة ، وتعاملنا كما يتعامل صاحب العمل ، والعميل ندا لند ورأسا برأس . ولم أجلد قصصاً فقط ، بل جلدت كتب تاريخ وعلم ، جلدت ترجمة حياة أوتاريخ مصطفى كامل الذى وضعه شقيقه المغبون على فهمى كامل وجلدت كتاب : رسائل فرنسية مصرية الذى يضم بين دفتيه الرسائل المتبادلة بين مصطفى كامل وأمه الروحية مدام جوليت آدم ، هذه الرسائل التى تعتبر من عيون أدب الوجدان لفرط ما اشتملت عليه من آيات البلاغة التلقائية التى يجريها الله سبحانه وتعالى على لسان وأقلام عباده الذين يصطفيهم ويختارهم ، لما يراه من جلائل الرسالات البشرية . .

وإلى جانب هذه الكتب الجادة جلدت قصص مسامرات الشعب ، وهى أم السلاسل التى عرفناها فيما بعد ، وقد كان يسكرنى وأنا دون العاشرة أن أسمع على أفاريز محطات السكك الحديدية ، ولاسيما محطة القاهرة نداء باعة الصحف ، على حلقات سلسلة مسامرات الشعب المنغمة « مسامرات الشعب ، المسامرات ، المسامرات . . الشعب . . الشعب » فإذا رأيت إنسانا ينادى على البائع ، ورأيت البائع يمد ذراعه إلى المنادى ، بنسخة من المسامرات ثم يدفع له الثمن ، ثم يقلب النسخة بين يديه ، ثم يأخذ مكانه فى عربة القطار ، ويروح يطالع القصة — تمنيت أن يكون فى مقدورى أن أفعل فعله ، وأن أشترى قصة من مسامرات الشعب ، وأن أضع بين يدى الكتاب وهو بعد جديد ، فلما شببت عن الطوق وأصبحت قادرا على أن أعبث فى مكتبة والدى ، وأن أكتشف فيها عددا من مسلسلات مسامرات الشعب — كان بودى أن أقبل هذه القصص ، من فرط حبى للكتاب ، وفرحى باقتنائه ، وتجليده وجمعه .

ثم جاء الوقت الذى أستطيع أن أقرأ فيه هذه القصص ، وأن أشتريها من أرصفة المحطات ، ومن مكتبات شارع عبد العزيز ، فقرأت قصة منها ثم شغلت بهذه القصة وبروايات المنفلوطى ومجلات أخرى فى مقدمتها « المحاسن المصورة » التى سبقت السياسة الأسبوعية والبلاغ الأسبوعى : رصانة فى الأسلوب ، وتجديدا فى الموضوعات وجدية فى البحوث ، وأناقة فى الإخراج ، ثم مجلة « المضمار » أولى المجلات الرياضية فى مصر ولعلها آخرها . وقد أخرجها « خليل داغر » ليحدثنا عن أبطال المصارعة والملاكمة وكرة القدم والتنس فى بلادنا وفى الخارج . ويضيف إلى أحاديث الرياضة قصة مسلسلة ، مازلت أذكر أن إحداها كانت بعنوان « الانتقام العذب » ، ومجلد المضمار الموجود فى أرفف مكتبتى المتواضعة لا يزال شاهدا على ريادة هذه المجلة الفريدة فى دنيا الرياضة ، ثم جاءت مجلة اللطائف المصورة . لتكون نديم الصبيان والشبان والرجال فى ذلك العهد المبكر . من حياة الصحافة الأسبوعية فى مصر .

ولكن بقيت مسامرات الشعب فى مكان فريد خاص بها ، لاينافسها فيه صحيفة ولامجلة ، لأنها كانت تصل القراء فى مصر بأدب القصة فى الغرب ، ولم تكن الصلة به قد توطدت بعد ، ولم تكن الأفلام التى تترجم هذه القصص ، من المتطفلين على مائدة الأدب فى مصر ، كما أصبحت الحال ، حينما كثرت وتعددت المسلسلات القصصية فى بلادنا ، بل الذى عرفته أن عددا من كبار أدبائنا ومترجمينا أسهموا فى ترجمة حلقات هذه السلسلة المبكرة ، ولعل منهم « سلامة موسى ، ولطفى جمعة ، وراشد رستم وصادق راشد وطاهر حقى » . . وأنا أورد هذه الأسماء على سبيل التخمين ، وإن كنت قد قرأت فى موضع ما فى شىء كتبه سلامة موسى أنه أسهم فى ترجمة هذه القصص .

ولقد مضى صاحب هذه السلسلة الرائدة ، وهو المرحوم خليل صادق منسيا من مؤرخي الأدب مغمورا كأنه أساء إلى بلده فى حين أن إخراج سلسلة بهذه الضخامة ، وبما تمتعت به من انتظام ومثابرة –كان يقتضى القائم عليها إنفاقا وجهدا وعناية ، وقد مهد الطريق بحق للسلاسل الشهرية التى فى مقدمتها سلسلة «كتاب الشهر» التى تعد مفخرة من مفاخر مصر الفتاة الثقافية والتى أتبعتها بعد ذلك سلسلة « اقرأ » لدار المعارف التى كانت ولاتزال درة من درر الثقافة العربية المعاصرة . ثم سلسلة «كتابك » التى هى جديرة بالإعجاب حقاً .

وإذا كان « خليل صادق » الذى لاأعرف عنه ، ولاعن ثقافته ، ولاعن بيئته أقل القليل – قد غبن ونسى فضله – فلعله يجد العزاء فى الدار الأخرى فى أنه لم يتفرد بهذا النصيب ، فقد شاركه فيه كثيرون منهم اثنان لاأنساهما أبدا : عبد الرازق عنايت الذى بذل فى سبيل المسرح المصرى مالم يبذله أحد من مواطنيه ، إذ حسْبه أنه أقام مسرحا من حر ماله ، فاحترق ، فأقام مسرحا جديدا دون أن تثنى الخسارة الفادحة عزمه ، أوتفل فى إرادته . أما الآخر فهو محمود مراد ، رائد الثقافة المسرحية المدرسية ، ومؤلف « مجد رمسيس » المسرحية الموسيقية ، ورئيس الجمعية المسرحية فى المدرسة الخديوية الثانوية ، وقد حاولت أن أرد له بعض جميله ، والتمست المعونة فى ذلك من ذوى قرباه المصور السينمائى المرحوم حسن مراد ، ونجله الذى علمت أنه يعمل فى إدارة التمثيل التجارى بوزارة الاقتصاد ، ولكن لم أوفق إلى شيء ذى قيمة ، وقد رجوت بعض دور النشر أن تعيد نشر كتاب ترجمه عن الإنجليزية المرحوم محمود مراد ، وكان عنوانه « اعترافات آكل أفيون » فلم يكن حظى فى هذا المسعى أسعد منه فى المسعى الأول وهو كتاب فريد فى نوعه ، ولايزال جديرا بالقراءة وبالنشر ، ولو على سبيل إحياء التراث المصرى الحديث .

وقد جرنا إلى هذا الاستطراد الطويل محل محمود حنى للتجليد الذى إلى جوار دار الكتب فى شارع محمد على ، ولايزال قائما فى مكانه إلى الآن ، وقد قام أولاده عليه بعد وفاة أبيهم رحمه الله .

ولقد نفعنى التردد على هذا المصنع الصغير ، كثيرا ، فقد كنت أرى عددا من صغار وكبار الأدباء والخطباء والساسة ، وكنت أبادلهم الحديث وأستمع إليهم وأفرح بالاقتراب منهم ، وملاحظة مايقولون ومايفعلون . وكان من المترددين على هذا المصنع – مصنع التجليد – محمد شكرى كيرشاه ، الذى كان خطيب ثورة سنة ١٩١٩ ، لم يدع منبرها فى الجامع الأزهر يوما قط ، وكان ينطلق فى خطبه كأنه القذيفة ، تتتابع وتتوالى على لسانه التشبيهات الرائعة ، والألفاظ الغريبة والنادرة ، ويهز مشاعر المصلين فى الجامع العتيق ويثيرهم على الإنجليز ، ويحرضهم على الجهاد . وكان فوق قدرته الخطابية الفائقة من أكثر الناس نهما فى القراءة ، وكان يقرأ فى الإنجليزية كما يقرأ فى الأدب العربى القديم شعره ونثره .

ومن غرائب الأمور أن يكون هذا الكاتب المثقف المستنير الواسع الاطلاع – قليل الحظ من النجاح فى المحاماة . مع أن الخطابة ، والقدرة البيانية ، وكثرة الاطلاع من أدواتها ، ثم لم ينجح كذلك فى القضاء حينما عين قاضيا ، فقد عجز المنصب الحكومى ومقتضيات وقار القضاء عن أن ترده عن صراحته ، وأسلوبه الثورى ، إلى حد أنه أثر عنه أنه حينما كان يفتح جلسة المحكمة قوله : فتحت صالة بديعة . . !

وقد كان أشبه الناس به ثورة على المجتمع ، وهزءا بالتقاليد ، وفشلا فى الحياة العملية الأستاذ أحمد وفيق المحامى ، والكاتب الوطنى ، ومؤلف الكتب الدستورية ، والقانونية . وقد اشتغل من مطلع شبابه بالسياسة كاتبا ومحررا فى جرائد

الحزب الوطنى ، بزعامة مصطفى كامل ومحمد فريد ، وبعدهما ، ولقى من شظف العيش ، والحرمان فى مصر وخارجها مايهد عزائم الرجال ، فقد تشرد فى أوروبا وجاع ، ودخل السجن فى مصر ، مرارا ، فلما سادت روح المساومة مع الإنجليز ، وتفرق زعماء الحزب الوطنى انصرف إلى التأليف ، فوضع مايشبه الموسوعة فى القانون الدولى ، بعنوان « علم الدولة » — بكسر العين . وكان يهدى إلى كل مايصدر من هذه الموسوعة جزءا بجزء ، وقد تورطت معه فى كذبه ، لاأدرى إذا كانت ممايسمى بالكذب الأبيض أم كانت كذبا صراحا يحاسب عليه الإنسان ، ولابد له من استغفار وتوبة . وكفارة ولو لم تقترن بقسم ، فقد لقينى الأستاذ وفيق يوما ، فسألنى هل قرأت الجزء الثانى من كتابه ، وقد قام فى وهمى أنه أهدى إلى الجزء الثالث أيضاً ، وكان هذا الجزء فى المطبعة ، تحت التغليف ، فقلت من باب المجاملة : لقد قرأت الجزء الثانى والثالث أيضاً « وماكاد الأستاذ وفيق يسمع لفظ « الثالث » حتى صرخ وكأنه لدغ ، ولم أفهم لأول وهلة ، سر هذه الصرخة المدوية ، ثم فهمت بعد ذلك أنه كان كثير التشكك فى أمانة الناشر والطابع ، كأنه يتهمه بأنه يسرب إلى السوق نسخاً من خلف ظهره ليستأثر بربحها دونه ، واعتبر وصول نسخة من الجزء الثالث لا يزال يعد للتوزيع فى المطبعة دليلاً على لصوصية هـذا الطابع الناشر ورجانى فى إلحاف شديد وبعصبية بادية أن أطلعه على النسخة التى اشتريتها من الجزء الثالث ، وأن أدله على المكتبة التى حصلت منها على هذه النسخة . ووقعت فى شر كذبى فقد وعدته بذلك بدعوى أننى لم أشترها بنفسى ، وإنما اشتراها زميل أو صديق ، يعرف حرصى على اقتنائى لهذه المجموعة .

ولم أكد أصل إلى مكتبى حتى سمعت جرس التليفون يدق وبسذاجة رددت فإذا المتكلم هو أحمد وفيق ، وإذا هو يريد أن يعرف الجواب على سؤاليه ، واضطررت

إلى كذبة ثانية لمعالجة الكذبة الأولى ، فزعمت أنه اتضح لى أننى أخذت الكتاب معى إلى البيت ، ولم أكد أصل إلى البيت ، حتى لاحقنى تليفون من الأستاذ وفيق ، فاضطررت إلى كذبة ثالثة ، وبقيت أضيف كذبة إلى كذبة ، حتى اضطررت آخر الأمر ، أن أطلعه على الحقيقة ، أوبعض الحقيقة ، فكف عن مطاردتى ، وفى نفسه ، شك منى ؛ إذ ظن أننى لم أرد أن أعطيه الجزء الثالث ، ولا أن أدله على المكتبة التى اشتريته منها إشفاقا على الناشر الذى سرقه !

وكان من رواد مصنع تجليد شارع محمد على ، محام ثالث ، هو الأستاذ أحمد قراعة ، وقد كان محاميا لايشبهه كثيرون من المحامين ، فقد كان من هواة التمثيل والنقد الفنى ، ومن المترددين على دور الصحف الفنية ، والمسارح ، وعلى صلة بنقاد الأعمال المسرحية أمثال عبدالمجيد حلمى صاحب مجلة « المسرح » ورائد النقد التمثيلى فى مصر ، ثم « الأحنف » وهو حنفى مرسى ، وهو طالب حقوق وكان يوقع بهذا الاسم المستعار ، و « أحمد حسن » الذى كان طالبا بمدرسة المعلمين العليا ، ولم يتم تعليمه بها واشتغل بالمسرح هاويا ثم انقطع للصحافة وعمل فى مجلة روز اليوسف حتى توفاه الله ، وربما محمد التابعى ، منشئ روز اليوسف وآخر ساعة ، الذى هجر النقد المسرحى بعد أن بدأ عمله فى الصحافة ، فى مقالات يوقعها بإمضاء « حندس » .

ولم ألق عند الأسطى محمود حنفى - الوطنى الكبير والمؤرخ العظيم عبد الرحمن الرافعى ، وإن رأيت كتبه هناك قبل تجليدها ، وبعد تجليدها .

قلت إن نسائم الربيع ، بدأت تهب علينا ، خفيفة ضعيفة ، لم تغير كثيرا منا ، ولامن حياتنا فنحن صبيان أبرياء ، لايشغل بالنا ، إلا كل ماهو برىء ونظيف . . نلهو كما قلت لهوا يجهد أجسامنا ، حتى إذا جاء المساء نمنا ملء الجفون أو لهوا يتخذ

صورة عقلية أوفكرية . . فنقرأ القصص ، ونطالع المجلات ، ونحاكى الكبار ، فننشئ مدارس ، يكون بعضنا فيها مدرسا ، ويكون بعض آخر فيها تلميذا ، بل إن خيالنا امتد ، فجعلنا من أنفسنا « برلمانا » وكانت الانتخابات السابقة ، على قيام أول برلمان مصرى فى مارس سنة ١٩٢٤ ، قد شغلت الصغير والكبير ، فأغرتنا أن نقتبس منها مايرضى خيالنا .

وقد كانت أول مدرسة أشارك فى تأسيسها وأنا صبى المدرسة التى لعبت فيها أختى التى تكبرنى ، والتى زاملتنى طوال حياة طفولتى وصباى ، مزاملة ملأت على أيامى سرورا ومتعة . وكانت أختى حادة الطبع فى صباها ، وفى كهولتها ، فنالنى من حدة طبعها وأنا تلميذ فى مدرستها الكثير ، ولكنى أفدت من هذه المدرسة ، وإن كانت لعبا ولهوا الكثير ، كذلك تعلمت أول ماتعلمت فيها فن « القص » ، ورواية الوقائع ، الخيالى منها والحقيقى ، فقد كانت أختى قادرة على سرد الحكايات بأسلوب ممتع مملوء بالصور المصنوعة من الألفاظ المعبرة والمؤثرة .

قصت على قصة ماجدولين التى وضعها الكاتب الفرنسى « ألفونس كار » والتى ترجمها إلى العربية الكاتب العظيم مصطفى لطفى المنفلوطى ، فأثرت على خاتمة « ماجدولين » التعسة ، فبكيت وعلا صوت نحيبى ، فأسرع أهل البيت على هذا الصوت ، مشفقين أن يكون قد أصابنى سوء فلما دخلوا علينا الشرفة التى اتخذناها مقرا للمدرسة رأونى دامع العينين ، وسمعونى أصيح : ماجدولين ماتت ! وبعض من خفوا لنجدتى ، كانوا لايعرفون من تكون ماجدولين ، فانتابهم فزع شديد ، فصاحوا من الذى مات ، كفانا الله السوء ؟

وفى يوم آخر كان الدرس تلخيصا لرواية « غادة كربلاء » التى وضعها « جورجى زيدان » مؤسس مجلة الهلال ، كانت أختى قد سمعتها ملخصة من شقيقتها التى

تكبرها ، فروتها لى فبكيت لمقتل الحسين رضى الله عنه واستشهاده ، ولكن فى صوت مكتوم وذهبت إلى النوم محزون القلب . وكانت المدرسة تشغلنا ، فلايسمع لنا صوت . فيخيل إلى أهل البيت أننا تسللنا منه فيبحثون عنا هنا وهناك ، وهم لايصدقون أن نكون فى البيت ، وألايسمع لنا ضجيج لايطاق ، لايهدأ إلابالتأديب المباشر ، أو بالتهديد به ، فإذا اكتشفوا أننا فى الشرفة ، نقوم بطقوس المدرسة ، ونحترم تقاليدها ، كما لم تحترم هذه الطقوس وتلك التقاليد فى مدرسة حقيقية من قبل أخذ منهم العجب كل مأخذ .

غير أن هذه المدرسة كانت تستحيل أحيانا عذابا مريرا لى ، وذلك عندما يسوء مزاج أختى ، وترانى جديرا بالعقاب ، فتنهال على ضربا « بمسطرة » أعدت لهذا الغرض ، ولم تستعمل قط فى تلقينى علما ، وقد يقول قائل ، وما الذى ألجأك لقبول الانتساب إلى هذه المدرسة ؟ والجواب حاضر ، فقد كان فى وسعى أن أخرج منها طواعية واختيارا ، ولكن مقابل حرمانى من صداقة وزمالة أختى ، ومن براعتها فى القص ، وحيويتها فى الحركة ، ولقد هددتنى مرارا ، بفض المدرسة وإغلاق أبوابها ، ووضع حد لنشاطها ، إذا أنا شكوت من شدة العقاب وقسوته فيها ، وقد فكرت مرارا كذلك فى هذا الاختيار الصعب ، وقررت مكرها مرغما أن المدرسة بعقابها وميل ناظرتها ومعلمتها الفريدة والعنيفة إلى الشدة خير من عالم تسوده الوحشة ، وتنقصه حرارة المشاركة وأنس الزمالة .

والغريب أن ماينالنى من عقاب كان لايصدر عن أختى عن رغبة فى التعذيب ، ولافرح بوجود فريسة لاحول لها ولاقوة ، لاتملك أن ترد الضرب بالضرب ، والعدوان بالعدوان ؛ فقد طبعت أختى على الصدق والصراحة ، ولوكان الأمر مزاحا أولعبا ولهوا ، فقد كان فى مسلكى مايغضبها بحق ، وكانت ترى أنها تخون رسالتها إذا

لم تقومنى بحد السيف ، وحد السيف هنا ، هو حد « المسطرة » .

ولكن لكل أمر نهاية ، ولكل صبر حدود ، ولابد من غضبة الحليم ، وقد وقعت هذه الغضبة فى يوم ، فعوضت على كل مانالنى من مسطرة أختى ، وصدق غضبها ، فقد أعطانا أبى واجبا فى اللغة الإنجليزية نحفظه ، فأقبلت عليه ، فحفظته عن ظهر قلب ، ولم تعن أختى بحفظه لعلمها بأن مشاغل أبى كثيرة ، وأنه سينسى الواجب ، وينسى أن يمتحننا فيه ، فقررت أن انتقم لنفسى انتقاما مشروعا تقره القوانين وعلاقة الأخوة ، وولاء التلميذ لأستاذته : وان قسا ضربها واشتد عقابها فقد هم والدى بالخروج ، فاقتربت منه وقلت له : لقد حفظت الواجب ، فعاد والدى أدراجه قائلا : كتر خيرك ، لقد نسيت ، وسألنى عن كلمة من هنا وكلمة من هناك ، وأثنى على ثم نادى أختى فتلكأت على أمل أن ينصرف والدى لضيق وقته ، فغاظه هذا التلكؤ ، وألح فى دعوتها ، وجاءت مكرهة ، وهى تنظر إلى عاتبة . ففاض قلبى شفقة لها وألما لهذا المكر الذى بدا لى حسنا ، ثم تبينت أنه مكر سيئ ، فسألها وهو غاضب : فلم تجب ، وسأل ثانية وثالثة ، فلم توفق إلى شىء ، فانطلق يبحث ، فلم يجد أمامه إلا « المسيطرة » ، المسطرة الملعونة بذاتها ، فانهال بها ضربا على وجهها ورأسها وظهرها ، وكانت معنا آن ذاك ابنة خالة ، فاندفعت نحو أبى صارخة ، ثم وصلت إلى أصبع يده فعضتها ، فبدا عليه الألم ، وزاد غضبه ، فانفجرت أنا باكيا . . ورأى أبى نفسه أمام مناحة ، وكان رقيق القلب ، شديد الإحساس بألم كل الناس الحقيقى والمتخيل ، ففاضت عيونه بالدموع وضمنا جميعا بين ذراعيه .

لا أزعم لنفسى أننى كنت فى هذه المرحلة قادرا على فلسفة الأمور ، وإن كان مدرس اللغة الإنجليزية فى مدرسة محمد على ، ورائد كرة القدم الحديثة فى مصر ،

«حسين سليمان» ركلنى يوما لفرط ضيقه بى وهو يقول : «قل يافيلسوف» أما أنه ركلنى فذلك لأنه كان يحب الكرة ، ويحب ركلها بالقدم ، وكان كل ما عنده يركل ، ولم أغفر له فقط – مع إعجابى به وحبى لحبه للكرة – لم أغفر هذه الإهانة التى لا مبرر لها والتى لم ينلنى مثلها من أستاذ ولا زميل .

مع هذه الركلة التى بورك بها لقبى «كفيلسوف» . فإنى لاأزعم أننى كنت قادرا على فلسفة مأساة الانتقام من ناظرة مدرستى ، ومعلمتى وأختى فى ذلك الأصيل الأغبر ، ولكنى أستطيع أن أقول صادقا غير مبالغ ، إننى آويت إلى ركن من أركان حجرتى ، فى بيتى كحيوان جريح ، ولم أستطع حتى لعق جرحى ، فقد شملنى شلل نفسى كامل ، عجزت معه عن الحركة ، وعن التفكير حتى عن الشعور بالألم .

هل حدث ذلك لأنى أحسست بالإثم ، إذ اتخذت من المباهاة بالعلم ، سبيلا للانتقام من أختى التى كنت ألقى التعذيب على يديها ، ساخطا وثائرا وإن كنت قد ارتضيت هذا العذاب ، مقابل متع روحية ونفسية لاتقدر بمال .

ولو استطعت أن أصف شعورى يوم ذاك ، وأن أصوره لقلت : إننى كنت أحس أن حبى لأختى وولائى لها وتعلقى بها ، بدا لى كإنسان حى طعن ، وترك موضع الطعنة لينزف دما . وفى صباح اليوم التالى تلاقت عيوننا ولم نتكلم ، ولعلها كانت راغبة فى الكلام ومقبلة عليه ، ولكنى أنا الذى رفضته وعزفت عنه . فقد عاشت حياتها بسيطة ومتسامحة وذات نظرة للأمور كلها العامة والخاصة تتسم بالتسامى والملائكية ، ولكن منظر أختى وهى تضرب وهى تصيح وهى تحتج بقى ماثلا لعينى كالكابوس ، وقد زاده إيلاما للنفس وتعذيبا لها خيالى الذى عرفت نشاطه منذ وعيت الدنيا وماحولى فيها .

ولكنى مهما أردت أن أرفع من قدر نفسى فوق حقيقة هذا القدر ، فقد كنت

صبيا . وقد خلق الله الصبيان والأطفال ، ومعهم قدرات طبيعية تعين على لأم الجروح ، والامات أكثر أهل الأرض ، لكل جرح أورض أوكسر يصابون به فى أول أيامهم ، وبقيت ذكرياتهم السيئة منذ لحظة الخروج من الرحم حتى يدخلوا فى دور الشباب مروراً بعملية الحنان وعذاب المشى والنطق ، وكل نشاطهم الإنسانى كالقرح الملتهبة ، ولأصابهم الخبل والجنون ، إن لم يضعوا لحياتهم نهاية بأيديهم . .

مرت أيام الحزن بسرعة ، وعدنا كما كنا طفلين بريئين نلعب ونلهو ، وأقمنا المدرسة وضممنا إليها من يفد إلى دارنا من أبناء الأهل والجيران ، وطردنا أكثرهم ، لأن لعبة المدرسة والمسطرة والحكاية التى تعلو على أفهام وأذهان الصبيان لاتروق كثيرا لأغلبيتهم .

وكان لابد أن ينقضى عمر غير قصير ، حتى تصبح أستاذتى ومعلمتى ومدرستى وأختى تلميذة لى ، تبحث عنى ، لأحدثها فيما يمر بها وببلدنا وبالعالم من أحداث ، فإن حالت دون ذلك مشاغلى ، أوأمراضى ، أوسوء مزاجى — غضبت وحزنت ، وانصرفت وهى تلعن الدهر . . رحمها الله وغفر لها ، ولأخيها وتلميذها ، الذاكر فضلها .

مشايخ وخواجات

قال الشيخ الذى نروى ذكريات صباه :

فى أيام صباى تقاسمت طائفتان السيطرة على حياة المصريين ، إحداهما اشتغلت بدنيا النفوس الباطنية ، أى بدنيا الوجدان والمشاعر والمخاوف والآمال واستلهام القوة واستنباء الغيب ، والبحث عن الهداية والظفر بالتوبة والمغفرة ، والترويح عن القلوب بالكلام الممتع والطرائف المستملحة والنوادر المستحبة .

واستأثرت الأخرى ، بعالم المادة من المال والتجارة وصنع الأدوات النافعة وتجميل الحياة وتحسين وسائلها من ملبس ، ومأكل ، وأثاث وزينة ، والتماس المعرفة الحديثة ، والتقدم فى مجالات الرقة والتلطف ، والحديث والاجتماع .

أما الطائفة الأولى فسميها للتبسيط :

طائفة المشايخ ، وأما الطائفة الأخرى فنسميها طائفة الخواجات .

وطائفة المشايخ واسعة الميدان مترامية المجال ، تضم ذوى القيمة والمكانة الحقيقية . يقف على رأسها آل البيت فى أضرحتهم من الرجال والنساء فمنها الإمام الحسين بن على رضى الله عنه ، والإمام زين العابدين ، والإمام الشافعى وأضرابهم من الشهداء الصادقين ، والعلماء المجتهدين ، وأسباط رسول الله المقربين رضى الله عنهم جميعاً ، وفيهم نساء ينافسن الرجال فى العلم والصبر والثبات فى وجه الشدائد كالسيدات زينب ونفيسة ، وعائشة ، ورابعة العدوية ، ثم يأتى بعد ذلك عدد ضخم من المتصوفين الكبار ، انتثرت قبورهم فى مصر من أقصاها إلى أقصاها ، فمنهم السادة أحمد البدوى والأباصيرى وإبراهيم الدسوقى ، والمرسى أبو العباس ، والشاطبى ، وسيدى جابر ، وسيدى أبو الحجاج الأقصرى ، وعبد الرحيم القنائى ، وجلال السيوطى ، وفرغل ، وننتهى إلى مشايخ لهم أضرحة لا يدرى أحد شيئاً من تاريخهم ، ولا يستطيع أحد أن يقطع باحتمال أنه تحت قبة كل ضريح من أضرحتهم شيخ أو وهم يتجر به مشعوذ أو دجال !

ويدخل فى طائفة المشايخ علماء أجلاء خدموا الدين والدنيا بأقلامهم وألسنتهم ، وعلمهم وفضلهم ، ازدانت بهم مشيخة الأزهر ، وأطلق عليهم الناس والحكومة ألقابا جليلة ، وأفاض الشخصية والوقار عليهم علمُهم وسمتهم ، وأسلوبهم فى المشية ، وطريقتهم فى الجلسة ، وأداؤهم للكلام ، وتصديهم للسلطة ، واتصالهم بالعامة ، وبذلهم للمال ؛ وآخرون عضوا على الدنيا بالنواجذ ، وبذلوا الغالى من ماء الوجه وحسن السمعة ليكونوا على مقربة من الحاكم ، مصريا كان أو أجنبيا ،

صالحاً كان أو طالحاً ، فخلفوا الدار والعقار ، وخافهم الناس ، وبعدت عنهم الرعية ، فعوضوا عن الجاه الحقيقى ، بذقون مسترسلة ، وعباءات منتفخة ، وسبح حباتها منتقاة ، ورناتها عندما تتوالى بين الأصابع مسموعة ، مع تؤدة فى الكلام ، وتثاقل فى الجلوس والقيام ، وإطراقة عند كل سؤال ، وعبث فى العثنون ، وهو الشعر الذى يأتى أسفل الشفة السفلى ، قبل الإدلاء بالفتوى ، أو النطق بفصل الخطاب .

وبين هؤلاء وهؤلاء ، أزهريون انتسبوا إلى الأزهر ، ولم يتموا تعليمهم فيه ، ثم تفرقت بهم السبل ، فمنهم الصحفيون ، والأدباء ، ومنهم موظفون صغار فى المحاكم الشرعية ، ودواوين الحكومة ، ومكاتب الأزهر ومعاهده ، ومصححون فى الجرائد . والمطابع ، وخطباء وشعراء « تحت الطلب » يقدمون إنتاجهم للأحزاب والأغنياء ، ويعملون ندماء فى المجالس وعند أصحاب الجاه فى الريف والمدن ، وكتاب عرائض وبلاغات كاذبة ، ومنهم من أتم تعليمه فأصبح قاضياً جليلاً ، أو محامياً شرعيا ناجحاً ، أو أستاذاً فى الأزهر ، أو فى دار العلوم ، أو فى الجامعة عندما نشأت ، أو معلماً فى المدارس الابتدائية والثانوية ، أو أديبا صاحب مكانة ، أو خطيباً ، لا يتحامى مواطن الخطر ولا يتحاشاه ، ويؤلب الجماهير فى ساعات الشدة ، ويؤيد الزعامات الصادقة فى أوقات المحنة .

ويتقدم هؤلاء جميعاً بطبيعة الحال ، فى عهد صباى شيخ الأزهر ، المسمى بالأستاذ الأكبر ، والمعروف من عهد الأتراك « بشيخ الإسلام » ، وكان اسمه فى تلك الحقبة الشيخ سليم البشرى ، وكان قد سبقه إلى هذه المشيخة فى عهد الخديو عباس الشيخ حسونة النواوى ، وجاء بعده الشيخ أبو الفضل الجيزاوى فالشيخ الظواهرى ، وتلاه الشيخ المراغى ، وكانوا جميعاً تنتهى أسماؤهم بياء النسبة ، وكان

ذلك تقليداً تراه واضحاً قبل عهد محمد على حتى اختير الشيخ عبد المجيد سليم ، قبيل الثورة فانكسر هذا التقليد ، ولم يعد قط ، فقد توالى على المشيخة ، شيوخ لا ينتسبون إلى قرية أو إقليم ، فكانوا على التوالى الشيخ الخضر حسين ثم الشيخ عبد الرحمن تاج ، فالشيخ محمد الفحام ، فالشيخ عبد الحليم محمود ، وقد استعاض شيوخنا الأجلاء عن ياء النسبة كالشرقاوى والمهدى والعباسى بلقب الدكتور ، فقل أن تجد الآن فى منصب دينى كبير عالماً لا يضع قبل اسمه لقب دكتور ، وبعض هؤلاء الدكاترة ، لم يحصلوا على لقب دكتور من جامعة أجنبية أو مصرية ، ولكن لقب العالمية فى التخصص ، اعتبر مساوياً لقب دكتور فكثر عدد الدكاترة فى عالم الشيوخ ، وهى ظاهرة لاتسر أحداً ، لا لأن التماس العلم فى أوروبا أو فى مصر خارج الأزهر شيء نكرهه لعلمائنا ، بل لأن لقب شيخ فى رأينا لا يعدله لقب ، وهو يدل على انتمائنا إلى تاريخنا ، ولذلك لا أسمى أحداً من علمائنا إلا مقروناً بلقب « الشيخ » ، وأنا أضمر فى نفسى وأعلن الاحترام والتبجيل ، لهذا اللقب الجليل ، ولكل من يحمله ، وخصوصاً إذا كان يعرف قدره ويحفظ مقامه .

وقد كان لكل حزب فى مصر ، فى الأيام التى أروى وقائعها ، عدد من الشيوخ ينتمون إليه ، ويتحدثون عنه ، ويغشون مجالس زعمائه . وقد كان أكبر هؤلاء الشيوخ ، وأوسعهم شهرة ، وأبقاهم أثرا ، شيخ الحزب الوطنى ، الشيخ عبد العزيز جاويش ، وقد كانت له طلعة جميلة ، ولحية تزيد وجهه جمالاً ، وقد تولى رياسة تحرير اللواء بعد وفاة مصطفى كامل ، فذاعت شهرة مقالاته ، لفرط حدتها وعنفها مع متانة نسيجها ، وفصاحة عبارتها ، وكان الشبان يحفظونها عن ظهر قلب ، فلما حوكم على إحدى مقالاته ، ثم قضى ببراءته حل الشبان سيور العربة ، وسرحوا خيولها ثم جروها بأنفسهم ، ولما حبس فى قضية أخرى ثم خرج من السجن

بعد نهاية مدة العقوبة ، اكتتب الشعب لشراء وسام من الفضة والذهب ووشاح من الحرير والقصب ، وأهدوه إليه فى حفلة حافلة توالى فيها الخطباء والشعراء ، ذاكرين مآثره ، مشيدين بأياديه . وقد كان للشيخ جاويش فضل على شيوخ آخرين كان لهم دور أى دور فى حياتنا العامة ، وكان من هؤلاء واحد من ألصق تلاميذه به هو الشيخ طه حسين فقد رعاه الشيخ جاويش منذ كان طالباً ، ثم أوحى إليه أن يلتمس العلم فى الجامعة المصرية الأهلية ، ثم أن يتعلم الفرنسية ، ثم أن يسافر إلى فرنسا ليطلب مزيداً من العلم والمعرفة ، ثم بقى وراءه يدفعه إلى مواقف الخطابة ، بعد أن شجعه على النقد العنيف لأئمة الكتاب فى ذلك العهد ، وفى مقدمتهم شيخ أزهرى آخر هو مصطفى لطفى المنفلوطى . وكان من تلاميذ الشيخ جاويش الأفذاذ الشيخ على الغاياتى ، صاحب ديوان وطنيتى الذى قدم لديوانه محمد فريد زعيم الحزب الوطنى بكلمة ، كما قدم له الشيخ جاويش بكلمة أخرى ، فقادت النيابة الثلاثة ، صاحب الديوان ، واللذين قرظاه إلى محكمة الجنايات فحكم على « محمد فريد » بالحبس ستة أشهر وعلى الشيخ جاويش بثلاثة وعلى صاحب الديوان بسنة ، ولكنه لم يدخل السجن إذ فر إلى تركيا فسويسرا فأقام بها نحو ربع قرن من الزمان ، بنى خلالها بسيدة سويسرية فاضلة ، وأنشأ مجلة « منبر الشرق » وعاد يتقن الفرنسية كأحد أبنائها كتابة وحديثاً وخطابة وشعراً .

أما حزب « الأحرار الدستوريين » فكان من شيوخه الشيخ الزنكلونى ، والشيخ المراغى ، أما الشيخان والشقيقان مصطفى عبد الرازق وعلى عبد الرازق فكانا من زعماء الحزب ، إذ كان أخوهما حسن باشا عبدالرازق أحد مؤسسى الحزب ،وأول وكلائه ، وقد قتل على باب الحزب . وقد كان الشيخ مصطفى عبد الرازق نموذجاً لجمال الرجال ، تلمع جبهته ببريق عجيب ، لم أر مثله على جبهة أحد سواه ، وكان

دمثا رقيق العاطفة ، خافت الصوت حلو الابتسامة عظيم الحياء ، تكاد تحسبه من فرط حيائه ولطف تقاطيعه عذراء خفرة لا تكاد تقوى على رفع عينيها إلى وجه محدثها ؛ ومع ذلك فقد كان حازماً يحسن ضبط تلاميذه ، حينما كان يدرس الفلسفة الإسلامية فى كلية الآداب ، وكان له لازمة يكررها . إذا ما سئل عن شيء يستهجنه ، أولا يعرفه أولا يود أن يجيب عليه : فقد كان يقول : «يجوز . . . أنا ما أعرفش» وكان يعطش «الجيم» إذ كان من ناحية (أبو جرج) فى إقليم المنيا

أما أخوه على فكانت له لحية صغيرة على طريقة علماء وأساتذة فرنسا ، ولم تكن له وسامة أخيه مصطفى ، ولا بريق وجهه ، ولا لطف ابتسامته ، ولكنه كان فى مثل وداعة شقيقه . وتواضعه وخفوت صوته ، وقد ذاع اسمه بعد اتهامه بالخروج على الدين ، عقب تأليفه كتابه «الإسلام وأصول الحكم» . فلما شلحوه من الأزهر خلع عمامته واصطنع لنفسه الزى الأوربى وحلق ذقنه ، ففقد وجهه الكثير من حلاوته ولطف تأثيره .

أما شيوخ الوفد أو مشايخه فكان أشهرهم ، وأخطبهم وأكثرهم نشاطاً الشيخ مصطفى القاياتى ، وكان من خطباء ثورة سنة ١٩١٩ ، خطب كثيراً فى جامع الأزهر فى أثناء احتدام وقائع الثورة ، فقبض عليه الإنجليز ، ونفوه إلى ألماظة ، وساقوه للمحاكمة العسكرية وحكموا عليه ، وكان من الشيوخ الوفديين الشيخ عبد المجيد اللبان ، كان عضواً فى البرلمان الأول الذى انتخب سنة ١٩٢٣ وانعقد لأول مرة فى سنة ١٩٢٤ ، ولكنه ترك الوفد وبعد عن السياسة فعين شيخاً لكلية أصول الدين .

وكان سكرتير سعد زغلول ، شابا أزهريا تخرج فى مدرسة القضاء الشرعى ، هو الشيخ إبراهيم الجزيرى ، وقد ألف كتاباً عن سعد بعد وفاته روى فيه بعض ذكرياته فى أثناء عمله مع الزعيم ، وعنوانه «آثار الزعيم الجليل» .

وكان من شيوخ الوفد فى الفترات التالية لوفاة سعد زغلول الشيخ محمد البنا وأخواه الشافعى وكامل ، ومدرس إلزامى من محافظة بنى سويف ، وهو الشيخ محمود عمار الذى عرف فيما بعد بشاعر الرعاع ، وذاع لقبه وغطى على اسمه .

أما شيخ السعديين فهو الشيخ عبد الرحمن الجديلى اتهم فى قضية المؤامرة الكبرى ، مع عبد الرحمن فهمى قائد ثورة سنة ١٩١٩ خلال السنوات ١٩١٩ ، ١٩٢٠ ، ١٩٢١ إبان تغيب سعد وزملائه زعماء الوفد فى أوربا ، فزامل فى هذا الاتهام إبراهيم عبد الهادى الذى أصبح رئيساً للوزراء سنة ١٩٥٠ ، فبقيا على صلة وثيقة ، فلما ألف أحمد ماهر والنقراشى الهيئة السعدية انضم إليهما ، فلما توليا الحكم أسند إليه وكالة وزارة الشئون الدينية ، فكان أول وكيل وزارة أزهرى ، وقد تخرج أصلاً فى مدرسة القضاء الشرعى ، وكان صديقاً لأمير الشعراء أحمد شوقى ، ومستشاراً أدبيًّا له ، يستعين برأيه فى تذوق شعره ونقد عيوبه ، وكان الشيخ محمد عبد اللطيف دراز من شيوخ السعديين أيضاً وهو أصلاً من أبناء الحزب الوطنى وقد كان له دور بارز فى أحداث الفترة الأولى من ثورة سنة ١٩١٩ .

وقد حفلت صفوف مصر الفتاة بعدد غير قليل من الشبان الأزهريين الذين أثبتت الأيام سعة علمهم ، وإخلاصهم لدينهم ، ومن هؤلاء الشيخ عبد الرحيم فودة مدير مجلة الأزهر الذى لحق بالرفيق الأعلى أخيراً ، والشيخ عبد المنعم النمر مدير الشئون الدينية فى دولة الإمارات المتحدة ورئيس مجلة المنار ومدير المعاهد الدينية الآن ، والشيخ عبد الرحمن الصوالحى الذى انقطعت عنى أخباره من زمن طويل .

وكانت الصحف تذكر فى تلك الأيام أسماء عدد من الأزهريين فتنشر لهم المقالات ، وتذكر طرفاً من نشاطهم ، وكان أظهر هؤلاء الشيخ محمود أبو العيون ،

الذى وجه كل نشاطه لإلغاء البغاء العلنى ، وكان من قبل ، خطيباً من خطباء ثورة سنة ١٩١٩ ممن عرفوا السجن والنفى الداخلى ، وقد توفى إلى رحمة الله ، فى حادثة مفجعة ، إذ علق طرف قفطانه بقطار « المترو » وهو يصعد أو ينزل منه ، فجره القطار مسافة لفظ بعدها أنفاسه .

وكانت الأهرام تنشر مقالات للشيخ محمد سليمان عنارة الذى اختار لنفسه لقباً قلميا هو « أبو التلاميذ » وكان هذا الشيخ هواه مع حزب الاتحاد والقصر ، ولكنه لم ينغمس فى السياسة علناً ، وإن كان خصومه قد اتهموه بأنه وصل إلى المحكمة الشرعية العليا بسبب صلاته بالسراى . وقد ألف الشيخ عنارة كتاباً جيداً بعنوان « من أخلاق العلماء » أما الذى عاون حزب الاتحاد جهرة من كبار علماء الأزهر الشريف ، فهو الشيخ حسين والى . وقد بدأ حياته الأدبية ، وهو فى مطلع شبابه ، قبل أن يحصل على العالمية بمقالات فى مجلة « روضة المدارس » التى أسسها رفاعة الطهطاوى منذ قرن كامل وخمس سنوات ، وكان الشيخ حسين والى عالماً محققاً وقد تولى أمانة الجامعة الأزهرية ، كما عين عضواً فى المجمع اللغوى ، فكان من أكثر أعضائه نشاطاً .

وقد أحب عدد من علماء الأزهر وشبابه جريدة الأخبار التى كان يصدرها ويحررها أمين الرافعى ، فاتخذوها ميداناً لأقلامهم ، وكان من هؤلاء ، عالم فاضل هو الشيخ عبد الباقى سرور نعيم ، وقد نشر سلسلة من المقالات عنونها بالآية الكريمة « وأنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً » .

ويبدو أن هذه السلسلة طالت ، ولذلك ، فقد أطلق بعض محبى الدعابة الصحفية على الشيخ نعيم ، الشيخ « أشر أريد » ، وكان من الشبان الأزهريين الذين راسلوا الأخبار الشيخ « صادق عرجون » الذى عين فيما بعد ، عميداً لكلية أصول

الدين ، والذى أخرج للناس أخيراً كتاباً من جزأين ضخمين بعنوان « سماحة الإسلام » .

ومن أصحاب العمائم المشهورة فى تلك الأيام . ثلاثة ، كلهم كان ينتمى إلى طائفة المتصوفين أولهم سماحة السيد عبد الحميد البكرى ، شيخ مشايخ الطرق الصوفية ، وكان يلبس عمامة على الأسلوب التركى ، أى طربوشاً من طرابيش الأفندية ، ثم شالا أبيض يلتف حوله ، وكان لسماحة السيد البكرى سمات الأعيان وقد كان فعلاً من الأغنياء ، كما كان عضواً فى حزب الأحرار الدستوريين ، حزب كبار الأغنياء من أصحاب الفدادين ، وقد رأس الرابطة الشرقية ، وهى جماعة ضمت بعض أدباء وأعيان المصريين والسوريين وآخرين يتوطنون مصر من أصول فارسية « كرفيع مشكى ميرزا مهدى » التاجر الإيرانى أو أصول هندية أو تركية ، وكانت غايتها أن تدعم العلاقات بين دول الشرق المترامى الآفاق ، ولم تفعل فى هذا السبيل ، أكثر من الدعوة إلى بعض المحاضرات ولعلها أصدرت مجلة باسمها ، ولقد لبيت دعوتها لسماع محاضرة ألقاها يوم ذاك أحمد زكى باشا الذى عرف فيما بعد بشيخ العروبة ، وارتدى العقال ، ليطابق المظهر المخبر ، أو الاسم المسمى ، وكانت محاضرته عن زيارة له قام بها فى فلسطين ، حدثنا فيها عن مدن هذا القطر الشقيق اللصيق وكأنه قام برحلة فى أحد القطبين ، وقد تحلقنا يوم ذاك حول نافورة ماء ، يسمع لها خرير ضعيف ، وكانت تتوسط مدخل الدار التى استأجرته الرابطة غير بعيد من ميدان لاظوغلى فى شارع خيرت .

أما المعمم الثانى من أهل التصوف فقد كان شبيها بالسيد البكرى من حيث الزى ، وعلى النقيض منه ، من حيث المزاج والطبع ، وأعنى به السيد محمد الغنيمى التفتازانى ، شيخ الطريقة التى يدل عليها اسمه ، وكان مصرى التقاطيع ، وإن كانت

له جبهة بارزة ، لا تشاهد كثيراً فى وجوه المصريين ، وعينان تختلفان عن عيون أهل الريف المصرى الذى لابد أن السيد قد انحدر منه ، وكان بعد ذلك ذكيا ، عظيم الحركة ، يتردد على كل الصحف ، وتربطه بكل كبار محرريها صلات ود ، ويجالس «شوقى» أمير الشعراء ، و«حافظ» شاعر النيل ومطران شاعر القطرين. وتراه فى كل الندوات التى تعقد فى المقاهى العامة ، والتى تضم زعماء البلاد العربية اللاجئين من عسف فرنسا وإيطاليا ، أمثال الأستاذ عبد العزيز الثعالبى ، الذى لم يكن اسمه يذكر فى صحفنا إلا مقروناً «بزعيم تونس الأكبر» . كندوة بار اللواء . وبار الأنجلو ، وقهوة متاتيا ، وكان له بيت قديم فى حى الحنفى بالقرب من ميدان السيدة زينب ، وقد زرته فى هذا البيت لأمر يتعلق بمدفن لأصهارى ، فقد كان السيد التفتازانى ، عضواً فى لجنة الجبانات ، وقد رأيت هناك موظفين كباراً ، وشباناً ممن أتموا تعليمهم فى الجامعات ، وعرفوا العلم الحديث ، يقبلون يد السيد ، ويطلبون منه الدعاء فيقسو على بعضهم ، ويشد آذانهم ، وهم صاغرون ، ويلاطف الآخرين فى اقتضاب وإيجاز ، وكان هذا المشهد طريفاً عندى ، فقد كنت أعرف أن السيد كان ممن ينفذون قول الله تعالى «ولا تنس نصيبك من الدنيا» وقد داعبه الأستاذ الصاوى فى مجلة «مجلتى» يوماً فنشر صورته على طريقة أشخاص «الكوتشينة» التى تضم رأسين للشخص فى كل جانب من الصورة رأس ، وكتب تحتها «شيخ الطرق والكبارى» ، وكانت الأهرام - على جلال قدرها - تترك له حديث رمضان شهراً كاملاً . يملؤه بخواطره الدينية ، ربما نزولاً على مقتضى حسن علاقته بداود بركات رئيس تحرير الأهرام ولصلاته المتعددة بالجهات المختلفة بما فيها دار المندوب السامى البريطانى .

وكان المعمم الثالث من أهل التصوف ، الشيخ الدمرداش ، الذى منح لقب

الباشوية ، تقديراً لمنحته الخيرة الكبيرة ، التى كان قوامها وقفه لقطعة أرض مجاورة لضريح المحمدى ، وبنائه لمستشفى عام عليها من ماله ، باعتبار أن الأرض ملكه ، وكان قد اشترط فى الوقفية أموراً تستحق التأمل لصدورها من شيخ طريقة مسلم . فقد نص فى وقفيته على أن يقام له تمثال فى مدخل المستشفى ، وقد أقيم فعلاً التمثال ولا يزال يطالع الداخلين إلى مستشفى الدمرداش إلى اليوم ، كما اشترط أن يكون مدير المستشفى طبيباً بريطانيا ذكره بالاسم ، على أن يبقى هذا الطبيب الإنجليزى فى منصبه ، لا يعزل مادام على قيد الحياة ، وقد أجيب الشيخ إلى طلبه ، وكان لا يخفى ولاءه للإنجليز ، وحبه لهم ، وقد حضر المندوب السامى حفلة افتتاح هذا المستشفى ، وقد ورثت السيدة قوت القلوب ابنته نصف ثروته . وقد أعانتنى الظروف على أن أعرف طرفاً من تاريخ الأرض التى تبرع بها الدمرداش باشا للمستشفى ، فقد رفعت السيدة قوت القلوب دعوى طرد ضد عدد من فقراء حى المحمدى ، بحجة أنهم اغتصبوا أرضها بدون سند ، ووكلت السيدة توفيق دوس باشا فى هذه القضية وكنت مرشحاً عن دائرة مصر الجديدة ، التى كانت تشمل حى المحمدى ، فحضرت عن الفقراء المدعى عليهم متطوعاً ، ولم يكن لى فضل فى هذا التطوع فقد كانوا من أنشط مؤيدى فى المعركة الانتخابية ، ويوم الجلسة امتلأت قاعة المحكمة بأهل المحمدى ، كما ازدحمت الطرق المؤدية إلى دار المحكمة والمتصلة بها بزوجاتهم وأولادهم ، وفى هذا الجو المشحون بحماسة الفقراء وأنفاسهم الحارة ترافع توفيق دوس باشا ، وكان واحداً من أبرع المحامين فى مصر ، ثم جاء دورى ، فتهيبت الموقف من جميع جوانبه ، ولكن دعوى السيدة قوت ، كانت بلا أساس حقا ، فلم تكن هذه الأرض أرضها ، وأنصف الله الحق ، فرفضت الدعوى ، فانطلقت هتافات موكلى ، مجلجلة مدوية ، حتى كادت جدران المحكمة تنقض . فارتفعت من

لم ، أصوات النساء وزغاريدهنّ ، فكانت خدمة للمعركه الانتخابية ، لم تدخل فى حسبانى ولم تأت عن تدبيرى ، عرفت منها حقيقة تبرع من أشهر التبرعات فى تلك الأيام . .

ولم يكن الشيوخ الذين أثروا على المصريين وعلموهم وثقفوهم وأمتعوهم كلهم من رجال العلم والدين ، فقد كان أكثر أهل الفن ، شيوخاً ، لا يناديهم الناس الواحد منهم إلا بلقب شيخ ، وربما لا يذكر اسم الواحد منهم اكتفاء بلفظ الشيخ فيعرف السامعون من المقصود ، وفى مقدمة هؤلاء ، الشيخ سلامة حجازى فالشيخ سيد درويش ، فالشيخ زكريا أحمد فالشيخ أبو العلا فالشيخ صبح .

أما قارئو القرآن المجيدون أمثال الشيخ على محمود فالشيخ محمد رفعت فالشيخ أحمد ندا فقد كانوا شيوخاً لا بحكم الزى وحده ، وإنما بحكم الصنعة أيضاً ، وكان الشيخ محمد يونس القاضى من أشهر مؤلفى الأغانى فى تلك الأيام ، وكان من الممثلين من خرج من صفوف الأزهريين ، وبقى اللقب عالقا به كالشيخ عبد الحميد عكاشة شقيق زكى وعبد الله عكاشة الذين ورثوا فن الشيخ سلامة حجازى ، والذين استأثروا لفترة بمسرح حديقة الأزبكية الذى أنشأه طلعت حرب باشا ، وكانت الصحف الفنية تسميهم العكاكشة وكان معظم الملقنين فى المسارح ، ممن انتسبوا إلى الأزهر ولم يتموا تعليمهم فيه ، كذلك المصححون فى الصحف والمطابع وقد دخل نجيب الريحانى فى زمرة المعممين ، حينما اصطنع لنفسه شخصية «كشكش بك» ، وارتدى الجبة والقفطان واللحية ، وراح يمثل شخصية عمدة أثرى من ارتفاع سعر القطن الذى علا فى أعقاب الحرب العالمية الأولى علوا جنونيا ، فجاء يبعثره ويوزعه على راقصات شارع عماد الدين من بنات إسرائيل وبنات الدول الأجنبية الفقيرة ، فى تلك الحقبة أمثال اليونان وبلغاريا . فأصبح

بجبته وقفطانه ولحيته البيضاء أشهر شيخ فى مصر ، وإن كان شيخاً زائفاً ، فقد تجاوبت طرق القاهرة وحواريها بأغانى نجيب الريحانى وفى مقدمتها : يا أبو الكشاكش كان جرى لك ايه ، يا هل ترى ؟ وكان ينافس كشكش فى الشهرة شيخ زائف آخر هو الشيخ متلوف الذى ذاعت شهرته منذ ترجم عثمان بك جلال رواية موليير الشهيرة تارتوف باسم « الشيخ متلوف » إلى الزجل المصرى المتقن ، بعد أن مصر أحداث الرواية تمصيراً بارعاً ، وكان ثمة شيخ زائف ثالث ، هو الشيخ « رويتر » ، وكان رجلاً أميا يختلف على الندوات السياسية فى نوادى الأحزاب وفى المقاهى ، فيسمع ما يدور فيها ، وينقله إلى سواها ، ويتسمع الأخبار ويبشر المستوزرين بسقوط الوزارات القائمة ، وبترشيحهم لها ، كما يبشر الطامعين فى الباشوية والبكوية ، بالإنعام الملكى السامى ، فى مناسبات الإنعام فى الأعياد ، من جلوس للملك ولميلاده ، وميلاد ولى عهده ، وكان إذا أهل على ناد فى حزب ، أو ندوة فى مقهى رحب به الكبار ، وأفسحوا له ، ولإشاعاته ومفترياته وتلفيقاته صدورهم ، ونفحوه إذا طابت لهم الأخبار بالكثير . والحق أن قضية الجبة والقفطان والعمامة فى مصر ، فى أيام صبانا ، وبعبارة أخرى قصة المشايخ والشيوخ ملتهبة ، فقد كانت المسرحيات والقفشات والمداعبات والنوادر لا تكف عن اتخاذ المشايخ هدفاً للهجوم الصريح حيناً ، والغمز الخفى حيناً ، ذلك لأن العمامة لم تكن وقفاً على أهل العلم والدين ، باعتبارها مع الجبة والقفطان زيا علميا ، فقد لبسها جميعاً عدد لا يحصى من أعيان الريف ممن لا يقرءون ، ولا يكتبون ولبسها عدد كثير من أهل الحرف من مأذونى الشرع وخدمة المساجد ، وكذلك المتسولون الذين يتخذون من القرآن وسيلة للاستجداء وعمال المدافن ، ولما كان هؤلاء أكثر اتصالاً بالناس من علماء الدين بحق وكان من جهة أخرى مدرسو اللغة العربية ، ممن يلبسون

العمائم والجبب والقفاطين ، وتلاميذ المدارس لا يرحمون مدرسيهم من ضروب شقاوتهم اللفظية والعملية ، فقد أصاب لقب الشيخ أذى كبير ، وكانت الحياة الحديثة قد هزت أسس المجتمع القديم ، فاندفع أكثر أهل المدن إلى اصطناع أساليب الحضارة الحديثة فى الزى والمظهر ، وقطعوا صلتهم بالماضى ، وادعوا علمهم باللغات الأجنبية ، وبأنهم ممن بلغوا الغاية فى التأنق ، والتحضر ؛ فقد كان الأزهرى تجسيداً حيا للماضى المراد الانفصال منه ، والابتعاد عنه ، وامتحن الأزهريون امتحاناً شديداً ، فإن احتفظوا بزيهم تكلموا العربية الفصحى ، وحرصوا على مقومات المجتمع القديم أحسوا أنهم غرباء ، وأنهم قطعة متلكئة من الماضى ، جديرة بأن تزاح عن طريق التقدم والتطور ، وإن تخففوا شيئاً ما من مظاهر حياتهم الأصيلة والقديمة كان كالغراب لا هو احتفظ بأصله ، ولا هو نجح فى محاكاة الطاوس .

وأعانت على شدة الأزمة أن الحياة السياسية القائمة على صراع الأحزاب بدأت فى شدة ضارية ، فى أعقاب صدور الحرب العالمية الأولى ، ثم زادت ضراوتها ، وتطلبت هذه الأوضاع الجديدة من علماء الأزهر مواقف محددة ، ولكن بعضهم تذبذب أو انحاز إلى أحزاب غير المتمتعة بتأييد الأغلبية ، فزاد ذلك من حدة النقد الموجه إلى علماء الأزهريين ، وقد ذاع على الألسن يوم ذاك بيت شعر للشيخ محمد بخيت المطيعى مفتى الديار المصرية معناه أنه « مع الوفد والأمرا والشعب والوزرا » أى أنه مع الجميع ولا يدرى أحد ما : هل هذا قوله أو قاله تهكما على المذبذبين أو كان الشعر تلفيقا من خصومه ؟

واستغل الإنجليز بفظاظة هذا الموقف المتأرجح ، فصوبوا إلى مقام الأزهر والأزهريين ، سهما مميتاً ، إذ ألفوا أن يدعوا إلى دار المندوب السامى ، فى السابع

والعشرين من رمضان كل عام شيخ الأزهر وكبار علمائه من المفتى إلى شيخ مشايخ الطرق الصوفية ، إلى شيوخ المعاهد ، ليحتفلوا مع المندوب السامى البريطانى بليلة القدر ، ويتوجهوا إلى الله العلى الكبير بطيب الدعاء . ولم يكن فى وسع واحد من هؤلاء العلماء أن يرفض هذه الدعوة الآثمة ، لأن رفضها معناه عزله من منصبه إن عاجلاً أو آجلا وحرمانه من مزاياه ، وسد لطريق التقدم فى الحياة الدنيا بكل لذائذها ومتعها .

وزاد الطين بلة أن هذه الدعوة المتحدية لكل مبادئ الشرف والدين ، أيا كان هذا الدين ، مضت عاماً فعاماً توجه على مسمع ومشهد من الرأى العام فى عهد الاحتلال ، وفى عهد حكم الأغلبية الشعبية بعد صدور دستور سنة ١٩٢٣ دون أن تعلو معارضة عنيفة وصارخة ضد الإنجليز وشيوخ الأزهر ، ودون أن يقع اعتداء رادع على هؤلاء الذين كانوا يذهبون إلى دار الحماية البريطانية أو دار المندوب السامى ، فى هدوء النفس ، وراحة البال ، كأنهم لا يأتون أمراً إدًّا ؛ لذلك كله لم يكن غريباً ، وإن كان مؤلماً إلى أقصى الحد ، أن تؤلف أغان وعبارات تنال من قدر الأزهريين العالى ، مثل قولهم « أزأز فى الأزعر » ولحن بيرم وسيد درويش : « الحق يا شيخ قفاعة ، تلغراف آخر ساعة اللى فى جرنال البورص » .

وفى تلك الأيام ذاع اسم أزهرى فاسد ، وهو الشيخ عبد الظاهر السمالوطي ، الذى تقدم كشاهد ملك ضد عبد الرحمن فهمى قائد ثورة سنة ١٩١٩ ، والمشرف على توجيه حركتها ، وتنفيذ خطتها والنفخ فى جذوتها ، وجمع صفوف المقاتلين تحت رايتها ، والتضييق على خصوم عقيدتها ، فقد اتهم الإنجليز عبد الرحمن فهمى فى مايو سنة ١٩٢٠ ومعه سبعة وعشرون من الشباب بأنهم كونوا « جمعية الانتقام » بقصد خلع السلطان فؤاد وقلب حكومته والتحريض على العصيان والقتل .

وفى الثلاثاء ٢٠ من يولية سنة ١٩٢٠ عقدت محكمة بريطانية برياسة جنرال اسمه « لوصون » أولى جلساتها فى قاعة محكمة الاستئناف بميدان باب الخلق لمحاكمة الزعيم العظيم عبد الرحمن فهمى وزملائه واستمرت ثلاثة أشهر ، وهى شغل الأمة الشاغل ، وكان الاتهام يقوم على افتراءات عبد الظاهر السمالوطى هذا الذى زود النيابة بكل ما كانت فى حاجة إليه لتلفيق هذه القضية ، فأصبح عبد الظاهر قريناً للشيطان عند الناس ، يلعنونه فى الليل والنهار ، فى البيوت والأندية والطرقات العامة ، ولكن لم يكن أحد يعُده من الشيوخ ولا من المشايخ ، وإن كان يلبس العمامة والجبة والقفطان وكان قد انتسب إلى المسجد العتيق ! .

على أنه فى وسعنا أن ننسى كل هذه القبائح فنختتم الحديث عن الأزهر واالأزهريين باسمى رجل وشاب لبسا العمامة وطلبا العلم فى الأزهر ، ونبغا بفضله فكانا نموذجين للأزهريين العظماء : أولهما السيد مصطفى لطفى المنفلوطى ، والآخر الشيخ زكى مبارك .

أما المنفلوطى فقد عرفه قراء العربية فى مصر سنة ١٩٠٨ بمقالات أسبوعية بدأ ينشرها فى تلك السنة فى جريدة « المؤيد » التى أخرجها أزهرى آخر هو الشيخ على يوسف ، وما كاد يتوالى ظهورها فى هذه الجريدة اليومية الذائعة تحت عنوان « النظرات » حتى استرعت الأنظار ، ثم أثارت الإعجاب ، وفى أقل القليل أصبح المنفلوطى أحب الكتاب إلى قلوب القراء ، فلما جمع هذه المقالات فى مجموعة باسم هذه الأسبوعيات « النظرات » فى كتاب ونشره على الناس سنة ١٩١٠ ضم إليه ثلاثة وثمانين مقالا ، واثنتى عشرة قصيدة ومقطوعة شعرية ، حتى تهافت الناس على اقتنائها ، فبيع من الطبعة الأولى منها – على ما أخبرنى المرحوم محمد راشد رستم الذى فقدناه أخيراً عشرة آلاف نسخة ، وهو رقم لم يصل إليه حتى اليوم عدد المبيع

من كتب أكبر الكتاب ، إلا فى القليل والنادر ، وقد أهدى المنفلوطى الطبعة الأولى من النظرات إلى ثلاثة كانوا جميعاً من الشيوخ المعممين الذين طلبوا العلم فى الأزهر وانتسبوا إليه هم على حد عبارته هو فى الإهداء : « ولى نفسى والدى السيد محمد لطفى ، وولى عقلى وأستاذى الشيخ محمد عبده ، وولى أمرى سيدى سعد زغلول باشا » .

ولكن ولاء المنفلوطى لأستاذه ، وولى نعمته حقا ، سعد زغلول ، لم يخرجه ، كما أخرج الآخرين من ذوى النفوس الضعيفة عن طريق الوطنية الصحيح ، فعرف قدر مصطفى كامل ، كباعث للوطنية فى مصر ، وقائد لحركتها ورمز لنهضتها ، فلما قبض مصطفى إلى بارئه أحسن توديعه فقال :

« مات مصطفى كامل فعرفنا الموت ، وما كنا نعرفه قبل ذلك لأننا ما كنا نرى إلا أمواتا ينقلون من ظهر الأرض إلى بطنها ، أما مصطفى كامل فكان حياة حقيقية فكان موته كذلك .

كان الوطنيون قبل اليوم يتكلمون ، فلما جاء مصطفى كامل علمهم كيف يصيحون فلما صاحوا وأسمعوا عرفوا أن آذان السياسة لا يخترقها إلا الصوت الجهورى ولولاه ما كانوا يعرفون .

كان الوطنيون يحتقرون أنفسهم ويسيئون الظن بها فلا يصدقون أن تربة مصر تنبت أمثال فولتين وهوجو وغاريبالدى وواشنطون ، فلما نبغ بينهم مصطفى كامل عرفوا أن تربة مصر لا تختلف كثيرا وتربة غيرها لو تعهدها الزارعون .

فيايها القارئ الكريم إن كان لك ولد تحب أن تجعله رجلا فاجعل بين يديه حياة مصطفى كامل ليتعلم منها الشجاعة والإقدام !

أيها الراحل المودع ، طبت حيا وميتا ، خدمت أمتك فى حياتك وبعد مماتك ،

لولا حياتك ما نمت العاطفة الوطنية فى نفوس المصريين ، ولولا مماتك ما عرف العالم أجمع أن الأمة المصرية على اختلاف مشاربها ومذاهبها تجمعها كلمة واحدة وهى حب الوطن وحب رجاله العاملين » .

وقد توالت بعد ذلك للمنفلوطى آثار ، كانت قصصا ، ومسرحيات فرنسية ، فنقلها إلى العربية عن ترجمة لبعض أصدقائه طلبوا إليه أن يهذبها وينشرها على الناس بلغته وأسلوبه هو لتكون أنصع عبارة ، وأجمل صياغة ، وأعذب فى آذان الناس ، وأقرب إلى قلوبهم ، وظاهرٌ هذا بوضوح من مقدمته لمسرحية سيرانودى برجراك التى وضعها شعرا أدمون روستان فقد قال المنفلوطى : « أطلعنى حضرة الصديق الكريم الدكتور محمد عبد السلام الجندى على هذه الرواية التى عربها عن اللغة الفرنسية تعريبا حرفيا حافظ فيه على الأصل محافظة دقيقة وطلب إلى أن أهذب عبارتها ليقدمها إلى فرقة تمثيلية . . . » .

ويستشف هذا المعنى بدرجة أقل وضوحا فى مقدمة رواية فى سبيل التاج التى وضعها الكاتب والمترجم القدير الأستاذ حسن الشريف عليه رحمة الله .

أما االأزهرى الآخر ، وهو الشيخ زكى مبارك ، فقد خاض غمار ثورة ١٩١٩ ، وعلى رأسه العمامة وعلى جسده الجبة والقفطان ، نحيفا ضعيفا ، ولكن كان مليئا بالعزم ، بتوثب لنزال أعداء البلد بالقلم واللسان واليد ، يخطب على منبر الأزهر ، وغيره من المساجد والأماكن العامة مستلهما روح مصطفى كامل سائرا فى دربه ، ويكتب المقالات فى جرائد الحزب الوطنى ، كما يدبج المنشورات المهيجة للخواطر ، والمؤلبة للجموع ، يود أن يقتلع الإنجليز من جذورهم فى بلاده ، وأن يراهم خارج حمى هذا الوطن ، والسيوف فى أعناقهم ، والأحذية فى أعجازهم ، واللعنات تصاحب خطاهم وتسبقهم ، فاعتقل ونفى النفى الداخلى ، إلى صحراء

مصر الجديدة وصحراء الإسكندرية فى سيدى بشر ، فزاد عزما على النضال ، وكرها للإنجليز ، واحتقارا للمساومين ، من زعماء الأحزاب الأخرى ، الذين يتخذون من السياسة سبيلا للجاه ، وأداة لاقتناص المغانم . .

على أنه إلى جانب هذا العالم الظاهر الذى يعيش فيه المشايخ ، ويؤثرون فى الناس رضا وسخطا وإعجابا واستهجانا – عالم سفلى لنوع آخر من المشايخ لا يظهرون إلا فى الظلام ، ولا يعملون إلا فى الخفاء ولهم مع ذلك تأثير أكبر ، وقد كونوا جيشا عرمرما .

غير أنه لحق بهم ، من الرجال والنساء ، منهم دجالون ومشعوذون ، فأسطوات « زار » ، يدعون الكرامة ، والقدرة على معرفة الغيب ، وشفاء المرضى ، وجمع الأحبة ، وإزالة العمل السيئ وتحقيق المعجزات بالسحر والاتصال بالأرواح والاستعانة بالأشباح واستخدام الجن ، واستعمال السحر ، وقد راجت سوق هؤلاء حتى كاد يكون لكل بيت شيخ يستعان به فى الملمات ، كما أن لكل بيت طبيبا يقصد عند الأمراض والآفات ، وهؤلاء لا يقنعون بأكل المال الحرام بترويج بضاعتهم الزائفة من أحجبة وتعاويذ بل يضيفون إليها قائمة طويلة من جرائم الأخلاق من تحسين الفحشاء إلى ممارستها مع ضحاياهم من الرجال والنساء .

ولقد زرت شيخا من هؤلاء أيام صباى ، ومازالت أذكر داره فى ناحية قريبة من سراى عابدين : دخلت فى شقة هادئة ، ضوءها قليل ، استجلابا للرهبة ، وإضفاء المهابة على المكان ، ثم دلف إلينا رجل بطىء الحركة يسبقه بطن متدلٍّ ، ومد يدا سمينة رخصة تحس بلينها وامتلائها عند المصافحة له وكأنها قطعة من عجين ، واستمع فى هدوء ، ثم صمت وشرد ، ولم يهتز ولم يبسمل أو يحوقل ، وإنما تكلم فى صوت خافت فكأنه طراز خاص بين وحوش هذه الغابة ، التى منها آكلو

اللحوم ومنها الأفاعى السامة ومنهم من يتسلق الأشجار ومنهم من يتسلل ولا يصدر عنه صوت ولا يخلف وراءه أثرا ، فأرهفت الأذن لسماعه ، وانصرفت السيدة التى كانت معى ، والتى لا أذكر من تكون الآن ، وقد سرى عنها ، وبدا ذلك واضحا فى صوتها ووجهها كأنما حاجتها قضيت لها ؛ وسمعت بعد ذلك اسم الشيخ « محمد » يتردد . ولكن الذى أذكره وأؤكده أن بيتنا لم يكن ممن يعتقد صدق هذه الطائفة من القوم ، أو يلتمس منها العون ، أو يوسطها عند الله لقضاء الحاجات ، بل إن أمى كانت معى فى زيارة السيد أحمد البدوى فى طنطا ذات يوم ، فلما رأيت الناس يقتربون من الضريح ، ويتعلقون بشباكه النحاسى ، ويهمسون بشىء ، وددت أن أحاكيهم ، وليس لدى حاجة أطلبها ، إنما هو حب التقليد . فردتنى أمى بعنف وكأنى أجرمت . ولقد كنت أسمعها وأسمع أبى يقولان عن هؤلاء الصالحين : إنهم ناس طيبون ! ولا يزيدون . بل إن أمى رأت فى المنام . السيد أحمد البدوى ، وهى حامل بى ، فبشرها بمقدم صبى وكان أولادها الذكور لا يعيشون وأصبح الولد الذكر أملا يرتجى وقال لها : سموا المولود فتح الله ! وجئت أنا بعد ذلك المنام بقليل فأسمونى « فتحى » ولم يسمونى « فتح الله » ، لأن أحدا لم يتصور أن هذا أمر من السيد أحمد البدوى ، أو أنه يملك أن يأمر أو أن ينهى .

* * *

ويبدو أن حديث المشايخ لو تركنا أنفسنا على السجية ، ولم نضع عليها قيودا ، ما انتهى ، ولابد لنا من أن ننتقل إلى حديث الخواجات ، فلا مفر من فرض وقفة حيثما اتفق . ولا بأس من أن يكون ختام حديث المشايخ ، حديثا عن المجاهد المغربى السيد أحمد البدوى .

أما حديث الخواجات فيبدأ من الحملة الفرنسية ، فقد عرف المصريون

الأجانب ، وعرفوا أسلوبهم فى الحياة ، وطريقتهم فى التفكير ، ومبادئهم فى الحكم ، وأدواتهم فى ارتياد المجهول وتحصيل المعرفة عندما اصطدم المجتمع المصرى الإسلامى الراجع إلى القرون الوسطى ، فى الماديات والمعنويات وجيش الثورة الفرنسية ، ليفتح عينيه على عالم جديد غاية الجدة ، جديد حتى على أوربا نفسها ؛ فقد كان جيش أمة ثائرة ، فرغت لتوها من ثل عرش ملوكها القديم ، وفى هدم مجتمعها الموروث ، وفى إزالة الأحكام والقوانين والأفكار التى سادت أوربا قرونا .

ومنذ ذلك اليوم وأوربا تعالج أن « تغرب » الشرق ، أى أن تحبب لأهل الشرق أفكار الغرب وأساليب حياته ، ومبادئه ، وأن تنفره من أفكاره وحياته وحضارته وثقافته وجميع ما ورثه عن الآباء والأجداد ، وكانت عملية التغريب هى ضمان الغزاة والفاتحين فى إسكات صوت ضمائر أهل الدول المفتوحة التى تدعوهم إلى المقاومة ، وإضعاف حافز الرفض عندهم . ولقد سارت أوربا شوطا بعيدا فى هذه الحملة القوية التى ثابرت عليها ، وبذلت فى سبيلها الكثير ، ودبرت لها فأحسنت التدبير ، حتى استمالت أكثر أهل البلاد المفتوحة ، وما بقى على مقاومته ، إما أن يشعر بأنه متروك ومتخلف وعاجز عن مسايرة الحياة ، وإما أنه صاحب رسالة لا أنصار لها ولا أعوان ولا مستقبل .

لقد فتحت عينى على الدنيا ، فرأيت كل ما هو مصرى وعربى وشرقى ينسحب ويذبل ويتوارى تاركا مكانه للبريطانى والفرنسى والطليانى ، فنحن نلبس البذلة الأجنبية ، ونشتريها من محال تحمل أسماء أجنبية صريحة مثل « موروم » ، أو « شيكوريل » ، أو « بلاتشى » أو « سلامندر» ، وكنا نحرص على أن يكون حذاؤنا من متجر إنجليزى اسمه « روبرت هيوز» وقمصاننا من محل إنجليزى آخر اسمه « ديفز براين» . وكانت ملابسنا تحمل بدورها أسماء إنجليزية أو فرنسية : فالسترة هى

الجاكت ، التى نقول عنها جاكتة ويقول عنها العوام « زاكتة » ، والسراويل هى « البنطلون » ، وربطة الرقبة هى الكرافت ، وملابس السيدات كلها أجنبية فالصدرية هى «الشميزيت» والقسم الأدنى من ملابس السيدات هى « الجونيلا » بالإيطالية والمخرمات هى « الدانتيلا » والشريط هو « الفيونكا » ، وما نركبه هو« الترماى » والمحصل هو الكومسارى أى الكوميسير . وأطعمتنا كلها أو أكثرها تحمل أسماء أجنبية فالبسطة باليونانية أو الجاتوه بالفرنسية ، والصحيفة اليومية هى « الجورنال » والخطاب يصل بالبوستة ، وما نستعمله فى الانتقال والاتصال إما الوابور ، وإما التلغراف أو التليفون ، والشركة هى « الكوبانية » والمصنع هو (الفابريقة) تصحيفا للفظ « فابريك » أو الورشة تصحيفا للفظ « ورك شوب » ، وآلاف من ألفاظ الحياة اليومية كالكارت والقومندان والباسبور والقومسيون والفيزا والاسبتالية والروشتة ، وهى ألفاظ تجرى على ألسنة الأميين والمتعلمين على السواء ، ومنهم من يفهم معناها ومنهم من يرددها وهو لا يدرى لها أصولا !

وأحاول أن أتذكر الذين كنت أعاملهم من الأجانب فأجدهم يتجاوزون الحصر ؛ فالمصور الذى أحمض عنده الصور هو« ينى إسباناكيدس » فى الحى و« زولا » فى وسط المدينة ، والحلوانى الذى نشترى منه الفطائر والحلويات هو جروبى أو لاباس أو تسيباس أو صولت أو ليمونيا ، والفرن الذى نحصل منه على الرغيف « الفينو» هو فرن « كوستى » وهكذا . . وهكذا .

والأجانب هم الرؤساء فى الشركات والمرافق العامة ، يتقدمهم ويتصدرهم الإنجليز ، ثم يأتى بعدهم الفرنسيون والطليان ، والبلجيكيون ، ثم تأتى طبقة أجانب من الأروام أو اليونانيين والبلغار ثم فئة ثالثة من اليهود الأجانب فاليهود المصريون ثم اللبنانيون والسوريون المسيحيون ، ثم يأتى المصريون ليعملوا فى المؤسسات الأجنبية

العامة والخاصة خدما بجلابيب .وإن كانت جلابية من الصوف الغالى . والألفاظ كلها فى التعامل مع هذه المؤسسات سواء كنت متعلما أو أميا ألفاظ أجنبية ، والأوراق والإيصالات والخطابات والإنذارات والعقود كلها بالفرنسية وأقلها بالإنجليزية . فقل أن يتاح لمصرى أن يقابل مديرا من مديرى هذه المؤسسات أو نائبه أو مساعد نائبه ، فالمصرى لا ينال إلا شرف التحدث إلى أجنبى يتوطن فى مصر ، يتكلم العربية بطلاقة ولكن بلكنة أجنبية واضحة . ولا يصل إلى شرف مقابلة الرؤساء الأجانب إلا الوزراء الحاليون والسابقون والباشوات وأصحاب الضياع الواسعة والأموال الوافرة !

وكل أجنبى يتقدم على كل مصرى أو عربى أو شرقى حتى الكلاب : فالكلب الرومى هو أفضل وأنظف وأقوى من الكلب المصرى ، أى البلدى ، والرومى هو عنوان على الأجنبى ، سواء كان بريطانيا أو فرنسيا كالبولدوج أو الوولف .

والأعياد المصرية ، قاومت كثيرا ، بفضل روح الشعب فى الأحياء الوطنية وفى الريف ، فاحتفظت بحيويتها وبصحتها وخصائصها الزاهية ، ولكن لم تنفع هذه المقاومة إلا قليلا فأصبح عيد رأس السنة والكريسماس ، هى الأعياد التى يهتم بها الجميع ويسهرون حتى الصباح ، واختفت شيئاً فشيئاً المأكولات المصرية الشهية والمشروبات البلدية الشهيرة ، والتقاليد المصرية الرائعة التى تقوى روح الجماعة ، وتجدد نشاط النفوس وإقبالها على الحياة . وحلت محلها تقاليد مهجنة ، اختفت «المنادر» من البيوت ، وما كانت تستقبله كل مساء ، من الأصدقاء وجيران الحى ، للسمر الأدبى والاجتماعى ، وتوارت نهائيا الاحتفالات برؤية هلال رمضان ، وبوفاء النيل حتى قبل إقامة السد العالى بسنين طويلة ، ولم يعد لمدننا شخصية ، وزحفت المعايير الغربية الجافية الخالية من الروح على أحيائنا القديمة

والجديدة معا .

وأصبح الخواجة هو المثل الأعلى ؛ فهو الرجل الأمين العالم النظيف المنظم الكفء . وكل ما يعمله صحيح . وكل ما يقول به صواب ، وكل ما يشير به واجب ، كذلك أصبحت المرأة الأجنبية مثالا تحتذيه المرأة المصرية فى الملبس والمظهر وأسلوب التفكير ، وأصبح الإنسان المصرى تقليدا ومحاكاة ، واختفى الإنسان المصرى الأصيل ، حتى حينما يفكر ، يفكر بعقل غيره ، وحينما يتذوق ، يستعر ذوق سواه ، ونضبت موارد الابتكار والخلق ، وزالت أسباب الثقة بالنفس والاطمئنان إليها ، وتناقص دور المشايخ باختلاف طوائفهم وطبقاتهم !

وقد كانت الخسارة فادحة ؛ لأن الاستعمار الغربى لم يصل إلى هذه النتيجة إلا بعد عملية تدمير مادية وروحية استمرت قرنا من الزمان فى دأب عجيب . فالخواجة وقف على رأس المجتمع المصرى ، وقد تمثل الخواجة الأكبر فى المندوب السامى البريطانى ، فأصبح هو حاكم مصر الحقيقى ، ينهى ويأمر ، ويخيف الملك المصرى ، كما يخيف الوزراء ، ويغريهم ويمنيهم ، فالذى يتحدى إرادته ، أو يتجاهل وجوده — يفقد مستقبله السياسى فور اللحظة ، وقد قالها صريحة اللورد كيلرن آخر الطغاة الإنجليز فى مصر ، فى رسائله السرية لوزير خارجية بريطانيا ، وكانت كل سفارة أجنبية تحتمى بالاحتلال البريطانى من جهة ، وبالامتيازات الأجنبية من جهة أخرى ، فتمارس سلطانا غير شرعى خاصا فى دويلة تقيمها فى مصر .

وكان من آثار هذا السلطان غير الشرعى أن يكون فى مقدور أى حاجب فى أى قنصلية أجنبية أن يعترض على حكم نهائى صدر من محكمة مصر ومتوج باسم رئيس البلاد .

ولقد زال هذا العدوان السافر بعد سقوط الملك والملكية وانسحاب الاحتلال البريطانى ، ولا سيما بعد تأميم قناة السويس ، وهزيمة الغرب الأوربى الكبرى بعد هذا التأميم .

ولست أنسى يوما رأيت فيه أستاذى المرحوم الدكتور محمد مصطفى القللى وقد تعلمنا على يديه قانونى العقوبات وتحقيق الجنايات فى كلية الحقوق فى الطريق ، فاستوقفنى وهو دامع العينين ، وقال : ألم تر اليوم الصورة المنشورة فى صدر الجرائد ؟ قلت له : رأيتها ؛ قال : ألم تر فى قفص الاتهام أعضاء السفارة الفرنسية ، وعلى مقربة منهم كبار المحامين الفرنسيين جاءوا ليراقبوا المحاكمة ويشهدوا ولا يتكلمون ، من كان يصدق أن هذا كان يمكن أنّ يحدث فى مصر التى انتهك استقلالها قناصل الدول الصغيرة والحقيرة استمراء للنفوذ المسلوب منا بفضل الاحتلال ، ولم يكتف الأجنبى بذلك فقد أقام لاستعماره الثقافى صروحا وقلاعا فى المدارس الأجنبية ، فكانت تعلم أولادنا وبناتنا كل شيء إلا تاريخنا وجغرافية بلادنا ولغتنا وديننا ، ولم يكن فى وسع وزير التربية المصرى ، أن يقتحم هذه القلاع الآثمة ، ولكن حينما سقط الملك ، وزالت الملكية ، وانتهى الاحتلال أصبحت هذه المدارس ، مدارس لمصر ، تعلم لغتها ودينها وتاريخها وتدعو لأمجادها ، فلنذكر ذلك فإن نسيانه من الجحود الذى يعاقب عليه الله العظيم ؛ ولم يقنع الأجنبى بكل هذا الخراب الروحى فأقام لكل عشرة من الأجانب الذين ينتمون إلى طائفة فى دين محكمة تحكم فى قضية هذه الطائفة ، ويكفى أن تختم هذه المحكمة الهزلية ورقة بخاتمها لتكون حكما ، ولينحنى القضاء المصرى والإرادة المصرية له ، ويتركه يسرح ويمرح . . . هذه المحاكم الملية أو المجالس الملية كما كانوا يسمونها ، زالت بجرة قلم بعد أن سقطت الملكية والاحتلال ، وذهب الخواجة البغيض إلى غير رجعة ،

فلنذكر ذلك أيضا ، ولا ننسه ، فقد كان عدوانا صارخا ومهينا لاستقلال قضائنا وكرامة محاكمنا . .

والمصارف الأجنبية التى كانت تنهب ثرواتنا ، وتحولها للخارج دون أن تستورد من الخارج مليما ، تلك المصارف التى عاشت سنين تزعم أنها تمول اقتصادنا ، وتعين تقدمنا المادى ، عادت إلينا ، بعد أن كنا لا ندخلها – كما قلنا – إلا فى شكل خدم يلبسون الجلابيب ، والخواجات من حثالات الأمم يترأسون ويأمرون وينهون . . . ومن واجبنا أن نحسن استغلالها ونجعلها أدوات حقا لا ادعاء للتنمية القومية .

انتهى عهد الخواجة البغيض . .

فلنحمد الله على ذلك ، ولنتحدث به ، ونتحدث عنه ، فإنه زاد للمستقبل لا غنى عنه لأنه لايزال أمامنا الكثير .

ولكن كيف تكون مصر ، بعد زوال حكمه وطغيانه ؟ ما صورتها الجديدة ؟ وماذا يكون فيها دور شيوخها الأماجد ، وثقافتها التليدة ، وروحها التى قاومت الزمن ؟

أسئلة لايزال علينا أن نجيب عنها وبأسرع مما نتصور ، وإلا سبقنا الزمن ، وتركنا حيارى !

أخواتى الثلاث (١)

لو لم يمنحنى الله أولئك الأخوات الثلاث ، وحبهن ، والمثل الذى ضربنه ، لكان ممكناً أن تشكل حياتى ، على صورة أخرى .

وحب الأخت ، لأخيها ، ميراث عربى مصرى ، فالخنساء التى بكت أخاها « صخرا » فى شعر يفيض أسى ودموعاً ، رمز على المرأة العربية ، المصرية ، على طول التاريخ ، وقد كنت الولد الوحيد ، وكنت أصغر الأولاد ، وأكثر أفراد الأسرة مرضاً ، وقد كان لى شبيه فى فرع آخر من الأسرة ، فقد كان ابن خالة أمى ، الولد الوحيد مع ثلاث من الشقيقات ، وكان رجلاً فاضلاً ووطنيا شجاعاً ، مثل بلده فى الجمعية التشريعية ، وكان من نواب الحزب الوطنى آن ذاك ، وأثبتت تحقيقات قضية السردار « لى ستاك باشا » المفتش العام للجيش المصرى . أن قريب أمى هذا كان عوناً لهذه الجماعة الوطنية الباسلة . التى تصدت للمحتلين بالحديد والنار ،

فقتلت من ضباط جيش الاحتلال وجنوده وموظفيه عدداً غير قليل . فكان يعطيها السلاح . وينقل أفرادها بعربته . وقد تضامن فى هذا العمل السرى الباهر ، مع مجاهد وطنى عظيم هو المرحوم عبد اللطيف الصوفانى . وقد أصدرت النيابة أمراً بالقبض على كليهما . وكان من غرائب المصادفات أن كلا منهما مات قبل أن ينفذ عليه هذا الأمر . . وقد بلغ من حب الناس له أنه أسقط فى أول انتخابات سنة ١٩٢٤ فكرى أباظة الكاتب والخطيب والمحامى فى دائرة بلبيس .

وقد كنت صبيا صغيراً عندما سمعت بوفاة هذا القريب الوطنى عمر بك مراد وهذا اسمه ، ورأيت من دلائل حزن اخوته عليه ، كأنه الأب ، والابن والزوج فى آن واحد ، ما جعلنى أدرك وأنا بعد فى مطالع الحياة ، كيف تحب المرأة المصرية أخاها ، وقد سرنى أن أكون شبيهاً بمجاهد وطنى منكر لذاته ، كاره للشهرة ، مستهدف للخطر ، فى صمت عميق ووقور ، وبقيت أذكر ليلة ، من ليالى رمضان ، صحبنى فيها هذا القريب العظيم إلى منزل عبد اللطيف الصوفانى ، فى الحلمية ، فقد لبثنا فى قاعة الضيوف ، حتى أدى الصوفانى فريضة العشاء ، ثم دخل علينا ، فى جبته وقفطانه وعمامته . تأخذ العين ، تقاطيع وجهه الضخمة ، واحمرار بشرته الشديد ، وثقته بنفسه ، ولما رأيته بعد ذلك ، فى مجلس النواب ، يجادل « سعد زغلول » استولى على لون من البهجة والاعتزاز ، حتى خيل إلى أن من حقى أن أعلن لمن كان معى من زوار المجلس فى الشرفة المطلة على قاعته ؛ أنى أعرف هذا الرجل العظيم .

وقد أبى القدر إلا أن يكون أزواج أخواتى الثلاث ، أصدقاء لى ، لا مجرد أصهار ، وأن يكون اثنان منهم من المدرسة الوطنية التى أنتمى إليها ، وأن تنشأ الصداقة بينى وبين أكبرهم ، وهو زوج أختى الكبرى ، والفارق فى السن بينى

وبينه ، يكاد يكون ربع قرن من الزمان . ومع ذلك استطعنا أن نتبادل الأحاديث ، وأن تتقارب أمزجتنا ، حتى يزول فارق السن ، فلا يعود أحد منا يذكره .

ولما كان أبي مهندساً للري كثير الغياب عن بيته لفرط حبه لعمله من جهة ، ولأن والدتي آثرت أن نعيش في القاهرة نتعلم في مدارسها وننشأ في أحيائها ، على أن نصحب والدنا في مراكز الصعيد التي تنقل بينها من الجيزة إلى سوهاج مركزاً مركزاً — فقد كنت ممثل الأسرة ، ورجلها حينما خطبت أختي الكبرى إلى زوجها ، وهذا منحني قدراً مبكراً من الثقة بالنفس أعانني على أن أنظر إلى نفسي ، على الرغم من شدة ميلي للحركة والركض والقفز وكرة القدم والملاكمة كأني رجل ، دون اصطناع الوقار ، أو ادعاء المكانة .

أما زوج أختي الوسطى ، فقد تقدم لخطبتها وأنا تلميذ في مدرسة أسيوط الثانوية أشرف على تحرير مجلتها التي كانت آن ذاك أولى مجلات المدارس الثانوية ، في ريف مصر وصعيدها معاً ، وقد نسجت في تحريرها وتبويبها على منوال صحيفة المدرسة الخديوية في القاهرة التي كانت زعيمة المدارس الثانوية في الرياضة والفنون . فإذا بي أظفر في شخص هذا الصهر الجديد بصديق يختلف في كل شيء ، وعن زوج أختي الكبيرة :

فقد كان أولهما رجلاً جادًّا رصيناً ، لا يكف عن القراءة ، حصل على شهادة البكالوريا مرتين ، واحدة للقسم الأدبي ، وأخرى للقسم العلمي ، وحصل على الليسانس مرتين ، مرة من مدرسة الحقوق ، وأخرى من مدرسة المعلمين العليا ، في حين كان الثاني طفلاً مرحاً ، لا يستقر في مكان صاحب صوت جميل ، ولكنه لا يتم أغنية ، يضحك ، من أعماق قلبه ويحب أهله وذوي قرابته ، وأصدقاءه ،

ولا يطيق استماع كلام أحد إلى آخره ، وهو لا يروى لأحد قصة كاملة وإنما ينتقل من شيء إلى آخر ، ومن نبأ إلى خبر ، ومع ذلك يحب مهنة المحاماة التى كانت مهنته ويحيط بقضاياه ، من قراءة سريعة خاطفة ويترافع فى طلاقة دون جهد ولا عناء . يكتب بخط جميل مقروء كلاماً حسناً يطلقه على سجيته . ثم لا يكربه هم ولا يشغله الغد ولا تهمه الشئون العامة فى قليل أوكثير .

وكان إذا جاء يوم الخميس من مدينة طهطا حيث كان يمارس عمله انتزعنى من كتبى . ولوكنت على أبواب الامتحان ، لا يهمه أن أنجح أو أسقط ، وأهرب منه فلا يكف عن التماسى فى كل مكان حتى يجدنى . وقد أوشكت فعلاً أن أسقط فى امتحان شهادة الكفاءة وهى تساوى الآن شهادة الإعدادية ، لانشغالى طول السنة بمجلة المدرسة وجمعية الخطابة فيها ، ولانشغالى فى الأسابيع الأخيرة من السنة ، بصهرى العزيز ، وصور مرحه التى تنسى الإنسان همومه ووساوسه . وتنتزعه من مخاوفه وهواجسه .

أما أختى الصغيرة ، فقد كان زوجها قريباً لى من جهة ومن جهة أخرى زميلاً لى فى مصر الفتاة وفى الحزب الوطنى ، وكان نموذجاً يخالف عديليه ؛ فقد كان سليل باشوات ، عن طريق أمه وأبيه : جده الأعلى باشا ، وجداه ظفر كل منهما بالباشوية فى العهود الخديوية ، وتركا لأبنائهما وبناتهما آلاف الأفدنة . فى عشرات العزب والضياع فى أكثر من محافظة ، ولكنه خرج من هذه الألقاب ، وتلك الثروات فلاحاً بسيطاً ، غنيا بمواهب لا عد لها ، فقد كان مصوراً باليد والفوتغرافية نجاراً ، تخرج من تحت يده قطع الأثاث الفاخر ، صياداً يصطاد الطائر المحلق فى أجواز الفضاء ، وهو يحمل بندقيته بيد واحدة ثم يصف عشرات الزجاجات فيصيب أعناقها الواحدة إثر الأخرى بقذائف بندقيته لا يخطئ واحدة منها ، ثم هو نحال

لا يباريه فى العلم بالنحل ، بالمطالعة والتجربة نحال محترف آخر ، ثم هو عالم بالزراعة العلمية ، وهو آخر الأمر ، صامت متواضع يجلس بين الناس يستمع إلى أقلهم علماً ، وكأنه لا يعرف فى الحياة شيئاً ، يحب بلده ، إلى درجة العبادة . فى حرب السويس ، حينما صار الإنجليز على مقربة من الإسماعيلية ، أخذ أولاده وعدداً من الفلاحين ، وربض ومعه بندقيته ، تاركاً أرضه وزراعاته ، فقد كانت عزبته فى طريق الإنجليز من بورسعيد إلى القاهرة .

وقد يعترض معترض فيقول هل الحديث عن أخواتك أو عن أزواجهن؟ والجواب حاضر ، فقد كانت علاقتى بهؤلاء الرجال ، صدى لصلتى بزوجاتهم ، وأنى أترك نفسى على سجيتها فى هذه الذكريات ، لا ألزمها خطا حازماً ، وإلا فقدت تلقائيتها وبساطتها ، وأصبحت بحثاً أدبيا ، لا صورة نفسية ، لصبى ، يعيش فى بساطة السنوات الأولى ، بغير تكلف أو اصطناع .

وقد جرى فى دم أخواتى الثلاث ، حب بلادهن والانشغال المقيم المقعد بشئونها العامة ، فقد ورثن ذلك عن أمهن ، وبقى هذا الهوى معهن حتى توفى الله كبراهن وصغراهن ، ولكيلا تحسب أن ما أقوله عنهن ، من قبيل تعصب الأخ لأخواته ، فإنى سأروى لك شيئاً عن آخر ذكرياتى عن آخر أيام أختى الكبرى التى اختارها الله لجواره ، منذ عام وبعض العام . فقد أصابتها علة القلب . وكان يعودها ، طبيب قلب شاب ذاعت شهرته ، وأعنى به الدكتور حمدى السيد ، فقد أخبرنى صديقى المستشار إبراهيم حسنين حلمى أنه سمع من الدكتور حمدى ذاته وصفاً لدهشته لما كانت تبديه أختى ، وهى تعالج سكرات الموت ، من الحرص على التعليق على شئون مصر وما يجرى فيها ، كأنها فى أتم صحتها وكأن العمر ممدود أمامها . ولقد كان من أولادها من غرق فى السياسة إلى أذنيه ، واختار بين دروب

العمل العام وسبله ، أشدها خطراً . وأكثرها اتصالاً بالسجون والمعتقلات ، فبقيت أختي حريصة على أداء واجبها نحوه ، لا تشكو ولا تتململ ، ولا تحاول أن تثني عزمه ولا أن تطلب منه الرأفة بها أو التخفيف عليها . بل إنها لم تلجأ إلى ، وابنها يزج به إلى السجون والليمانات وينفى إلى أقصى الأرض ، وربما كان فى وسعى ، أن أخفف عنه ، ولست أنسى يوماً ، كنت متجهاً بسيارة الدولة إلى عمل فى حلوان فمررت فى طريقى إليها ، بليمان طرة ، وإذا بشقيقتى هذه – تغمدها الله بواسع رحمته وأسكنها فسيح جناته – على باب الليمان وفى يدها حقيبة ، لابد أنها كانت تحوى ملابس ابنها السجين ، ولمحتها فى هذه الحال ، والسيارة تمرق كالسهم ، فصدرت عنى أنة ، هزت نفسى هزا ، فالتفت إلى سائق السيارة وقد خَشى أن يَكونَ قد أصابنى مكروه فتجلدت وتماسكت ، وفى عينى دموع ، وقلت متصنعاً : «مررنا بمدافن هنا ، فذكرت عزيزاً ، لحده بها . .» فهز السائق الحاج عبد العزيز حسيب رأسه متظاهراً بالتصديق ، والطريف أن سائق هذا كان من أنصار الحزب الوطنى عرفته فى اجتماعات الحزب ، منذ ترددت على ناديه ، وأنا بعد طالب فى الجامعة ، ثم عرفت أنه اعتقل ، فى عيون موسى ، فترة من الزمن غير قصيرة لمجرد أنه زار منزل المرحوم حسن البنا ، ليعزى ذوى قرابته فى وفاته .

وقد أصابت أختى الكبرى الحمى الروماتزمية وهى بعد طفلة ، وخيف يومئذ على حياتها ، فقد كادت تصل هذه الحمى الملعونة إلى قلب أختى ، فلما تزوجت كان والداها مشفقين عليها غاية الإشفاق من الحمل والوضع وتربية الأولاد ، وما يقتضيه كل هذا من سهر وجهد ، ولكن مضت حياتها الزوجية ، ميسرة ، وكان أولادها جميعاً أصحاء البدن ، والأعصاب . ولم أسمع طوال عمرها أنها شكت حتى من زكام ، فالمرض الوحيد الذى عانت منه ، هو المرض الأخير ، أو قل هو

المرض الأول ، الذى اتصل بالوفاة ، وقد واجهت الموت ، كما فعلت أختها الصغرى ، ووالدها قبل أختها فى شجاعة وعدم اكتراث إلى حد أنها كانت تمازح طبيبها ؛ وهو يكتب الدواء ، ويشرح سبيل العلاج قائلة : وفيم هذا الجهد كله ، ولا نفع منى لأحد ، وقد بليت أعضائى . حتى بات كل منها فى حاجة إلى ترميم وترقيع ! » . ولعلى لم أعرف فى حياتى إنساناً رجلاً كان أو امرأة ، فى مثل صفاء طبع ، وسلامة مزاج أختى الكبيرة ، فقد مضت سنوات حياتها متصلة دون أن أراها ، ولو للحظة غاضبة من شىء أو من شخص ، ولم أسمع طوال هذه الحياة ، منها لفظة واحدة ، تجرح أو تسىء .

وعلى الرغم من وداعتها ، وسعة صدرها لم تعرف التردد ، ولم يطف بها طائف من ضعف ، فى أحلك الساعات فقد كنت معها حينما ماتت أمى ، وحينما مات أبى ، وحينما فارقتنا أختنا الصغرى بعد مرض وبيل هو بين الأمراض أشدها قسوة ، وأفدحها ألماً ، ثم رأيتها حينما فقدت زوجها ، فكانت دائماً هى هى . ثابتة الجنان ، هادئة النفس ، لا ينالها اضطراب ، ولا تند عنها صرخة ، ولو خافتة ، وفى قلبها من الحزن ما فيه .

ولقد تعلمت أختى فى سنى حياتها المبكرة بفرع مدرسة « فكتوريا » فى مدينة المنيا ، حينما كان يعمل أبى فيها مهندساً للرى . ثم تلقت نصيباً أكبر فى مدارس القاهرة ، ولكنها لم تواصل تعليمها ، وتولت تثقيف نفسها ، وفى تلك السنين المبكرة ، تلقت بعض دروس فى « البيانو» . ولكنها انقطعت عن هذه الدروس وإن بقيت فى شوق دائم إلى معاودتها واستئنافها ، إنها لم تكن تقع فى حيرة لفترة . أو يشرد ذهنها لسبب من الأسباب حتى ترى أصابعها تؤدى دوراً من أدوار البيانو القديمة على ظاهر يدها ، أو على علبة الكبريت أو على المنضدة التى تقف أمامها . وقد كنا نمازحها

ونداعبها بسبب هذه اللازمة التى لا تفارقها ، وفى ذات يوم ، أصدرت وأنا تلميذ فى المدرسة الثانوية مجلة «عائلية» كان من بين أبوابها باب «فى المرآة» وكانت هى موضوع هذا الباب ، فى العدد الأول فصورتها فيه بقلمى الساذج ، وداعبتها ما شاء لى أسلوبى الصبيانى من الدعابة لأدوارها الموسيقية التى تعزف فى الهواء ولغير جمهور ، وبلا (نوتة) .

وكان الفارق فى السن بينى وبينها وأنا صبى قد جعل علاقتى بها خالية من الأزمات الحادة التى انتابت علاقتى بأختى اللتين تصغرانها» ولكن حدث أن ضايقتها يوماً ، فربطتنى إلى عمود السرير ، لتقييد حركتى ، التى لم تكن تهدأ قط ، وبقيت زمناً طويلاً لا أعفيها من غضبى لهذا العقاب المهين الذى لم يجرؤ عليه أحد غيرها ، ولما كانت جدتنا لأمنا سيدة قصيرة ، فقد حسبت أن مصير السيدات حين يكبرن أن تقصر قامتهن ، فتوعدتها بأنى حينما تكبر ، وتقصر. سأعاقبها بمثل ما عوقبت به ، وتداولت الألسن فى الأسرة هذا التهديد الصبيانى ، حتى إذا زفت أختى إلى زوجها ، وقد لبست ثوب العرس وجلست إلى جانب عريسها نادتنى ، فاقتربت منها فقالت وهى تضحك : أمصر أنت على أن تثأر لنفسك ، أم أنك سامحتنى ! » . وعرفت يومها أنها «دبلوماسية» موهوبة ، فقد أحسنت اختيار اللحظة . ففى المناسبات السعيدة ، تصدر الدولة قرارات العفو عن المذنبين ، فقلت ودموع الفرح ، تنساب على خدى : «لقد عفوت عنك ، ولا فضل لى ، فقد علمت أنك لن تقصرى مهما كبرت» فضحكت وقالت : «لقد خدعوك ! . »

ولقد عرفت الأبوة قبل أن أتزوج وأرزق الأولاد ؛ فقد كان أولاد أختى بمثابة أولادى ، أحببتهم ، وقد كان أكبرهم ، يقضى معنا ، ولا سيا فى فترة الإجازات وقتاً غير قصير ، ولا أنسى أنى قضيت فى صيف إحدى السنوات ، شهراً فى

الإسكندرية ، وكانت سيدى بشر ، مصيفاً بدائيا ، أقيمت فيه عشش شبيهة بعشش رأس البر ، وإن لم تبن من البوص المعروف «بالكياب» . فصحبت أكبر أولاد أختى إلى هذا المصيف ، واشتريت له قرعتين من القرع الإسطمبولى لتحملاه فوق سطح الماء ، وانتظر إخوته أن تأتى عليهم نوبة السفر إلى الإسكندرية فلما طال الانتظار خشوا ألا ينالهم حظ السفر فقرروا أن يؤدوا الصلوات الخمس ، ليدعوا فى أعقاب كل صلاة أن تصلهم الدعوة المرجوة وكان أحدهم لا يعرف من الصلاة إلا حركاتها الظاهرة من ركوع وسجود ، فكانت صلاته دعاء واحداً وبسيطاً ومكرراً : يارب أسافر إلى الإسكندرية . ثم يركع ، يارب أسافر إلى الإسكندرية ، ثم يسجد . . فلما لم يستجب لدعائِهِ لم يصل بعد ذلك .

أما أختى الوسطى فقد كانت رائدة السياسة فى عائلتنا ؛ فقد كانت تلميذة فى المدرسة السنية ، وكانت هذه المدرسة فى فترة اندلاع ثورة ١٩١٩ ، هى كبيرة مدارس البنات الحكومية ، وقد كانت أختى أولى بنات فصلها ، فلما قامت الثورة ، كبر عليها أن يكون دور زعيمة المدارس ، دور المتفرج بحجة أنها مدرسة بنات ، فوقفت بين زميلاتها ، وخطبت فيهن ، خطبة ، تدعو إلى الجهاد ، وكانت تحفظ من شعر حافظ إبراهيم الوطنى ، ومن الأناشيد . ما ضمنته خطبتها ، فإذا بها ، تبرز بين زميلاتها خطيبة لا يشق لها غبار ؛ ونجحت دعوتها ؛ واقتحمت الفتيات وراء زعيمتهن باب المدرسة وأزحن من طريقهن الناظرة الإنجليزية الحازمة «مس كارتر» وانطلقن إلى الطريق العام يهتفن بالعربية والإنجليزية معاً ، لمصر وللاستقلال التام ، وبسقوط الاحتلال والإنجليز .

كيف فعلت هذه الزعيمة التى لم تر مظاهرة ، ولم تر خطيباً ولا خطيبة ؟ وكيف أطاعتها جموع تلميذات المدرسة ؟ وكيف لم تخش هذه الجموع الناظرة التى كان

كلامها قانوناً ، وصوتها مرهوباً وشخصها مخوفاً ؟

إن ذلك كله وحى الفطرة الإنسانية .

وحى الفطرة الإنسانية السليمة بلا شك

وطردت أختى الزعيمة من المدرسة ، فبقيت أياماً فى المنزل ، ننظر إليها ، وتنظر إليها زميلاتها ، وجيراننا ، باعتبارها شخصية سياسية ، تستحق الإعجاب ، وتشبه– فى محيط الأسرة– الزعماء الذين نفوا إلى مالطة فى محيط الأمة .

ولكن الإنجليز ، قوم مرنوا على ملاينة الشعوب حين تثور ، لا ليعطوا الشعوب ما تطلب ، بل ليستديروا حول الحركة الوطنية الثائرة الهائجة بحثاً عن نقطة ضعف فيها ، فينفذوا إلى صميمها ويضربوا الثوار بعضهم ببعض ، وفى أكثر الحركات التى تقوم فى البلاد التى طال عهدها بالاحتلال يجرف التيار الوطنى العنيف المتدفق فى وجهه بعض الذين لا يؤمنون بالحركات الوطنية ، ويحسبونها جنوناً مدمراً ، واندفاعاً وخيم العواقب ، وهؤلاء يستجيبون لمغريات المحتلين ، ولا يلبثون حتى ينقلبوا على الحركة ، فتقع فى صفوفها الفرقة

وجريا على هذا الأسلوب عفت السلطة عن الطلاب والطالبات الثائرين والثائرات وأعادوهم إلى المدارس مقابل وعد شفوى من ولى الأمر ومن التلميذ بألا يشارك فى الاضطرابات مرة أخرى ، وقد عادت أختى كغيرها ، ولكن المظاهرات اجتاحت مصر مرة أخرى ولم تستطع أختى الزعيمة أن ترى أمواج البحر تدعوها ، إلى إلقاء نفسها فى عبابه ، ثم تمنع نفسها من تلبية الدعوة ، فما لبثت أن رأت نفسها على رأس تلميذات المدرسة ، وإذا بالشعر يتدفق على لسانها ، وإذا هى خطيبة تثير الحماسة ، ثم تندفع إلى باب المدرسة العتيق والثقيل ، فيفتح ، وتجرى ناظرة المدرسة وراءها وتمسك بثوبها من أعلاه عند ظهرها ، وتقول لها بالإنجليزية :

«تذكرى وعدك» فترد عليها أختى وهى فى أعلى درجات الحماسة : «وطنى قبل وعدى» . وتتلقف البنات هذه الكلمة ، وكأنها قول مأثور ، فيصحن : «وطنى قبل وعدى» . وربما أفاءت عليهن اللحظة وحيها فقال : «لا وعد لمن لا عهد له . . لاعهد مع أعداء الوطن» .

وعادت أختى مرة أخرى إلى البيت ، وقد زاد قدرها كزعيمة ، حتى هدأت الثورة وقبض على مؤجج نارها ، ومنظم ثوارها . عبد الرحمن فهمى ، ثم سيق إلى المحكمة العسكرية البريطانية وأطلق سراح الزعماء الباشوات الذين قضوا فى مالطة شهراً واحداً ثم ذهبوا إلى أوربا ، حيث أقاموا فى أكبر فنادق باريس ولندن يفاوضون ملنر ، وممثليه عامين كاملين ، وانقسم المصريون إلى سعديين وعدليين . وقيل عن الأوائل متطرفون وقيل عن الأواخر معتدلون ، ولم ينقض على هذا الحلف ، إلا عامان حتى عاد الجميع فى عهد الائتلاف يفاوضون ويكون على رأس المفاوضين معتدل ، هو عبد الخالق ثروت ، فى حين أن الأغلبية رفضت منذ سنتين فقط أن يفاوض الإنجليز هذا المعتدل نفسه . ضاعت الثورة وهدأت الأمور وبدأت لعبة الكراسى فى الانتخابات والوزارات ، ثم استمرت نحو ثلاثين عاماً . لا يصيب صدور الإنجليز خلالها من رصاص الوطنيين ، إلا ما صوبه تلاميذ الحزب الوطنى : الصوفانى والدكتور شفيق منصور ، حتى إذا ما أعدمت هذه الكتيبة المقاتلة ، تلقف العلم منها ، شباب الحزب الوطنى الجديد حتى قامت ثورة سنة ١٩٥٢ .

ولكن بعد أن وصلت أختى إلى مرتبة الزعامة : أصبحت فى البيت مجرد شقيقة لصبى : رذل استغل فيها أعظم فضائلها . فضيلة الحياء وراح يطاردها . ماتقول شيئاً ، ولاتصدر عنها حركة ، أو تمشى فى المنزل أو فى الطريق ، مجرد المشى الذى يمارسه كل الناس ، إلا سخر منها ، بالقول والإشارة ، فإذا فعلت ذلك ، حزنت أشد

الحزن ، وضاقت فى وجهها الدنيا ، وأنا أواصل هذا العمل الشيطانى القبيح . ولم يدر بخلدى يومها أن أفكر . لماذا أوجه هذا العدوان لأختى التى تكبرنى مباشرة ، أو التى تكبرنا جميعاً ، والعادة بين أبناء الأسرة الواحدة . أن يكون ما يسمى « بالنقار» على أشده بين من كانوا « فوق رأس بعض » أى الذين يتتابع ترتيبهم بين الأبناء ذكوراً كانوا أو إناثاً ، ولكن حينما كبرت أدركت تفسير ذلك ، فأختى الكبيرة تزوجت قبل أن أشب تماماً عن الطوق فخرجت من حلبة المنافسة ، وأختى التى تكبرنى مباشرة ، كانت سريعة الغضب ، نشيطة اللسان ، ميالة إلى العنف ، وكانت الرفيقة الوحيدة المتاحة أمامى لتؤنس طفولتى وصباى ، ولذلك فقد اضطررت أن أعقد معها محالفة عدم اعتداء لأنجو من بطش يدها ولسانها ، ثم أصبحت المعاهدة معاهدة حسن جوار ثم استحالت إلى معاهدة حماية وتبعية . فلم يبق أمام ميولى العدوانية ، التى ثبت أنها جزءمن كل نفس ، ومن نفس كل صبى على وجه خاص ولاسيما من كان مثلى فى صباى كثير المرض ، شديد الحساسية ، متأجج الخيال ، مشمولا بالتدليل المسرف حيناً وبالتأديب المسرف حيناً آخر ، ولكن حينما تقدم بى العمر ، عرفت أن أختى فوق كونها عظيمة العقل ، سريعة الحفظ . مثالية المسلك ، فنانة ترسم بالفحم والقلم الرصاص ، الشخصيات رسماً أنيقاً ، ولكم وددت أن تجد من أبيها ، وهو مهندس عناية بموهبتها ، ولو واتاها هذا الحظ ، لكانت حساسيتها المفرطة ، وعصبيتها الشديدة ، موردين لا ينضبان ، لفنانة ، تزداد على الأقل نضجاً ، وقد عرفت شاباً من هواة الرسم ، فسألته عن شيء يثبت الصور الفخمة ، ومازلت أذكر أنه أرشدنى إلى مادة اسمها الفكستيف ، عرفت فيما بعد أنها الترجمة الحرفية لكلمة مثبت . وقد عقدت العزم ، على أن أشتريها لأختى ، ولكنى لم أفعل ، وفى ساعات الصفاء ، كانت أختى ترسم لى خرائط

الجغرافيا ، ومايطلب منى من واجبات الرسم ، فكانت كراسة الخرائط الخاصة بى متحفاً ، يتفرج عليه الزملاء ، ويقدمها مدرس الجغرافيا مباهيا بها عند مفتش الجغرافيا حين يمر على فصلنا ، أما كراسة الرسم ، فقد كانت ملتقى للنقائض ، فما أرسمه فى حجرة الدرس ، لا يمكن تبين حقيقته ، فإذا طلب منا أن نرسم قلة أو وردة ، أو تفاحة ، اختلطت الأمور على الرائى . فلم يعد يعرف : هل رسمت حيواناً أو فاكهة أو نحلة ؟ فإذا طلب منا أن نرسم شيئاً فى المنزل ، وضعت الكراسة تحت نظر أختى ، وأحسنت علاقتى بها ، وحبست لسانى عن النقد اللاذع ، وضبطت تقاطيع وجهى عن أن تعبر عن « الشقاوة » و« العفرتة » وظفرت بلوحة ممتازة ، والعجيب أن مدرس الرسم ؛ لم يستوقفه الفارق الرهيب بين رسم يصل إلى أقصى الغاية فى الإتقان ، ورسم يهبط إلى الحضيض فى السوء ولعله اعتبرنى فناناً ذا نزوات ، تصفو نفسى ، ويستجم خيالى ، فأتلقى الوحى صافياً ثم تضعف أعصابى ، ويتعكر مزاجى ، فأنتج أسوأ ما تخرجه ريشات الفنانين وأقلامهم .

وحدث ذات يوم وأنا تلميذ فى أسيوط الثانوية أن طلب منا مدرس الرسم — وكان ممن تعلموا الفن فى إنجلترا ، وهو المرحوم عبد الحميد الفوال — أن نرسم شيئاً مما كنا نرسمه فى تلك الأيام ، وفى الأغلب كان زيرا فوق حمالة . وكانت علاقتى بأختى مقطوعة آن ذاك ولم تنفع المحاولات الدبلوماسية لتحسينها فاعتمدت على نفسى ، ورسمت كالعادة بالطريقة « السريالية » قبل أن تغزو هذه الطريقة بلادنا . . وضاق المدرس بهذا العبث ولم يكن يدرى أن العبث سيصبح فنا قائماً بذاته تنحنى له الرءوس ، وتتسابق فى حلبته المواهب ، فأوقع بى عقاباً صارماً ، لم ينلنى مثله فى سنى الدراسة ، فقد حبسنى ستة أيام متوالية . كنت أبقى خلالها فى المدرسة بعد أن ينصرف زملائى . ولما كنت فى تلك الفترة من لاعبى الكرة — فيما يسمى

«السكندتيم» أى الفريق الثانى أو الاحتياطى ، فقد كنت أقضى فترة الحبس لاعباً ، وربما سجلت انتصاراً ، بإصابة الهدف ، أتلقى بعده التهانى والتصفيق ، وأخفيت على أختى تماماً أنها أحسنت الانتقام لنفسها ، حتى مضت السنوات ، ولم يعد لهذا الإخفاء معنى ، فأطلعتها على الحقيقة فتأثرت لى أبلغ التأثر ، ولامتنى إذ أخبرتها بما نالنى من وراء عدم تعاونها معى .

ومضت الأيام ، وتلقيت من محكمة جنايات القاهرة ، خطاباً يخبرنى فيه القلم الجنائى أننى ندبت لأترافع عن جزار قتل مفتش تموين بقسم مصر الجديدة ، وتصفحت على عجل اسم القاتل واسم القتيل ، فعلمت أن الجزار القاتل هو والد فنانة كانت فى بداية شهرتها عند وقوع الجناية اسمها الفنى «أميرة أمير» وأن القتيل هو مدرس الرسم الذى قسا على – مع أنه فنان – لمجرد أنى كنت من طلائع رواد السريالية فى مصر . فقد ندبته وزارة التموين من وزارة التعليم فأصبح مفتش تموين قسم مصر الجديدة .

فذهبت إلى رئيس محكمة الجنايات وطلبت منه إعفائى من الندب لأنى لا أستطيع أن أترافع عمن قتل أستاذى ، ولوكان هذا الأستاذ قد أنزل بى أشد العقاب بحكم أنى «سريالى» قبل الأوان ، وقبل رئيس المحكمة اعتذارى .

أخواتى الثلاث (٢)

قال الشيخ الذى نروى ذكريات صباه :

لما تزوجت أختى الوسطى شعرت أنا وأختى الصغرى ، بفراغ عظيم ، فقد كنا نؤلف نحن الثلاثة أسرة صغيرة ، وكنت قد انتهيت تقريباً من فترة « المكايدة » الشيطانية ، التى لقيت فيها أختنا الوسطى ، على يدى ، آلاماً مبرحة ، أسأل الله أن يعفينى مما أستحقه عنها من عقاب وعذاب .

ولكن لا يعنى هذا أن مضايقاتى الممجوجة قد انتهت تماماً ، فقد دخلت ونحن فى أسيوط الثانوية مرحلة الاهتمام بالأدب وأنا آن ذاك على رأس مجلة المدرسة وقد تلاحقت نذر أو بشائر اهتماماتى الأدبية والفنية ، وما يصاحبها عند الصبيان ، من خروج على مألوف الناس ، فى السير والحركة ، والعلاقة بالناس ، والاتصال بهم .

وقد كانت أولى ثمار هذه المرحلة الفجة ، التى لم يصقلها نضج ولا عمق ، أنى

وضعت مسرحية كاملة بعنوان « يوسف بلانكت الجميل » ، وكتبتها بخط مقروء . وعلى وجه من التنسيق والترتيب ، لم أعرفه من بعد ، فخطى كلما تقدم بى العمر ، زاد سوءاً ، وأصبح من قبيل الألغاز التى لا تحل ، والرموز التى لا تفهم ، كما أصبح كل ما أكتبه ، ضرباً من النشاط العصبى ، الناجم عن نفاذ الصبر ، وشدة القلق ، والرغبة التى لا تكبح ولا تضبط ، فى سرعة الإفضاء بما فى النفس وبما يجرى على الخاطر ، فإذا هدأت ، ونحيت ما كتبت جانباً ، وكأنى نسيته تماما ، عدت إليه ، وكأنى أتجزع دواء مرا ، لا يساغ ، فأهويت عليه بالقلم شطبا وحذفا ، وقلبا ، حتى تخرج الورقة من تحت يدى ، مثخنة ، وكأن عدوا لدوداً أهوى عليها ، بخنجر تمزيقاً ، وتمزيعاً ، حتى لفظت الأنفاس ، وفارقت الحياة ، لتبعث من جديد ، خلقاً آخر ، بعد حين يطول أو يقصر . .

فما بال مسرحية « يوسف بلانكت الجميل » قد نجت من عمليات المخاض والولادة العسرة فخرجت فى سطور متتالية متناسقة بلا حذف ولا إضافة ، ولا « شطب » ولا مسخ ، ولا تغيير ولا تعديل . وما بال الكلام ، متصلاً . مفهوماً خالياً من الاضطراب والقلق . .

وفكرة مسرحية يوسف بلانكت ، صغيرة لست أدرى من أين استقيتها ، وإن كان أغلب الظن عندى ، أنى وقعت عليها فى صحيفة أدبية ، تروى خاتمة حياة هذا الشاعر الأيرلندى الذى أحببته لا لشعره لأنى لم أقرأه ، ولا لشىء من ماضى حياته ، لأنى لم أقف عليها ، بل لهذه الخاتمة الرائعة التى قرأت حكايتها فى الجريدة أو المجلة . ثم « لأيرلنديته » أى لكونه من « إيرلندا » .

وقد كنت قد وقعت فى غرام مصطفى كامل ، وأنا بعد تلميذ فى المدرسة الابتدائية ، وكلما قرأت له شيئاً ، أو سمعت عنه نبأ ، أو رأيت له صورة أحسست

هذا الغرام ، يقوى ويستشرى ، ويتحول مع الأيام ، هوى مبرحاً ، لا غراماً لفكرة ، ولا هياماً بمبدأ ، فقد تجسد لى حبا للوطن ، وصورة من لحم ودم ، للفضائل الإنسانية ، وعلى رأسها التضحية ، وإنكار الذات والفناء فى العقيدة .

ثم بدأت فى المدرسة الثانوية أقرأ فصولاً متفرقة للكاتب والمترجم العظيم حسن الشريف ، فى مجلة الهلال ، عن الكفاح الإيرلندى وأبطاله ، «إيمون ديفاليرا» ، و«مايكل كولنز» و«آرثر جريفث» ، فبدا لى هؤلاء الأبطال ، وأعوانهم وتلاميذهم وأتباعهم ، فى حربهم المسلحة ضد البريطانيين والحكم البريطانى الآثم الظالم ، امتداداً لحركة الفدائيين المصريين ، تلاميذ مصطفى وفريد وشاويش والصوفانى ، من أمثال إبراهيم الوردانى ، وشفيق منصور ، وعبد الحميد عنايت ، والعامل العظيم «إبراهيم موسى» والحاج أحمد جاد الله ، ثم المجهولين أضراب محمد خليل «من المنصورة» ، ونظير و«محمد فهمى على» اللذين شنقا دون دمعة تسفك على قبرهما ، ولا كلمة وفاء ،

ولما كانت الفصول التى ترجمها حسن الشريف ، لا تروى تاريخاً كاملاً للحركة الوطنية الأيرلندية ، فقد كانت هناك ثغرات ، لا يملؤها إلا الخيال ، وقد توليت بالفعل ملء هذه الثغرات ، واستطعت بعد ذلك أن أخلق مسرحية من ثلاثة فصول ، من القطعة التى قرأتها فى الجريدة ، والتى روت كيف أن يوسف بلانكت ، شاعر الحركة الأيرلندية الوطنية ، حكم عليه بالموت ، وكانت تربطه علاقة حب بزميلة له فى الجهاد ، فقرر أن يعقد عليها قرانه فى السجن من وراء ظهر السلطات البريطانية العرفية ، مستعيناً فى ذلك ، بقسيس من أنصار الحركة الوطنية وقد بقى الشاعر ينتظر مقدم عروسه . فى صبر وقلق ، مشفقاً أن يسبقها الجلاد الذى سيسوقه إلى المشنقة ، ولذلك كان يعد الدقائق ومعه زميل له فى الحركة اسمه

« جان » ، يسأله كل بضع دقائق ، وأحياناً كل بضع ثوان ، «كم الساعة الآن يا جان؟ » فإذا أجاب الصديق والزميل : عقب الشاعر أجل . . أجل لم تبق إلا ثلاث ساعات . . وتتناقص الفترة الفاصلة بين الموت والحياة ، ويكرر الشاعر : أجل . . أجل . . لم تبق إلا ساعتان وخمسون دقيقة . . ساعتان وثلاثون دقيقة . . » ويدق باب الزنزانة ، ويظهر على عتبته الجلاد فيسقط فى يدى الشاعر ، ويعتقد أن الموت سيسبق القسيس وعروسه وعقد الزواج . . ثم يتضح له أن الجلاد ليس سوى زميل فى الحركة الوطنية ، ومن خلفه القسيس ومن خلف القسيس ، عروس الشاعر ، وتحسب العروس ، أن ذلك كله تمهيد وتوطئة ، لفرار رجلها من السجن ، وقد كانت لعبة الفرار من السجن ، لعبة يتقنها الأيرلنديون الثوار ، فما أكثر ما فر « ديفاليرا » من أعتى السجون ، وما أكثر ما فر « مايكل كولنز» من قبضة فرق المطاردة الإنجليزية ، موقعاً إياها فى الحيرة ، هازئاً بها ، ومثيراً لسخرية الصحف فى العالم كله ، من تدبيراتها المحكمة ، وخططها المتقنة . . ولكن هذه المرة لم يكن الفرار ممكناً ، ولم يكن باقياً للشاعر الثائر ، وعروسه ، إلا أن يعقد العقد ، ثم تصبح زوجته ، أمام الله والقانون فقط ، لساعة أو بعض ساعة ، ثم لا يلمسها إلا بقبلة على الجبين ، وتمضى هى إلى الحياة ، مجاهدة ، ويمضى هو إلى الموت شهيداً ، ورمزاً ، ومثلاً وذكرى !

ولما كانت هذه المسرحية هى باكورة إنتاجى ، ولم يكن هناك مسرح ولا فرقة ، ولا ممثلون فقد مثلتها على مسرح خيالى ، وأصبح المقطع الأول فيها هو العبارة التى أصابح فيها وأماسى أهل بيتى ، وبعبارة أدق أختى المسكينتين كم الساعة الآن يا جان . . «أجل أجل . . » ولقد كرهتا الساعة وجان والمسرح وأيرلندا ، وكرهتا صوتى ، وكل ما يتصل بى ولما تألفت الفرقة المسرحية ، فى مدرسة أسيوط الثانوية ،

دفعت بعملى المسرحى الأول ، إلى مدرس وقع عليه الاختيار ليكون المشرف على النشاط المسرحى ، وقد عرفت لفرط دهشتى أنه لم يشاهد طوال حياته مسرحاً ، وكان ينطق اسمه فى تلك الأيام مرسحاً ، ولم يكن يدرى من أين يبدأ عمله ، فلما تقدمت إليه بهذه المسرحية ، خيل إليه ، أن خاتم سليمان قد وقع فى يده ، وأنه ضغط عليه ، فأخرج له من الأرض عفريتا من الجان ، لم يحمل إليه عرش بلقيس ملكة سبأ ، كما فعل ، مع نبى الله سليمان عليه السلام ، بل حمل إليه ما هو أعظم – وقت ذاك – وهو مسرحية ، وأخذها منى ، وكأنه يختطف عقد شراء قطعة أرض بمائة ألف جنيه . . ولفرط لهفته ، ظن أن اسمى « رمضان » فراح يكرره ، ولم أرد أن أصحح له الاسم ، رغبة منى فى ألا يرجع فى قراره بأن تكون هذه المسرحية هى باكورة نشاط جمعية التمثيل فى مدرسة أسيوط ، عاصمة الصعيد ، الذى لم تكن ترى المسرح إلا كل بضع سنوات مرة ، لمدة ليلتين ، أو ثلاث على الأكثر .

وفى الصباح التالى ركبت دراجتى ورحت أنهب بها الأرض نهباً – إن كانت الدراجة تستطيع أن تنهب شيئا حتى لو كانت دراجة من صنع شركة « رالى » الإنجليزية الشهيرة – وما كدت أصل إلى المدرسة حتى انطلقت كعادتى فى تلك الفترة من حياتى – كصاروخ بشرى – سبق الصواريخ السوفييتية والصواريخ الامريكية إلى الوجود ، وقصدت حجرة مدرسى التاريخ والجغرافيا ، فاقتحمت بابها ، فارتاع المدرسون ، وأدرت عينى فى الحجرة بحثاً عن الأستاذ « إمام » لأسأله عن المسرحية ، ولخيبة أملى المروعة لم أجده ، ولم أظفر من هذه الغزوة إلا بكلمتى تأنيب لاذعتين من مدرس آخر يعرفنى ، بوصفى تلميذا نابهاً فى التاريخ ورئيساً لتحرير مجلة المدرسة أو مديراً لتحريرها ، لأن رئيس التحرير كان الدكتور محمود الشربينى العالم المصرى الكبير ، الذى أصبح عميداً لكلية العلوم .

ووقفت متفززاً متحفزاً على باب الحجرة ، حتى أهل الأستاذ إمام ، فى بطء وتثاقل ، وبرود ، فقد كان مثلاً للفتور . ونقيضاً لى فى الحجم والسن والطبع ، وكانت به لثغة فى حرف الراء ، فلما دنا منى نظر إلى ، وكأنه لم يرنى ، وقفز قلبى فى صدرى ، ثم دخل دون أن يلتفت إلى ، فلحقت به ، فسأل فى دهشة : فيه إيه ؟ فقلت له : الرواية ! » . ولم نكن آن ذاك نقول المسرحية . فقال : ووايه إيه ! يعنى رواية إيه ! فقلت له : الرواية التى سلمتها لحضرتك أمس ، فقال ، وكأنه يتذكر تاريخاً من عهد رمسيس أو مينا : آه . . هى دى . . وأخرجها من تضاعيف جريدة : فكادت تخرج عيناى حقا وصدقاً من وجهى : نعم . . قلت ذلك وأنا ألهث ، وقد تصبب عرقى ، لا من مجهود رحلة الدراجة ، بل من توقع للقرار التاريخى الذى سيصدره المدرس الفاضل : إمام . . ثم قال : اسمع . . فخيل إلى أن أذنى تداولتها الطبول والمدافع والرعود « الووايه دى » فكدت أصرخ الووايه قل ياسيدى برب السماء ، ثم قال : الرواية دى . . حلوة . . حلوة خالص . . بس أنت كتبتها صحيح ، ولم أسمع شيئاً إلا أنها حلوة . . حلوة خالص فقلت : حلوة . . خالص . . فقال الرجل مندهشاً ، لأنه لم يكن يعرف أن فى الدنيا كلها ما يدعو لهذا الانفعال فقال : وهو يقلب فيها - ويفتح صفحاتها وينظر هنا وهناك فى برود لا مثيل له : . «أنا يا يح » رايح لسعادة الناظى . . » وقام ووجدت أن هذا كلام يمكن السكوت عليه إذ حسبى من المجد أن تكون هذه المسرحية قد كتبت بخط مقروء ، لسبب مجهول ، وفى كراسة نظيفة ، وأن تكون قد وجدت مدرساً بمدرسة ثانوية قد قرأها ، وقال شهادة جيدة فى حقها - ثم أضاف : آنا ذاهب من أجلها لناظر المدرسة ، لناظر المدرسة الثانوية الأولى فى الصعيد كله ، فلم تكن مدارس بنى سويف والمنيا وسوهاج وقنا ، قد أنشئت بعد ، ولما انقضى اليوم المدرسى - لست

أدرى كيف– ذهبت إلى البيت ، لكى أصرخ هذه المرة ، ولى كل الحق : «كم الساعة الآن يا جان» ؟

وعرفت أختاى هذا الحدث المروع الذى وقع فأدركتا أن عذابهما سيزيد ضعفين ، فقد كنت أطاردهما بهذه الجملة اليتيمة ، وأنا مؤلف مسرحى ، غير معترف به ، فماذا سيحدث لهما وقد اتصلت مسرحيتى بالسلطة . .

ولست أريد أن أروى لك قصة هذه المسرحية التى لا يزال نصها تحت يدى كاملاً فى الكراسة النظيفة . . بالخط المقروء ، وبالحبر الأزرق ، إنما أريد أن أقول لك ، إن زواج أختى الوسطى ، كان إيذاناً ، بنجاتها من هذه الجملة الممقوتة ، التى كانت بدورها عنواناً على عدد من السخافات التى أطاردها بها ، والتى كانت لا تحتملها إلا بمشقة . . فلما جاء يوم السفر ، سفرها إلى بيت زوجها ، اختلطت فى نفسى مشاعر من السرور والفراغ والحزن ، لم أشعر بها مجتمعة من قبل ، . . ولست أود أن أسترسل فى وصف الأحداث التى جرت بعد هذا السفر ، لأن موضع ذلك سيكون بإذن الله حينما أتحدث عن شبابى ، ولكنى أريد أن أجتزئ بشىء من حياة أختى بعد الزواج ، لأنى بسبيل تقديمها ، كنموذج إنسانى ، ولا يكمل الحديث عنها بهذه الصفة ، إلا إذا رويت للناس ماذا فعلت فى بيت زوجها مما يستأهل أن يذكر فى كتب علم النفس ، الذى يشغل به الناس كثيراً هذه الأيام . .

سافرت أختى إلى بيت زوجها ، وكان كما قلت ، فى الفصل السابق ، محامياً ، فى طهطا وسفره إلى طهطا– وهو من عائلة كبيرة بالشرقية– له قصة تستأهل أن تذكر . فقد تخرج فى مدرسة الحقوق قبل أن تكون كلية ، وكان له فى تاريخ تخرجه قريبان فى مدينة أسيوط ، أولهما خاله ، وكان رئيس محكمة ، والآخر زوج أخته وكان قاضياً . فاقترحا عليه أن يقضى فترة تمرينه فى المحاماة فى مدينة أسيوط حيث يعملان

كعضوين فى سلك القضاء ، فيجد من الرعاية لهذا السبب ما لا يجده فى مدينة أخرى ، ولوكانت الزقازيق عاصمة المحافظة التى ينتمى إليها . وكانت أسيوط فى ذلك الحين تحفل بعدد من أكبر المحامين الجنائيين ، كان منهم محمد على علوبة ، وتوفيق دوس ، وكان يأتى بعدهما من الجيل الأصغر سنا عدد من المحامين الموهوبين فى مقدمتهم إبراهيم ممتاز وحامد جودة . وحامد جودة . كان محامياً جنائيا فريداً إذ لم تكن قدرته كمحام مصدرها البلاغة وحسن العبارة ولطف الأداء ، ولكن كان مصدرها علمه التام بأخلاق الريفيين ، وبفنِّيات الجريمة ، فقد كان الشائع عنه ، أنه يدرى من أمر قاطعى الطرق فى منطقته ما لا يعرفونه عن أنفسهم وأنه كان يعرفهم بالاسم كأنه واحد منهم ، وبعض خصومه فى المنطقة ومن الأحزاب المعارضة . كانوا يقولون إنه منهم بالفعل ، وقد كان من حظ زوج أختى أن يتمرن فى مكتب هذا المحامى « الفحل » حقيقة لا مجازا ، ولما كان لحامد جودة مكتب فى مدينة طهطا ، فقد كان يوفد زوج أختى ليباشر القضايا فيها عنه ، ثم رأى آخر الأمر أن يترك له المكتب هناك .

ولكن المحاماة مهنة تحتاج إلى المثابرة والانقطاع والتفرغ ، فإنها لا تدع للمحامى وقتاً ليستريح فيه ، ويستجم : فى الصباح فى المحكمة وفى المساء فى المكتب ، وفى الليل لقراءة الأوراق ، وإعداد المذكرات ، حتى أيام العطلات فمخصصة للاطلاع ، والمحامى الناجح دائم الأسفار ، وهو كالطبيب يطلب أحياناً فى الليل البهيم ليحضر تحقيقاً فى جناية ، وقد يستمر فى عمله حتى الصباح التالى ، ثم يصله فى اليوم الذى يليه ، وزوج أختى خلق للمحاماة من جهة ، ولم يخلق لها من جهة أخرى ، خلق لها لأنه يحبها ، ويحب جوها ، ويحب الجلسة والمرافعة والتحقيق ، ولأنه لا يلقى عناء فى قراءة أوراق القضايا والاطلاع على ما فيها تعينه فى ذلك ذاكرة

قوية ، ولا عناء فى شرح أفكاره ، يعينه لسان خال من العيوب وكان محبباً إلى نفس القضاة ، يودونه ويستخفون ظله ، ويثقون فى أمانته وعفته وبعده عن هجر القول وفحشه ، ولكنه لم يكن يطيق البقاء فى مكانه دقائق متصلة وكان يعوزه الجلد على سماع الموكلين ، والاتصال بهم ، على الرغم من حبهم له ، وحرصهم على توكيله ، يبحثون عنه فى المكتب ، فيجدونه فى المحكمة ، يلتمسونه فى المحكمة ، فيسمعون أنه فى النادى ، فإذا هو فى الطريق ، يلاطف هذا ويداعب ذاك ، فإذا جاء المساء فهو فى النادى ثم عند هذا الصديق من الأعيان ، ثم عند غيره ، ثم عند ثالث . فإذا انتهى من طوافه ، أوى إلى فراشه ، قرير العين ، هادئ النفس ، كأنه أدى واجبه ، وأراح ضميره ثم نام . . ولم تكن معالجة هذا الطفل الكبير ، الذكى اللطيف المحبوب ، أمراً هيناً ، فلقد عاش طوال حياته يضيق بالنظام والقيود والمواعيد ، وكان كل ذلك يجنى على مواهبه ويبددها ، فتتناوله أختى بالرفق ، وراحت تبدل فيه ، وتعدل . وكان يعينها فى هذه المهمة الشاقة سعة صدر ، ثم إنها أحبت البلد وأهلها وعرفت الموظفين فيها والأعيان وموظفى مكتب زوجها وأقاربهم بالاسم والرسم ، حتى أصبحت واحدة من أهل طهطا وما حولها ، وبقيت تحبها وتحب أهلها وتذكرهم ، ويحبونها ويذكرونها ، وعلى سبيل المثال فإن جميع تجار الفاكهة الصغار والكبار من مركز طهطا ، لما كانت تقابلهم فى القاهرة والإسكندرية ، تذكرلهم أسماء القرى والأسر ، فيحسبونها من أهل طهطا . حقًّا : الأقباط ينسبونها إلى أسرة من أسر الأقباط ، على سبيل التخمين ، والمسلمون ينسبونها إلى أسرة من أسر المسلمين على سبيل الحدس ، وهى لا تصحح ، وتقبل النسبة فى الحالين وتضحك . . وإذا مر بنا بائع فاكهة جائل ، دون أن تناديه أختى وتسأله على أهله فى طهطا ، يداعبها من يكون فى صحبتها آن ذاك قائلاً : لماذا

أفلت هذا من سؤالك وكلامك » .

وتعلم زوج أختى الاستقرار فى المكتب قليلاً ، ثم أحبه كثيراً . ثم عرف كيف يقابل الموكلين ويطيل صبره عليهم ، فكثر عمله ، فلما زاد رزقه ، وأصبح شخصاً آخر ، وقبل أن يجنى ثمار هذا النجاح ، اختير ليعمل فى القضاء ، وقبل أن يطول عهده بالقضاء وافاه الأجل المحتوم فى مقتبل العمر ، ولم يكن قد رزق من الذرية ولداً أو بنتاً ، وكانت وفاته صدمة لأختى مروعة ، ولكن كأنما أراد الله بهذه الصدمة أن يكشف عن الدور الذى خلقها له ، فقد تفجرت فى نفسها ، ينابيع رحمة ، ارتفعت بها عن مستوى مثيلاتها من السيدات اللواتى امتحنهن الله بالترمل فلم تكد تفقد زوجها حتى فقدت والدتها ، فعاشت مع أبيها ، وكأنها أمه وأخته وابنته ، ولكن لم يكن هذا كافياً لتروى جوعها المتجدد إلى فعل الخير ، فى صوره المتعددة ، ولست أود أن أحرج تواضعها ، فأورد شيئاً من هذه الصور ، وإن كانت الغاية أن أرسم للناس صورة إنسانة . فى غير تزيد ولا مبالغة . ولكن يكفى أن أذكر أن القدر ساق لها أفراد أسرة ريفية ، فقيرة فقدت الأم ، وكان من بين أعضائها بنات فى سن الطفولة ، فاعتبرت نفسها أمهن جميعاً ، ولم تقنع بإيوائهن ، بل علمتهن حتى تزوجت إحداهن طبيباً فى الأردن ، واحتملت فى سبيل تنشئتهن وإعدادهن للحياة من أذى الناس ، ونقد بعض ذوى قرباها ممن كبر عليهم هذا الإسراف فى الحب والبذل الشىء الكثير ، ثم ذهبت كل فتاة فى حال سبيلها بعد أن تزوجن جميعاً ، وأختى لا تشكو ولا تتبرم ، بل لا تذكر من كل هذا لا قليلاً ولا كثيراً . ودعت أختى ، صديقات لها ، لتعمل معهن فى ميدان العمل الاجتماعى التى كانت تمارسه بعض الجمعيات النسائية ، فلبت الدعوة فى صمت ودأب ، دون أن تنشر لها صورة ، أو يذكر لها إسم ، وقد سافرت من أجل هذا اللون الجديد من النشاط فى

الداخل وفى الخارج ، فى غير ادعاء ولا تفاخر .

ولكن كل هذا مما يمكن أن تقدم عليه ، سيدة أخرى ، أما الذى يتردد أمامه الرجال والنساء على السواء فهو المجازفة التى يكون الثمن فيها ، السجن والأشغال الشاقة ، ولكن أختى لم تتردد لحظة ، فى أداء ما اعتبرته واجباً إنسانيا قبل أن يكون واجباً وطنيا .

لقد قرأ المصريون وشاهدوا مسرحية وفيلم « فى بيتنا رجل » وعرفوا من كل هذا أن « حسين توفيق » بطل هذه الرواية لجأ إلى بيت الأستاذ إحسان عبد القدوس يومين أو ثلاثة ، كانت كافية لإلهامه بهذه القصة المثيرة ، ولكن لا أحد يعلم أن « حسين توفيق » ، لجأ بعد ذلك إلى بيت أختى أسابيع حتى أتيح له أن يفر إلى فلسطين ، ولقد أحسنت أختى كتمان مشاركتها فى هذه المجازفة الخطيرة . حتى على أنا نفسى ، فبقيت أجهل كلما زرتها أن « حسين توفيق » فى الشقة المقابلة لشقتها ، وهى شقة تملكها أختى الصغرى ، وتتركها طوال فترة الصيف ، إذ تقضيها مع زوجها وأولادها ، فى عزبة بالشرقية ، ولقد كانت الحكومة ، قد فرضت مكافأة قدرها عشرة آلاف جنيه لمن يرشد عن حسين توفيق . وكان العقاب لمن يأويه بوصفه مرتكباً لجريمة قتل عمد مع سبق الإصرار ، مصحوبة بجنايات أخرى فادحاً . ونحن نهينها إذ نقول إن هذه المكافأة لم ترد لها على خاطر ، لأن الطاهى الذى كان يعمل عندها وهو المواطن الفاضل أحمد محفوظ ، لم تغره هذه المكافأة حينما دخل يوماً إلى الشقة المقابلة للشقة التى يعمل بها ، ليرى نفسه وجهاً لوجه أمام حسين توفيق ، أى أمام عشرة آلاف جنيه ، كاملة ، فأغلق الباب وراءه فى صمت ، وفى اليوم التالى ، ترك العمل عند أختى لعذر انتحله خوفاً من أن يكون وجوده إلى جانب حسين توفيق مغرياً له بالانزلاق . . وأحسن الله إليه ، وكافأه على هذا الخلق

السامى ، فقد اتجر فى البقالة ، فدرت عليه هذه التجارة أخلاف الرزق ، وأعانته على إحسان تربية وتنشئة أولاده ، فبارك الله له فيهم .

وبودى أن أطيل الحديث عن الأسابيع التى استضافت فيها أختى – بعلم والدها – رجلاً فارا من وجه القانون ، تتعقبه الشرطة والنيابة والسلطات كلها ، غير مبالية لا بخطر السجن ، ولا بخطر إغضاب السلطات ، وما يجره وراءه من متاعب ، إنما بخطر. تجفل منه ، وتخشاه كل امرأة وكل رجل فى العالم . وهو ما نسميه بالعامية البليغة : «البهدلة» . فأنْ يساق الإنسان إلى قسم . ويلقى به فى حجز ، وأن ينتظر على باب محقق تحرسه جنود ، تأمرهم القوانين بالشدة والغلظة والجفوة ، ثم يترك ساعات ، وربما أياماً ، لا يدرى متى يطلب ، وما مصيره ، ويخاطب بعنف ، ولو تظاهرا وينكر عليه أن يطلب قضاء حاجاتِه الحميمة من كوبة ماء ، وكسرة خبز– هذا هو الشقاء الحقيقى الذى وصفه كافكا . بأبلغ بيان ، فى قصة « القضية » .

على أن فى المجازفة التى أقدمت عليها أختى غير هيابة ، جانباً من العذاب اسمه الترقب والتوقع والتوجس ، ففى كل طرقة على باب مجاور ، وعندسماع وقع أقدام أى صاعد على درجات السلم ، ولدى كل صوت فى الشارع ينادى ، أوصوت عربة أوعربات تقف فجأة على باب المنزل أوعلى باب قريب ، يظن من ينتظر خطراً مفاجئاً ، أن البلاء قد وقع ، وأن المصاب قد تحقق . . وإلى جانب هذا كله ، ما يثيره الخيال المضطرب ، وما تبعثه الأعصاب المتعبة . ولقد حدثنى صديق كان قد فر من وجه الشرطة فى قضية من القضايا السياسية ، ثم قل اهتمام السلطات بالقضية وأفرج عن كل المتهمين فيها ، وبقى هو فى مخبئه ولم يعد ثمة خطر ، من الاهتداء إلى مكمنه ، ولكن غلبت عليه روح لعبة «الاستغماية» إلى حد أنه كان

يحس بالفزع ، كلما خيل إليه أن على الباب شرطيا يدقه بيده . . ولقد كان لدى أختى ما يفزعها على نفسها . وما يفزعها على اللاجئ إلى حماها ، وما يفزعها على أبيها الشيخ ، وكل من فى البيت ، ولكنها تماسكت وبدت للناس ، ولى أنا فى مقدمة الناس هادئة ، لا تظهر على أسارير وجهها علامة واحدة من علامات الخوف أو الاضطراب ، بل لقد عجزت أنا نفسى أن أميز من مظهرها خلال الفترة التى كانت تستضيف بها هذا الفار من وجه العدالة أن لديها ما يشغلها أيا كان هذا الشاغل فقد بقيت هى هى : هدوء نفس ، وحضور ذهن ، وصفاء خاطر ، وميلاً إلى الدعابة ، وحرصاً على المجاملة ، واهتماماً بسماع الأخبار العامة . .

ومضت السنوات والأيام ، والناس جميعاً يتكالبون على أسباب الشهرة والظهور ، الحقيقية والمدعاة ، المشروعة ، والباطلة ، وأختى لا تحدث أحدا بما فعلت ، ولو تلميحاً ، وإذا ذكرت تلك الأيام ، تحدث كل من حضر المجلس ، إلا هى

ولست أدرى ما الذى ستقوله أختى ، حينما تقرأ هذه السطور ، وأنا أزيح عن شخصها ستائر الزهد والصمت والترفع ؟ ولكنى لا أفعل ذلك ، إطراء لها ولا ثناء عليها ، ولا اعتزازاً بأن تكون شقيقتى على هذا القدر العظيم من ضبط النفس ، وإنكار الذات ورباطه الجأش ، وإنما أفعله ، لأن من حق بلادنا علينا ، أن تقدم للناس العاديين البسطاء ، نماذج حقيقية للإنسان المصرى الذى يتصدى للمخاطر والمكاره ، من أجل العقائد والمبادئ ، مؤمناً إيمانا هادئاً بسيطاً ، بها ، وكأنه يتنفس . .

هذه الأخت ، بعد أن صقلت نفسها التجارب الكبرى والصغرى ، بعد أن

مات من حولها أعز الناس عندها : زوجها ، وأمها وأبوها وأختاها ، وبعد أن قرأت ما قرأت ، ورأت ما رأت مازال فى حياتها جوانب جديرة بأن يطل الإنسان عليها ، ولو من «طاقة» صغيرة ، فإن فى ذلك كسباً للإنسان : الإنسان العادى البسيط ، الذى تقوم على أكتافه ، مصر ، ثم الإنسانية كلها .

أخواتى الثلاث (٣)

قال الشيخ الذى نروى ذكريات صباه :

أوت أختى الوسطى ، « حسين توفيق » المحكوم عليه فى جناية سياسية ، المطلوب للعدالة ، تتعقبه أعوانها وتشم آثاره فى كل مكان ، وتغرى الناس بالقبض عليه ، وتسليمه لها ، بمبلغ عشرة آلاف جنيه ، تساوى الآن مائة ألف على الأقل . فقد أعانها فى تنفيذ هذه المغامرة الوطنية الإنسانية معا ، أنها كانت تسكن فى شقة فى حين كانت أختها الصغرى تسكن فى شقة مقابلة ، وكانت الأخت الصغرى كما مر بنا زوجة رجل من أغنياء الريف ، له عزبة فى محافظة الشرقية ، فكانت هى وزوجها وأولادها ، ينتقلون بقضهم وقضيضهم إلى الريف ، بين بطه وأوزه ، وأبقاره وثيرانه ، ونوارجه ومحاريثه ، شهورا ثلاثة ، ومن ثم استطاع هذا اللاجئ السياسى ، أن يجد مكانا خاليا لايشاركه فيه شريك ، ولايزعجه طارق . وفيما كان

الشاب متمتعا بهذه العزلة ، لايفكر فى شيء ، إذ بمفتاح الشقة يدور فى قفلها بحركة واثقة خالية من العصبية ، بدون إنذار له ولاتنبيه ، ولم يستطع الشاب أن يفسر هذا الغزو المفاجئ ، فلم يبق أمامه إلاأن يأخذ للأمر عدته ، ويتهيأ لأسوأ مايأتى به المستقبل ، فحمل مسدسه فى يده ، بعد أن ملأه بالقذائف ، وجعله فى حالة استعداد ، ووقف هو فى مدخل الشقة ، موقف المدافع الذى عزم على أن يستبسل ، وألايسلم إلى أحد إلابعد أن يسلم آخر أنفاسه . . فإذا به أمام رجل سمح لاتفارق البسمة قسمات وجهه وإن كنت لاتستطيع أن تحدد مكانها ، فهى ليست على الشفتين ، وانما هى روح تشمل الجبهة والوجنتين ، وجانبى الفم ، والعينين ، وتقدم هذا الرجل المطمئن ، إلى الشاب الذى كان كل عصب فيه يهتز استعدادا للقتال ، فإذا بالرجل ، يفتح ذراعيه للشاب ، ويحتويه بينهما ، ثم يعانقه ، ويقول له : مرحبا . . وزال الفزع من الشاب فى التو ، وذهب الشك فى لحظة ، فلم تداخله ريبة فى هذه الحركة ، ولم يقل لنفسه : هذه حركة خداع مضللة ، يريد صاحبها أن أخرج من حالة التهيؤ ، وأن أدع جانبا سلاحى ، ثم يدعو أعوانه الواقفين فى الخارج ليقبضوا على ويجرونى من خطامى إلى حيث العقاب المضاعف ، فإن لكل حركة ولفظة ، وخطوة وسكنة روحا تعكس عنها ، وتشى بها ؛ فالصادق يفيض صدقه عنه ، والكاذب يفوح كذبه منه ، وإن تزيا الكاذبون فى ثوب الصادقين فهم أغلب الأمر لايخدعون إلا من كان يريد أن ينخدع لهم . . وقدم الرجل للشاب نفسه ، ولم يقل له مطلقا إنه صاحب الشقة التى لجأ إليها ، وإنما ذكر له صلته بصاحبه الذى هيأ له هذا الملجأ الآمن ، ثم جلسا يتسامران فى هدوء واستقرار ودعة ، وتناولا العشاء معاً حتى كاد يطلع عليهما الصبح ، فأوى كل منهما إلى سرير ، كأنما هما صاحبان قديمان طالت صحبتهما ، وقدمت مودتهما . .

وإذا رجعنا إلى ماقبل هذا اللقاء غير المنتظر بين شاب أحب بلده ، وغامر من أجلها ، ورجل هام حبا بوطنه ، وقبل فى سبيله مواجهة الأخطار ، فى غير من ولاتفاخر كان علينا أن نعرف أن أختى الصغرى جاءت على غير موعد ، ومعها زوجها ، وأرادا أن يتجها إلى شقتهما ، إلا أن الأخت الوسطى ، اعترضت طريقهما ودعتهما إلى شقتها المقابلة ، وقالت لأختها إن فى بيتك ضيفا . فسألت الأخت الصغرى : ومن يكون ؟ . . وأشفقت أختها أن تفضى إليها بالحقيقة دفعة واحدة فتفجأها ، وتدعوها المفاجأة إلى الاحتجاج والاعتراض والممانعة وهى صريحة لاتخفى شيئا من عواطفها ، تعبر عن نفسها بلفظ بين جلى قوى ، فحاولت الأخت الوسطى أن تبحث عن مقدمة أو تمهيد ، ثم استخارت الله ، وقالت لها الحقيقة كاملة ، فإذا بأختنا الصغرى تتهلل ، وتتساءل لتتيقن أن الأمر حق كله ، ولانصيب للمداعبة والمعابثة فيه ، فلما اطمأنت إلى صدق الخبر ، اندفعت الى زوجها تبشره ، فضحك ضحكته القصيرة وسأل بدوره سؤالا واحدا ، ليتيقن ثم انطلق إلى الشقة ، ومعه مفتاحها ، وقد حاولت أختى أن تدعوه إلى الاتئاد والتريث خشية أن يكون دخوله المفاجئ على الشاب مزعجا له ، وخشية أن تدعوه المفاجأة إلى الاعتداء على الداخل غير المنتظر ، ولكن عواطف زوج أختى التى لم تكن تعرف مواربة ولا إخفاء ، دفعته الى باب الشقة ، فكان هذا العناق ، وتلك المودة المنبثقة من القلب ، والتى لايمكن أن تفشل فى كسب قلب الآخرين وحبهم ومودتهم . .

هذه هى أختى الصغرى . وماجرى منها فى ذلك اليوم ، ليس سوى التعبير الطبيعى والدائم لشخصيتها : حب للناس لايقف عند حد ، وانشغال بالوطن ، لايعرف الاعتدال ولاالقصد ، وإفضاء بذات النفس ، وكان كلامها ، هو رائحة الوردة ، تصدر عنها ، بلا تدبير أو عمد . . .

نشأنا معاً ، وكبرنا معا ، وذهبت كل من أختى الكبرى والوسطى ، إلى بيتى زوجيهما ، وبقيت معى ، وما كان بيننا ونحن صغار ، لازمنا ونحن كبار ، فالخلاف والشجار والمقاطعة فالمخاصمة فالصلح هى دستور حياتنا ،يجدد فيها ، ويبعث الحرارة والدفء ويجعلنا كل حين وآخر ، أشبه بصاحبين يتلاقيان لأول مرة ، ويتعارفان ، ويكتشف كل منهما نفس صاحبه ، ومزاياه ولقد طاف بخاطرى الآن فقط ، بعد أن ماتت أختى ، وانقضى على رحيلها عن عالمنا هذا أكثر من عشر سنوات ، أننا لم نتبادل الشكوى ، من هموم القلب ، لاقبل الزواج ولابعده ، وإن كانت علاقتنا حميمة ، وصلتنا وثيقة ، وطبيعة كل منا قائمة على المصارحة والمكاشفة .

فى طفولتنا كدنا نكون توءمين ، وبلغ من تشابهنا فى المظهر ، الحد الذى عجز معه مفتش فى مدرسة خاصة ، أن يميز بيننا فقد حلقوا لها شعرها الخفيف ، على أمل أن يغزر ولبس كلانا قبعةالمدرسة وزيها ، وذهبنا إلى المدرسة ، وكنا فى الصف متعاقبين : فلما جاء دور أختى قال لها المفتش : ما اسمك ياشاطر؟ فقالوا له : هذه بنت ، فضحك وسألنى بعدها ما اسمك ياشاطرة؟ فقالوا : هذا ولد. فقال الرجل شيء يلخبط ، فأضافوا : هما شقيقان ، فاجاب : بل هما شقيق واحد ، ولم نعرف يومها أن هذه شهادة ، يجب علينا أن نفرح بها ، ولكن كنا أصغر من أن ندرك معناها ، وكان ذوونا ضيقين ، بما نسببه لهم من متاعب ، فلم يكن يسرهما أن نكون شيئين ، أوشيئا واحدا ، لأن هذه المتاعب لم تكن لتنقص ، إذا عدنا الناس شخصا واحدا ، فإن شيطان الاثنين إذا اندمجا فسيصبح شيطانا مريدا .

ولقد كان يجدد تعلقى بأختى إلى جانب نوبات الخصومة والقطيعة والصلح والمودة ، ومايتبع كل دور منها ، من تأجيج العواطف وإشعال الأشواق أنه كان

لأختى ملجأ سياسى ، تلوذ به وتهرب إليه كلما لم يعجبها الحال فى بيتنا ، ذلك هو بيت جدتها ، فقد كان لها من حدة الطبع ، ونشاط اللسان ، مايجعلها أكثر منى تمرداً على نظام البيت الشديد الرصين الذى لايعرف استثناء ولاتراخيا والذى لايطيق التدليل ولايدخله فى نظامه : نظام لم يسمح قط ، لفتاة أوصبى أن يحمل اسما من أسماء الإعزاز ، والتحبب التى كانت ولاتزال شائعة فى كل البيوت ، تطلق على الصبيان كما تطلق على البنات ، وإذاكان الغرباء قد أطلقوا على أختى الوسطى اسم تدليل ، فقد فقد معناه ، وأصبح هو الاسم الأصلى ، لأن هذا الخروج على الأصل الثابت والمستقر لاينتج أثره إلا فى جو يعرف أسلوب التلطف ، ومن هنا كانت أختى الصغرى لاتكاد ترى فى البيت مالايعجبها ، حتى تحمل ثيابها ، وتلجأ إلى بيت جدتها ، وكان لايبعد عن بيتنا إلا بأمتار ، ولم تكن هناك هذه السلطة المستقرة الثابتة التى تأمر وتنهى ، وتعلم وتلقن ، وتوبخ وتندد ، وتلزم الكبار قبل الصغار ، لابقانون الأخلاق ، بل بمقتضيات الذوق ، فمن يقرض أظفاره مجرم يناله أشد التقريع ، ومن يعلو صوته أكثر ممايجب أويليق ، خارج على الدولة ، تتعقبه بكل عنف ، والجلسة لها وضع مرسوم ، والضحكة لها شكل معلوم ، والوقفة لها قياس موزون وهكذا وهكذا . ولقد كان لهذه التقاليد آثار فى كل منا ، فأختى الكبرى ، واءمت بين نفسها وبين كل القيود ، باللطف والمداراة والاحتمال وضبط النفس ، فخرجت « دبلوماسية » وأعانها ذلك أن قواها كلها داخلية ، لايبدو عليها شيء منها ، فإذا صاحبت السيدات اللواتى يبدو أنهن من المجتمع متمرسات لبقات محنكات ، يلعبن بالبيضة والحجر ، ويتبدين بزينتهن ومواهبهن بمايبهر صاحبتهن ، دون أن تحس بنقص ثم سبقتهن إلى المكانة ، فحرصن على مودتها ، وعلى محاكاتها ، والأخذ بنصيحتها ، وواجهت أختى الوسطى أهوال هذا النظام ، بفرط

من الحساسية . جعلها فنانة ، تحس مايحس به الناس ضعفين . فما كان يضايق غيرها ، يدميها تماما .

وأما أختى الصغرى ، فقد قوى عنصر التمرد والثورة عندها ، فهى لاتطيق نقدا ، ولاتحتمل توجيها ، ولاتصبر على توبيخ ، صوتها عال ولفظها قارص ، وكل مافيها صريح وواضح ومعلن . فإذا آوت إلى بيت جدتها وجدت تسامحا ورفقا ، بل وجدت نفسها هى سيدة الدار تأمر وتنهى ، وتطلب وترفض ، وجدتها تفنى فى إجابة رغائبها بل نزواتها ، وخالها ، يجد فيها مايرفه ويسبغ على جو البيت الهادئ ، الرتيب حركة ولطفا ، فإذا حدث أن نسى أحد أهل بيت الجدة نفسه فعاتبها ، جمعت أختى حاجاتها وملابسها ، وعادت إلينا دون أن تحس خجلا ، أوتشعر بأنها فى حاجة إلى تفسير أو بيان . وربما ترددت بين البيتين فى اليوم الواحد ، مرات ولايستطيع بيت الجدة أن يقلل من ترحيبه بها ، وفرحه بعودتها ، أمابيت الأبوين ، فيتقى إثارة غضبها ، لاخوفا منها بل إشفاقا على أهل البيت الآخر .

ولم يكن ثمة ضحية لهذا الطبع الحاد ، واللسان القوى ، المعبر ، إلاأنا . وقد قلت أول الأمر : إنها اتخذت منى تلميذا ، ثم أعانها خيالها ، فأقامت مدرسة ، واستطاعت بهذا الخيال أن تضيف إلى شخصى الضعيف عددا من زملائى كانت تأمرهم أن يجلسوا إلى جوارى فيجلسوا ، وأن يسمعوا الدرس فيطيعوا ، وأن يلتزموا الأدب ، فيذعنوا ، فإذا خرج واحد من هؤلاء التلاميذ الذين يخلقهم خيال أختى الخصب ، فالويل لى أنا ، إذ لا يوجد من يتلقى العقاب والعذاب سواى ، وإذا رفضت قبوله صاغراً راضياً ، فقرار عسكرى معد ، بحل المدرسة ، وإعادة تلاميذها إلى بيوتهم ، وبقطيعة منكرة تقوم بينى وبين صاحبة المدرسة ومديرتها ومدرستها . وعربون العودة إلى المدرسة نصيب من العذاب أكبر .

والعجيب أننى رضيت بهذه المحنة مع أنه كان لى فى الشوارع المحيطة بالمنزل متع وبديل ، والأحواش التى كانت تجاور بيتنا والتى كانت مراتع وميادين للاعبى الكرة العالميين والمحليين ، والذين زاملتهم ، وكدت أكون واحدا منهم ، لولا أننى لم أثابر مثابرتهم ، فقد كانت هذه الشوارع والحلقات ، أمامى تدعونى ، وأنا أقبل دعوتها ، وأعود إلى البيت وقد احتقن وجهى وتصبب عرقى ، وانقطعت أنفاسى ، ولاأزال أكابر حتى أصاب باحتقان اللوزتين ، يلقى بى فى فراش المرض أياما طويلة ، والحمى تسلمنى فى أغلب الأحوال إلى مايشبه الغيبوبة والهذيان .

فما الذى جعلنى أقبل استبدادَ أختى ، وعنف نظارتها ، وبطش أستاذيتها ؟ أكانت أحاديثها تستهوينى ، أم كان تعلقى بها ، تطبيقا لقانون نفسى اهتدى إليه علم أهلنا الفطرى ، حينما قالوا : « القط مايحبش إلا خناقه » : أى القط لايحب إلا من يخنقه ، لأن الخنق نوع من العناق أولأن الخنق صورة أقصى من صور الاهتمام ، وأن الاهتمام مهما بلغ سوء التعبير عنه فإنه أفضل عند المحبين من عدم المبالاة والإهمال ، ولوطاوعنا أنفسنا وصدقنا علماء النفس المحدثين لقلنا إن الحب والكره ، مصدرهما واحد وأن الخلاف بينهما اختلاف فى الاتجاه لا اختلاف فى الطبيعة ، ويقول عوامنا « ماحبة إلابعد عداوة » ، باعتبار أن العداوة محبة فاشلة فالإنسان الذى يود أن يظفر بحب إنسان ، ثم لايوفق ، تتحول مشاعره إلى كراهية ، من قبيل ماقاله الذئب الذى حاول أن يطول العنب ، فلما لم يصل إليه قال عنه « حصرم ! » .

وأيا كان نصيب هذه الفلسفة ، من الصحة والصدق ، فأنا وأختى الصغرى كنا نعيش كائنين محكوما عليهما بالأشغال الشاقة ، ربطا فى قيد واحد ، نتشاجر ونتصالح ، ونتبادل ألطف الكلمات . وأقساها ، ولاينفصل أحدنا عن الآخر .

ولاأنسي يوما ، كنت أنا وهى على درجات سلم منزلنا الرخامى الذى كانت تملكه « بريمادونه » ذلك الزمان مليان ديان ، فقد أسندت أختى ساقها إلى طرف قدمها ، فراح ساقها يهتز هزة عنيفة وسريعة ، وتظاهرت هى بأنها أصيبت بشلل مفاجئ ، وكانت تكبرنى وكنت فى السادسة أودونها وصدقت ماقالته ، وانفجرت باكيا ورحت أقبلها ، وأرجو أن تعود إلى الشفاء ، وهو طلب غريب لأنه يدل على اعتقادى بأن المرض كان بناء على رغبتها ، فمن الممكن أن تعود إلى الشفاء ، وتظاهرت بأنه لاأمل ولارجاء . وأنا لاأدرى ماذا أفعل وقد أبت حكمتى يوم ذاك أن أعلن لأهل البيت المصاب الذى حل بأختى ، لا إشفاقا منى عليهم ، بل خوفا من العقاب ، فأنا أعلم أن أمى كانت سترى فيما أصاب أختى عدوانا منى عليها ، ولم تكن محكمة « أمى » لتسمع بمرافعة ولادفاع ، وبعد أن شبعت أختى من تعذيبى خلال المدة التى قررتها أعلنت أنها شفيت ، وأنى إذا ضايقتها مرة أخرى فإن هذا الشلل سيعاودها وإن عاودها فلاشفاء ، وأنها ستبقى إلى الأبد كأم « نجية » ، وأم نجية هذه كانت سيدة مسنة تمت إلينا بقرابة ، وكانت تسير وهى تختلج ، أى وهى تهتز ، وقد جعلها هذا الشلل الخفيف ، أقرب ماتكون إلى البلاهة ، فنمت طوال الليل ، أحلم بأختى ، وبأم نجية فلما كان صباح اليوم التالى أفضيت إلى أمى بمخاوفى ، ورجوتها أن تدعو الله ألاتصاب أختى بالشلل ، وسألت وهى لاتكاد تضبط غضبها ، عن سبب هذه المخاوف ، فأفضيت إليها بالسبب ، فكانت النتيجة غريبة غاية الغرابة ، فإن أمى ضربت أختى ضرباً شديداً ، على خديها ويديها ، وحذرتها العودة إلى هذا التظاهر السخيف ، وقبلت أختى العقاب ، لأول مرة فى رضا ، ولم تعلن احتجاجها ، كالمعتاد ولم تلجأ إلى ملجئها السياسى المألوف ، ولم أجرؤ على سؤالها عن هذه الاستجابة غير المتوقعة ، ولكنى حينما كبرت قالت لى : إن

من اللحظات التى لاتنساها والتى تعذبت فيها أكثر مماتعذبت أنا لحظة تظاهرها بالشلل ، لأن ماكان يبدو على وجهى يومها ، كان يدل على شدة خوفى وألمى ، مما دعاها إلى إنهاء هذا الموقف وعدم تطويره ، فقد كان فى نيتها أن تضيف إليه ألوانا من هذا الشلل يجعلها تمايل وتهتز وتقع على الأرض . .

ولقد قارنت ماحدث منى من ضبط النفس ، وأنا أرى هذه الأخت العزيزة تعانى شللا مفاجئا ، وممافعلته هى يوم أن أصبت بالدفتريا ، وكانت يومها مرضا لايسمع الناس فى مصر عنه ، إذ كانوا يسمونه بأسماء أخرى كالخناق مثلا ، ولم تكن الأمصال المضادة له قد ذاعت ، إذ ماكادت أختى تسمع من الطبيب أن حلقى سد حتى أسرعت إلى بيت جدتى ووقفت فى ساحته وصاحت : أخى قد سد حلقه ، فأثار هذا الصياح فزعا فى البيت ، أدع لك أنت تصوره ، وأنا الولد الوحيد فى بيوت الأسرة كلها .

ولكن كم أفدت من هذه الأخت ، فلقد تلقيت على يدها كما قلت من قبل أول دروس البيان ، فقد قصت على من القصص الدينى والأدبى والتاريخى ، ماعلمنى أول الأمر فضيلة الاستماع ، ثم ماعلمنى فضيلة تذوق القص والحكاية ، وأسمعتنى قصة ماجدولين وأبكتنى عليها ، وأسمعتنى قصة الحسين سيد الشهداء وأبكتنى عليه ، وقصة « ابنة مونتزوما » لشارلس جارفس ثم أصبحت أكبر نقادى ، وأقساهم ماقرأت لى شيئا إلا أظهرت من الضيق لغموض ماكنت أكتبه فى محاولاتى الأولى وكانت تعقد المقارنات بين خطاباتى وخطابات أصدقائى حينما كبرنا ووصلنا إلى مرحلة التعليم الثانوى ثم وصلنا الجامعة وتراسلنا ولكم كانت تحب خطابات صديقى وزميلى « كمال » وكان فى المنصورة ، وكنت فى بنى سويف ، وكان يصف مايراه فى المنصورة من مظاهر الحياة اليومية وصفا سهلا ولطيفا ، حتى كانت تنتظر

خطاباته وتفضلها قبل عودتى إلى البيت ، وتقرؤها ، أما خطابات « أحمد » التى كان يكتبها من القاهرة عن المسارح والمحاضرات والندوات ، فكانت عندها أشهى وأمتع من القصص ، فلما سافر إلى فرنسا وأرسل إلى خطابات فى شكل مذكرات يومية قرأتها مراراً .

ثم تزوجت شابا يمت إليها بصلة قربى قريبة عن طريق أمها ، وذهبت معه إلى الريف ، فكأنما خلقت لهذا الريف ، فأحبته وأحبها الناس فيه من فلاحات يعملن فى البيت ، ومن رجال يعملون فى الحديقة ، وحظائر الحيوان وفى إدارة العزبة ، ولم تحاول أن تحدد عدد أولادها ، فكأنها قروية تحب الأولاد ، كما تحب الدجاج والعجول ، والبط والوز ، وما سألتها يوما عن أولادها إلاكان ردها الدائم « حلوين » ، وتحس من هذه الكلمة الصغيرة البسيطة ، الإعزاز والتعلق ، والرضا . وقد ولدت بعض أولادها فى الريف ، كما تلد الفلاحة دون أن يعينها طبيب ، ولم أرها يوما منزعجة لطفل مرض . فقد انتقلت إليها بطريق العدوى . طمانينة وسكينة القرويات ، اللواتى دخلن فى حياتها وسقط عندها الحاجز القائم بين المدينة والقرية . بطريقة لاوعى فيها ، فهى لم تقصد أن تكون رائدة اتجاه اجتماعى ، غايته أن يرفع مستوى بنات القرية روحيا وأن يدخل فى قلوبهن ونفوسهن إحساسا بالثقة ، ولكن كان السر فى شخصيتها التى تكره كل تعالٍ على الضعفاء والفقراء ، إذ لم يخالطها قط شعور بأنها أغنى من سواها ، ولابفقر الفقراء حولها وإن كانت نفسها تذهب حسرات على مايعانونه من حاجة وحرمان ، ولم أجد ظرفا ظهر فيه اتحادها مع الفلاحات واندماجها معهن ، إلايوم شيعت القرية جثمانها ، مع أنها ماتت فى القاهرة ولكن زوجها أبى إلا أن تخرج جنازتها من عزبة له اسمها كفر عياد كريم ، ليتاح لجميع أهل العزبة من النساء والرجال أن يحيوها التحية الأخيرة ، وكانت تحية

بسيطة وصادقة ومؤثرة ، فقد خلت من هذا الصراخ الذى يشبه نعيق البوم وصياح الغربان ، وسار الجميع فى صمت وإطراق ووجوم ، أما صديقاتها وزميلاتها من نساء القرية ، فقد وقفن إلى أحسن وأجمل مايودع به مسافرة فقد تعالى صوتهن بين الحين والحين : مع السلامة ياأختى مع السلامة ياحبيبتى .

ولكم أحسست بأن الحزن الذى ملأ قلبى قد تبدد ، وأن الذاهبة عنا ، الماضية إلى طريقها الذى لايعرف أحد عنه شيئا ، هى فى رحلة وأنها فى حاجة إلى الدعاء لها بالسلامة ككل مسافر . .

ولكن قد كان لها قبل أن تموت دورها فى العمل وكانت العزبة التى تقيم فيها هى وسيلتها فى هذه الخدمة العامة ، فقبل أن تنتقل إلى الشرقية كانت مع زوجها فى عزبة فى القليوبية ولقد أوت هذه العزبة بعض الوطنيين فى خلال الحرب العالمية الثانية وظلام الأحكام العرفية العسكرية ، يسود البلاد ، والوطنيون ، مطاردون تتعقبهم السلطة فى هذه الأيام العصيبة لم تتردد أختى ولا زوجها ، أن تأوى هؤلاء بهدوء وبدون أدنى شعور بأنهما يأتيان عملا عظيما ، لجأ إليهما أحمد حسين ولجأت أنا إليهما ، ولجأ آخرون فلم يجد أحد من هؤلاء جميعاً شيئاً أقل من الفرح بقدومهم ، والسرور بإقالتهم ، والرغبة فى أن يطيلوا زيارتهم وإن كانت زيارة مفروضة .

وأصبح لأختى الصغيرة ، شاغل يلح عليها ، ولايدعها تستريح ليلا أونهارا ، ذلك هو الانشغال بشئون بلدها ، وقد أعانها على هذا الانشغال تزاحم الأحداث ، منذ تدهورت سمعة الملك ، واشتدت الحملة عليه ، ثم على الإنجليز ، وعلى المعاهدة ، حتى ألغيت ، وبدأ نشاط الفدائيين المصريين ، يظهر جديا ، وكانت عزبة زوجها فى الشرقية ، قريبة غاية القرب من خط النار الأول إذ كانت على بعد

كيلو مترات قليلة من أبوحماد وكانت المطارات البريطانية فى «أبوصوير» غير بعيدة عنهم ، ولذلك أحسست بأنها هى التى تقف فى خط الدفاع الأول عن وطنها ، فراحت تتعقب كل مايكتب فى الصحف والمجلات ، ومايذاع فى المحطات المصرية والعربية والأجنبية للإذاعة وهى وسط هذه المتابعة المحمومة التى لاتنتهى لاتكف عن قراءة الكتب على اختلاف أنواعها ، فمن الأدب إلى التاريخ ، إلى الدين ، إلى السياسة ، ولم أر قارئة فى مثل سرعة التهامها لما تقرأ ، وحسن إحاطتها بما تطالع .

وكان الكتاب الذى تقرؤه وقودا يلقى إلى النار فيزيدها ضراما ، واشتعالا ، فماتنتهى من كتاب إلالتبحث عن غيره ، ولم يعقها عن هذا الاطلاع الواسع المتجدد المتنوع أنها أم لستة أطفال ، وأن ظروف الحياة فى القرية تزيد من أعبائها ، ففى القرية حظيرة للدواجن ، وأبقار تحلب ، وزبد تصنع وعيش يعجن ويخبز ، وأنواع من المخللات تعد وتحفظ ، وتعبأ فى صفائح وزجاجات وإن كان حولها من الأعوان الكثير من الرجال والنساء ، وقد كان بعض هذا ، يكفى أن يكون عذرا عند غيرها ، لكيلا تقرأ شيئا ، ولكنها لم تشك قط من أعباء البيت ، ولامشاغل الأولاد ، التى تحول بينها وبين القراءة ، فالقراءة عندها أشبه شىء بالأنفاس تتردد فى صدرها ، لاتعتبرها واجبا يؤدى ، ولاشغلا يشكى منه .

وكانت تبحث عمن تناقشهم فى شئون بلدها ، فى الداخل والخارج ، فإذا وجدت عنها انصرافا ، ضاقت بهذا الانصراف ، وعدته نقصا فى الوطنية ، وتخلفا عن أداء الواجب ، وكم من مرة جاءت لزيارتى ولاهدف لها إلا أن تسمع وتعارض ، وتقترح وتستفسر وتعلق ، فإن وجدت منى تكاسلا فى الحديث ، أوفتورا فى الاستماع خرجت وقد اعتل مزاجها ، وأحست بسوء ضيافتها ، وانصرفت شاكية محتجة !

وقد امتحنت فى وطنيتها امتحاناً شديداً . فقد أربك الإصلاح الزراعى ، أمور زوجها المالية ، وضاقت موارده ، وزادت أعباؤه ، فى وقت كان أولادها قد كبروا ، وكثرت مطالبهم ، وكانت كبرى بناتها تطلب العلم فى أمريكا ، وأكثر أولادها ، فى الجامعات ، فلم يزعزع كل ذلك إيمانها بالإصلاح الزراعى ، ولافرحها به ، ولا إصرارها على أن الفلاح يحتاج إلى مزيد من المنح والبذل ، وأن الريف يفيض ببواعث الشكوى ، لكثرة ماعشش فيه الظلم ، وملأ أرجاءه الطغيان ، وكان كل من حولها يهاجم الثورة وينتقد عبد الناصر ويضرب الأمثال لها على أن الثورة عقيمة ، وأن مابدا خيرا وبركة ، انقلب شرا ونقمة ، فكانت لاترى فى كل مايقال لها الاحرصا على الماضى ، وكرها للتغيير ، واستعجالا للأمور . فإذا أصاب مصر شر أوسمعت من يتهجم عليها أو يسىء إليها من أبنائها الفارين منها ، أومن أعدائها المتربصين بها احتدم غضبها ، واحتقن وجهها ، واستمطرت اللعنات على هؤلاء وأولئك . وعجبت لرجال فى مصر يرون كل هذا ، ولايفعلون شيئا فى رد عادية الجميع .

وفى وسط هذا الانفعال الوطنى ، المتأجج ، تبدأ مأساتها التى ختمت حياتها ، فقد كنا فى حفلة بمسرح الأزبكية ، أقامتها مدرسة الخليفة المأمون التى كانت تضم بعض أولادها ، وواحدا من أولادى ، وكنت خطيب هذه الحفلة ، فلما فرغت منها ، سألت عن أختى فقيل لى إنها ذهبت مع زوجتى إلى الدكتور عباس حلمى أستاذ الجراحة بجامعة عين شمس لأنها تشكو منذ فترة ألما فى صدرها ، وفى المساء علمت أن الجراح أمر بوجوب تحليل جزء من الورم الذى وجد فى مكان من صدرها وتوالت الأنباء ، كما يحدث دائماً عندما تصل الرواية إلى أعلى أزمتها ، فقد ظهر أن عملية جراحية لاستئصال الصدر يجب أن تعمل ، وأجريت العملية ،

ولا أنسى أنني يوم أن أجريت خرجت من مكتبي ومعي الدكتور لويس فانوس وهو أحد أعضاء مجلس الشيوخ قبل الثورة ، ولم أنجح فى أن أصرفه عن مرافقتى بقولى له إنى ذاهب إلى أختى لأعودها بعد العملية ، فركب السيارة معى ، وهو يؤكد أن العملية ناجحة وأن الأورام السرطانية ليست مخيفة كما نتصور جهلا ، وأن آخر الإحصاءات تدل على كذا وأن الجراح البريطانى المشهور الذى اسمه كيت ، كتب فى بحث له منشور فى مجلة لانسيت الطبية أشياء . . !

وذهبت إلى حجرة أختى . وقد أفاقت من المخدر فوجدتها بين اليقظة والنوم ، يعلو وجهها الأبيض ، هدوء واستسلام للواقع ، ولم أسألها عن الصحة فقد تبادلنا النظرات ولست أدرى ماالذى جعلنى أحس أنها بداية النهاية . فأختى لاتعرف هذا الصمت ، ولاهذه التعليقات البسيطة ، ونسيت أنها لاتزال تحت تأثير المخدر . . وتركت المستشفى ، وعادت إلى بيتها وحياتها ، بنفس الحيوية والإقبال على الحياة ، والثقة فى المستقبل ، ولكن كان يخالط هذا شىء من الحزن العميق ، الذى لاتسمح له أختى بالظهور ، وأحبها أطباؤها حبا جعلها صديقة لامريضة ، أحبها دكتور عباس حلمي ، فكان يفرح كلما جاءته تزوره فى العيادة مع شقيقتها أومع زوجتى .

وكان يوصى بها زملاءه الدكاترة « حسين عرفان ومحمود محفوظ » اللذين تناوبا علاجها بالأشعة حتى سبقها هو إلى الموت وبنفس المرض ، وكان الجميع يناقشونها ويسمعون كلامها ، ويعابثونها ثم عاودتها العلة ، فكان لابد لها أن تسافر إلى لندن ، وسافرت إلى لندن ، وأجرى لها الدكتور زيفن أكبر أطباء جراحة السرطان عملية ، ولكن المهم أن الرجل فتن بها ، إلى حد أنه كان يرسل وهو فى طريقه من إنجلترا إلى الشرق ، أو من الشرق إلى بلاده ، إلى الجراحين فى مصر ليعدوا له مكاناً فى المطار يرى فيه أختى ويكشف على الجرح ، ويتحدث إليها ويضحك معها ، ويطمئنها ،

وفى آخر مرة خرج من المكان الذى كانت قد تمددت فيه ، ليرى تطور المرض فيه ، ووقف على عتبة الحجرة فى المطار ساهماً واجماً . . فقد كانت النهاية ! .

وبقيت أختى ، بعد أن اشتدت وطأة هذا المرض القاسى الذى لايرحم ، وتحملت آلامها التى لاينفع فى تهدئتها مخدر ولامنوم ، تذكر كيف اعتنى بها الأطباء والممرضات والحكيمات فى مستشفى لندن ، وقالت وهى تضحك : لقد كانوا يزينوننى كل يوم ، ويضعون فى شعرى الأشرطة الحريرية ، يغدقون على وجهى وجسمى العطور ، ويزينون حجرتى بالأزهار ويغنون لى ، فياله من وداع جميل ويبكى كل الذين حولها وهم يسمعون كل هذا الكلام ، وهى هادئة صابرة لاتطرف ، ولاتدمع ، وكانت ابنتى قد تحدد موعد لحفلة عقد قرانها ، وكانت أختى تحس أن أجلها قد دنا ، فلم أرها شاعرة بالذنب ، وخجلة من نفسها مثل شعورها وخجلها تلك الأيام ، لأنها كانت تدرك أن وفاتها ستؤجل الحفلة التى تهيأ الجميع لها فكانت تقول همسا : يارب . . لكم دعوتك لأن تدعونى إلى جوارك . . والآن أنا أدعوك ، أن تمهلنى أياما ، أياما قليلة فقط يارب ! !

لك الله أيتها الأخت التى لم أعرف فى النساء ولافى الرجال أحدا فى مثل فنائها فى المثل الأعلى . .

وقد كانت تواجهها فى مقعدها صورة ، لأبيها ، صورت له يوم انتهى عمله الرسمى ، وقد أحاط به زملاؤه ، وكانوا جميعا قد ماتوا بعد أخذ هذه الصورة بأعوام ، فكانت تنظر إلى الصورة وتقول : كل هؤلاء ماتوا . . ويأبى الله لحكمة إلا أن أبقى . . متلكئة متشبثة بالحياة ، كضرس يرفض أن يخلع من مكانه ! !

ولكنى لاأستطيع أن أسترسل فى تصويرها ورسم شخصيتها ، بأكثر ممافعلت ، فإن ذلك عناء لى لاأقوى عليه ، ولكنى أذكر شيئين عنها : أولها ، يوما كنت أسير

فيه فى الطريق ، معها ، ناحية قسم مصر الجديدة ، حيث كان الفريق عزيز المصرى معتقلا ، وكان يتمشى فى سطح دار مأمور القسم الذى يعلو مبنى القسم نفسه ، فبادلته التحية بالأيدى ومضيت فى طريقى ، وفى اليوم التالى ، كنت عنده أزوره ، فما كدت أصل إلى عتبة الشقة التى كان معتقلا فيها حتى قال : من هذه التى كانت معك ؟ . . قلت له : ولماذا ؟ قال : أمصرية هذه ؟ قلت نعم ، قال : أحقا هى مصرية ؟ إن قامتها المرفوعة ، ومشيتها الطليقة ، وقوامها الذى لاتجد مثله بين المصريات كثيرا ، كل ذلك أعجبنى ، فقلت له : هذه أختى ، قال : هذا إذن أثر الدم الشركسى فيها ؟ . وكان رحمه الله شديد التعصب لشركسيته . .

أما الأمر الآخر فإن أختى ذهبت إلى الحج ، وكنت آن ذاك أحد الوزراء ، فاجتمعت مع والدة السيد أنور السادات التى كانت تحج أيضا وحسنت رفقتهما وأطالتا الجلوس معا ، فى الحرم المكى وتواعدتا على أن تحرصا على صلتهما عند العودة . . ثم أبت أختى عندما عادت أن تبذل جهدا فى أن تتصل بالسيدة والدة الرئيس ، فسألتها يوما : ماسر هذا المسلك ؟ فقالت : لقد كانت معرفة حج فندعها صحبة لله ، لاشىء فيها من الدنيا ، ولاشىء فيها للدنيا . . ! »

هذه أنت ياأختاه ، هذا مظهرك ، وهذا مخبرك ، وأنت بين المظهر والمخبر ، شىء بين ملائكية البشر ، وسماوية أهل الأرض . . !

بيت العباقرة

إن عجبي من غرائب الذاكرة وحيلها مع صاحبها الإنسان ، في الإخفاء والإظهار ، والإيهام والخداع ، لا تنتهي . وإذا كان بعض الذين يتحدثون عن أصول الألفاظ ، يزعم أن الإنسان سمي كذلك ، لكثرة نسيانه ، فإن فضيلة نسيانه – ولا أقول آفة نسيانه ، – أسدت إلى هذا المخلوق المسكين أيادي لا حصر لها ، منها أن نسيانه حفزه إلى الكتابة والتسجيل ، ورغبة التسجيل حفزته إلى إقامة الصروح الضخمة والهياكل الرائعة ، وإخراج الصور البارعة ، والقصائد الرصينة والرقيقة ، فكل هذه وسائل الإنسان ليحاصر الحاضر ، ويمنعه من الإفلات منه والضياع . .

ولو كنت أقيد مذكراتي وأنا صبي غافل لكتبت في يوم ما في سنة ١٩٢١ : أنني لقيت صبياً فذا ، فتعلقت به وأن بداية تعرفي عليه ، وتعرفه علي ، واتصال الواحد

منا بالآخر – أنه قال لى ، كذا ، أو قلت له كيت . . وأن هذا التعرف كان فى مكان ما من مدرسة محمد على ؛ ذلك لأن هذا اليوم وما جرى فيه يوم تاريخى بحق . . تاريخى فى حياة كلينا ، أو حياتى أنا على الأقل ؛ فلقد امتدت صداقتنا منذ ذلك اليوم القديم المجهول حتى تجاوزت نصف القرن ، وإن كان قد انقضى علينا أخيراً سنوات لا نتقابل ، ونأى الواحد منا عن الآخر فى فترات الاتصال اليومى . ولكنى لم أكتب مذكرات وأنا صبى ، مثلى فى ذلك مثل كل صبى آخر ، لذلك فقد حاولت أن أتذكر حينما شعرت بأن كتابة هذا الفصل من ذكريات الصبا قد قاربت الحلول – حاولت أن أتذكر كيف تلاقينا أحمد وأنا ، وما الذى جذب الواحد منا إلى صاحبه وقد كنا فى فصل لا يقل عدد تلاميذه عن الثلاثين ، وكيف كان اللقاء الأول ؟ وما الحديث الذى دار بيننا فيه ؟ وما الذى وثق العلاقة بيننا ، وجعلها فى المتانة والقوة التى صمدت معها لأحداث أجيال شهدت من الوقائع والأحداث والتغيرات والانقلابات ما لم تشهده حقبة أخرى فى تاريخ مصر الحديث ؟ . فلم أوفق إلى شىء من هذا كله ، والحق أننى لا أزال أحرص وأشوق ما أكون إلى معرفة هذا الجانب من حياتى ؛ لأنه يفسر لى ، أمراً منها غامضاً أشد الغموض :

ذلك أن ظاهر الأمور كان يؤدى إلى استحالة قيام صداقة ، بينى وبين أحمد ، لا فى قوة الصداقة التى ربطت بيننا بالفعل ، ولا أضعف منها ، فقد كان الواحد منا على النقيض من الآخر. كان أحمد ، صبياً صحيح البدن ، يكاد يطفر الدم من وجنتيه ، ويشع نور قوى من عينيه ، ويمتلئ ثقة بنفسه ، يتكلم بصوت واضح عال ، وربما آمر ، لا يخشى الناس ولا يتحاماهم ، ويقف من الرجال موقف الند ، ويحسن الأخذ والعطاء معهم ، وعند الاقتضاء يشتد عليهم فى القول ، فيعلو

صوته على أصواتهم ، ويرد إليهم كل كلمة قاسية بمثلها أو أقسى منها ، فى حين كنت صبيا عليلاً ، لا أشفى من مرض إلا لأصاب بعلة أشد منه ، ناحلاً ، خجولاً أتحاشى الناس ، ولا أحسن التعامل معهم ، ولا أقوى على الصمود لمخاشنتهم ، ولا احتمال غلظتهم أو فظاظتهم ، فأنأى عنهم ، نأياً يبدو تعالياً وكبرياء ، وهو يعيش فى الواقع ، ولا يفلت منه ، شديد التحكم فى خياله ، يحفظ دروسه أولاً فأولاً ، ويعرف ما يريد ، وكان يريد أن يكون على رأس فرقته ، ويحتفل بهذا العرض ، ويبذل فى سبيله جهداً .

أما أنا فقد كان يطيب لى الاسترسال مع الخيال ، حتى أكاد أنسى الواقع الذى أعيش فيه ، لا أكره أن أكون من المتفوقين ، ولكنى لا أبذل فى سبيل هذا جهداً ، ولا أحرم نفسى من أجله متعةً من متع الصبيان . ولست أنسى إلى اليوم أنه فرض علينا حفظ عدد من قصار السور ، ونحن فى السنة الثانية الابتدائية ، وكان كل واحد منا ، يتمنى ألا يصل إليه دور الامتحان أو ما نسميه «التسميع» إلا أحمد ؛ فقد كان يعرض على الشيخ محمد رزق أن يمتحنه فى هذا المقرر دفعة واحدة ، يتلو سورة وراء سورة سعيداً بهذه القدرة على الحفظ والأداء . وقد كانت لى صلة بمدرس اللغة العربية والدين ، وحدث أن زرته فى مساء اليوم الذى كان أحمد قد نجح فيه فى إقناع مدرسه بأن يستمع إليه ، فقال الشيخ : «هو شاطر» ومضت السنون حتى رأيت أحمد يسحب وراءه مدرس اللغة الفرنسية فى السنة الأولى من كلية الحقوق . وكنا نتلقى العلم فيها بكلية الآداب ، إلى حجرة المدرس الأجنبى ليسمعه النصوص الأدبية الفرنسية المقررة علينا ، وأكثر الطلاب يفرون من موقف كهذا . . !

وليس هذا سوى مثل على نضج هذا الصبى الغريب ، وقد كانت تصرفاته

معى ، ونحن صبيان ، تسير كلها على منوال واحد ينضح بهذا النضج ، ويدل عليه . خاصمته يوماً ، فإذا به يحضر والدته - رحمها الله - ويأتى معها لزيارتنا ، متوسلاً بوالدته إلى والدتى لتصلح ذات بيننا ، وقد كنت أرى فى هذا المسلك دليلاً على تعلقه بى ، وحرصه على استبقاء صداقتنا ، ولكن حينما تقدمت بى السن ، عرفت أن هذا الموقف إرهاص بنضج أحمد المبكر .

ثم تخاصمنا مرة ثانية ، فأرسل إلى خطاباً قصيراً ، يقول لى فيه : « إنك لا تهدى من أحببت » وقد هزنى يوم ذاك أن يكون فى مقدور صاحبى الاستشهاد بمثل هذا الكلام الكبير ، الذى لا يتناسب هو وسن وتجربة كل منا . وقد كان ذلك ونحن فى السنة الثالثة الابتدائية ، ولكن الدهشة جديرة بأن تتضاءل حتى تزول ، إذا علمنا أن هذه السنة هى نفس السنة التى شهدت أغرب مجازفة وقعت فى تاريخ التعليم الابتدائى فى تلك الحقبة من الزمن . صحيح أننا كنا فى سنى الحمل الثورى .

ولكن مهما تكن تلك الفترة موحية للشبان بالمجازفة ، وتحدى السلطة التى نزعت الثورة الخوف منها من القلوب ، فقد كانت السياسة وقفاً على الرجال والشيوخ والشبان ، فلم يتسع نطاقها للصبيان . ولكن أحمد وأنا ، طلعنا على الناس أى على تلاميذ مدرسة محمد على ومدرسيها وناظرها وإدارييها بعمل غير مسبوق ، ومن ثم فقد كان مثيراً حقا للدهشة ، وكان ما طلعنا به يوم ذاك منشوراً مطبوعاً نوزعه على زملائنا ، فيتخاطفونه ، لا حرصاً على قراءة ما فيه ، فقد كانوا أصغر من أن يدركوا معنى المنشور ، ولكن ألف الناس أن يمدوا أيديهم إلى كل من يوزع شيئاً ، حتى لو كان إعلاناً لمسرح أو ملهى فإنه يعز عليهم أن يوزع شىء على الجماهير ، ولا يحصلون على نصيب منه .

أخذ تلاميذ مدرسة محمد على الابتدائية فى حى السيدة زينب يتخاطفون هذا

المنشور التاريخى ، وقد حمل على رأسه اسم جمعية ، وكان اسم هذه الجمعية على بساطته فريداً بين أسماء الجمعيات المعروفة والمتداولة فى تلك الأيام ؛ فقد كان « نصر الدين الإسلامى » قارن اسمها هذا الثورى ، بأسماء الجمعيات الإسلامية الكبرى مثل : الخيرية الإسلامية ، والعروة الوثقى ، والمواساة والمساعى المشكورة . أسماء هادئة ، لا تتحدث عن نصر ولا تأييد ، فهى أسماء اختارها شيوخ شابت رءوسهم ، وشاخت نفوسهم فى العمل العام ، أما هذا الاسم فهو أليق ما يكون بصبيين لم يضعا أقدامهما بعد على العتبة الأولى من الطريق نحو المجاهدة والنضال والتصادم مع السلطة . ومازلت أذكر هذا المنشور الذى شغل صفحة من « الفولسكاب » فى مطبعة حسنة الحروف ، ولا بد أن يكون قد خلا من الأخطاء المطبعية إذ لا بد أن يكون قد كتبه أحمد أو على الأقل بيضه بخطه الذى لا يقل كثيراً عن خطى سوءاً وإن كان يبزه ويتفوق عليه فى الوضوح .

ماذا دار فى نفس هذين الصبيين . فاحتقنت به رءوسهما والتهبت حتى رغبا فى التخلص منه ، بالإفضاء به بهذه الطريقة غير المطروقة ؟ من الذى قادهما إلى المطبعة ، ومن علمهما التحدث إلى الناس بهذه الطريقة ؟ أين رأيا منشوراً يوزع ؟ وإذا كانا قد قرآ منشوراً من منشورات الثورة ، يوزع فى الخفاء أو فى العلن ، أفلم يدركا أن تلك منشورات السياسة وفى السياسة ، وأن أحداً لم يوزع منشور الدين ؟ ومن هما حتى يدعوا الإخوان والزملاء ، وهم بعد فى « بنطلوناتهم » القصيرة إلى الجهاد ؟ ومن الذى أوحى إليهما بخواطر وأفكار هذا المنشور ، ولم تكن الأحاديث التى يتداولها الناس وتتناولها الصحف ، مما يتصل بالدين : عشرات من الأسئلة ، كان يخفف من حدتها : لو أن نسخه من هذا المنشور ، استطاعت أن تنجو من الضياع ، وأن تبقى ذكرى لهذا العمل الصبيانى الصغير .

والطريف فى الأمر أننا وجدنا ثلاثة من الزملاء ، يقبلون الانضمام إلينا ، والاشتراك معنا فى هذا العمل المحفوف بالمخاطر ، وأحسب أنه لم يخطر ببالهم أنهم مقدمون على شيء تغضب منه السلطة . ومازلت أذكر أسماء الزملاء الثلاثة مؤسسى أول جمعية توجه الدعوة للناس كافة من أجل العمل العام ، سبقت جماعة الإخوان المسلمين المؤسسة فى سنة ١٩٢٧ ومصر الفتاة التى بدأت حياتها فى الربع الأخير من سنة ١٩٣٣ . كان هؤلاء الزملاء : عباس حلمى حتحوت ، وعبد الجليل الذى اتصل بى مرة أو مرتين بعد سنة ١٩٥٢ ووعدنى بالزيارة ولم تمكنه الظروف الوفاء بوعده وأغلب الظن أنه كان يعمل فى الريف كصاحب أرض زراعية أما الثالث فهو إما محمد حسن وإما حسن محمد ، وقد اعتاد أحمد أن يسميه « هرقل » لأنه كان على نحف جسمه ، وضآلة بدنه ، كان ذا عزم عصبى ، لا يهاب من يكبرونه فى السن ، ويفوقونه فى بسطة الجسم .

ما الذى قلناه لهؤلاء الزملاء الثلاثة حتى ارتضوا أن يوقعوا على هذا المنشور الخطير؟ ولم يطل الأمر ، فقد انتبهت السلطة إلى هذه النبتة الثورية ، بعد أن كتبت أنا منشوراً ثانياً ، طبعناه كالأول ، وإن كان دون الأول ثورية ، فقد كان شرحاً تقليديا لأركان الإسلام الخمسة ، وإن بقى حظه من الثورية غير قليل ، لكونه مجرد منشور من ناحية ، ولأنه صادر من صبيان فى مدرسة ابتدائية من ناحية ثانية .

وقع المنشور فى يد ضابط من ضباط المدرسة ، فأسرع به إلى ناظرها المرحوم محمد توفيق البردعى واصطففنا أمامه ، وتساءل ما الذى حدا بنا للإقدام على هذا العمل الغريب ؟ أولم نتبين أننا تجاوزنا قدرنا إذ نصبنا أنفسنا هداة ومرشدين ، وأن لكل إنسان مقاماً ، وأن على كل إنسان أن يلزم حده ، ويصطنع زيه ، فمن كان رجلاً كبيراً ، ولبس طربوشاً قصيراً ، دعا الناس إلى الضحك عليه ، والسخرية

منه . وأشار إلى طربوشه ، وكان بالصدفة المحض بين طرابيش الرجال ، طربوش قصير ، وقد تنبه أحمد إلى هذه الملاحظة وبقى يذكرها ويتندر بها ، فى حين كان أعضاء الجماعة فى خوف من المسئولية التى رأوا أنفسهم أمامها وجهاً لوجه . وقنعت السلطة بهذا التوجيه اللطيف ، وأخذت علينا تعهداً بألا نعاود هذا العبث الخطير . وقضى علينا أن نقنع بالخطوة الأولى ، وأن نحرم ما بعدها ، وكان ذلك نذيراً بما سنلقاه فيما بعد ؛ فمؤتمر الطلبة الشرقيين الذى دعوت إليه ، لم يتجاوز التحضير ، وإصدار الأعداد الخاصة من الجرائد والمجلات الكبرى ، وتأليف لجنته التحضيرية من أكبر أساتذة وزعماء العالم العربى ، ثم دهمته السلطة فقضت عليه . ومشروع القرش الذى دعا إليه أحمد ، والذى يبدو أسعد حظا على الأقل لأن الآلاف من تلاميذ المدارس الثانوية والعليا والمتوسطة قد اشتركوا فى جمع التبرعات له ، ولبسوا شارته ، ومشوا فى صفوفه لا سنة واحدة بل ثلاث سنوات ثم كان من ثماره ، مصنع لا يزال فى شارع برج الظفر ، ينتج ويتحدث إلى الناس ، عما يمكن أن تفعله إرادة ، ولو كانت إرادة طالب لم يتم تعليمه .

وإذا كانت هذه التجربة المثيرة ، «عينة» من حياة هذين الصبيين ، فإن حياتهما لم تكن كلها ، مجازفات ، تضطرب لها النفس ، وتأتزم لها الأعصاب ، وإن لم تخل من ذلك بين الحين والحين . فقد كانت صداقتهما مصدر السعادة ، ما أحسب أن صبيين نعما بمثلها ، فقد كانا قادرين على أن يتحدثا معاً الساعات تلو الساعات ، ويتناقشا ويختلفا ويختصما ، ثم يتصالحا من جديد ، دون أن تخف رغبتهما فى الحديث ، والمشاركة فى مداعبة مئات من الأفكار التى تعلو على سنهما ، وحسبك أن تعلم أن من بين ما مارساه من اللعب ، أن أقاما «برلماناً» فى حوش منزل أحمد بشارع مراسينة غير بعيد من ميدان السيدة . وقد حاولت أن أذكر أعضاء

البرلمان ومداولاته ، فلم أظفر إلا بمنظر مائدة فى الصدر ، ومقاعد قد تبلغ السبعة أو الثمانية قد يكون نصفها خالياً من الأعضاء ، ومع ذلك يواصل البرلمان عمله بهمة وإخلاص ربما تزيد عن همة وإخلاص أعضاء كثير من برلمانات ومجالس تشريعية شهدتها مصر بعد ذلك التاريخ

وما دمت قد ذكرت منزل شارع «مراسينه» ، فلا بد أن يسمح لى القارئ الكريم ، أن أقف أمامه وأن أحنى الرأس تحيه له ولصاحبه الذى بناه أو اشتراه ، ولذكرياتى فيه ، أنا الذى لا أحس بالحنين إلى الأماكن التى صاحبتها أو عشت فيها ، فى طفولتى أو صباى ، أو شبابى ، فإن لدى القدرة على الفصل بين الذكريات ذاتها ، ووعائها الذى احتواها من الأمكنة والدور.

ولكن – بعد قليل من التأمل – وبمناسبة كتابة هذه الذكريات : أحسست بأن هذا المنزل ، صاحب دين فى عنقى ، وأن على أن أؤديه ، فقد كان أحد منزلين شهدا وقائع صبانا .

صاحب هذا البيت هو والد أحمد ، وقد كان – فى الوقت الذى بدأت صداقتنا فيه – موظفاً بوزارة المالية ، وما أحسب أحداً من زملائه بالإدارة التى كان يعمل بها فى وزارة المالية ، جرؤ على التفكير فى أن يقيم منزلاً بمدينة القاهرة قريباً من ميدان السيدة ، وعلى بضعة أمتار من قسم الشرطة ، ولكن والد أحمد ، كان رجلاً عظيم الهمة ، طموحاً ، محباً للإنشاء والتعمير فاقتنى هذا البيت وعهده بالعمل بالريف قريب – على ما أتصور – وكان البيت يضم ثلاثة أدوار ، عرفت فيه السيدة والدة أحمد ، رحمها الله رحمة واسعة ، فكانت كأمهات ذلك العهد ، نموذجاً للطيبة والبساطة ، والرحمة والفضيلة ، والفناء فى زوجها وأولادها . كنت أصافحها ، وأنا صبى فتمد يدها إلى ملفوفة بطرف قطعة قماش ، تغطى رأسها بها

عند الصلاة ، خشية أن ينقض وضوءها ، لأنها شافعية ، وقد بقى صوتها فى أذنى سنوات حتى بعد أن توفاها الله ، فى سن مبكرة ، وأحمد بعد فى المدرسة الابتدائية أو الثانوية على الأكثر ، فلما ذهبت إلى أسيوط ، وجاءت إحدى السيدات تزور أمى اضطربت اضطراباً ، فسألونى ماذا أصابنى ، فقلت : هذا صوت والدة أحمد ثم غبت تماماً عن الحاضرين فترة ، وعدت بخاطرى إلى أيام ذلك البيت ، فلما أفقت عاد الصوت يطرق أذنى ، لم أعد أحتمله ، فخرجت من بيتى هائماً على وجهى ، وأنا أعجب لنفسى ، فلم أكن أعهد فى نفسى الاستسلام لنوبات الوفاء العاطفية الشبيهة بهذه النوبة . وقد عرفت مع الوالدة ، ولديها مصطفى وعبد الفتاح الذى يطلق عليه تدليلاً « حلمى » . ولم أفطن وأنا صبى فى العاشرة أو دونها ، أن هذا البيت بالوالد والأولاد الثلاثة ، والأم جدير بأن يسمى « بيت العباقرة » ، وإن لم تكن العبقرية لفظة متداولة فى أيام صبانا ، ولم أكن قد اطلعت بعد على الآداب الأجنبية وعرفت بفضلها صوراً من الشخصيات الإنسانية الفذة التى تجمع بين الذكاء طرافة أسلوب الحياة والتمرد على تقاليد الناس ، وطرائق عيشهم وتفكيرهم ، وقد كان الوالد ، بصوته القوى ، الذى يخيف حقا وشاربيه المتدلين على شفتيه وبنائه المتين ، ومع كرش ككرش الآباء جميعاً تتوسطه سلسلة ساعة ذهبية ، ورجلين مقوستين قليلاً ، لا تنقصان من هيبة طبيعية — كان بكل هذه الخصائص ، نموذجاً للوالد ، الذى يحتل فى بيته وبين أولاده ، مكانة السيد المطاع ، الذى يرعى الجميع ، ويحترمه الكل ، كسلطة أعلى تستمد سيادتها من إرادة الله ، ويسلم أهل البيت قاطبة بها .

ولم أكن أتصور ، حينما كنت أراه من بعيد سائراً إلى البيت أو خارجاً منه ، أو حينما كنت أسمعه يتحدث إلى أحد أولاده بصوته المدوى فأنكمش وأتوارى ، أن يوماً

سيأتى أكون فيه صديقه أو يكون صديقى . وهذا ما حدث بالفعل ، فقد ازداد هو تفهماً لتطورات الدنيا . وزاد مسايرة للعصر ، ولا سيما كلما كبر ابنه أحمد ، وزاد مقامه بين المواطنين – حتى تساقطت عناصر صورته القديمة والمهيبة ، وحلت محلها صورة رجل ودود ، يتذوق الحياة ، ويألف الناس ، ويضحك معهم ويداعبهم ، ثم وصلنا إلى الخاتمة ، حينما قصدنى من أجل قضية ضد الحكومة ، صديق له تركى الأصل ، مصرى الجنسية اسمه فريد بك صدق ، كان صديقه هذا من حاشية الخديو عباس حلمى الثانى ، ومن رجال عهده ، فجاء والد أحمد ، بفريد صدق بك هذا ، وأودع يَدَىَّ قضيته ، وكانت قضية كبيرة حقا ، أو قل كانت أكبر منى ، فقد كانت ضد الحكومة . بشأن معاش طلبه ابن رمزى طاهر باشا الذى شغل وظيفة كبير ياوران الخديو عباس ، ولما أبدى الخديو عباس انتقاده لنظام الجيش المصرى على الحدود سنة ١٨٩٢ ، هاج هائج اللورد كتشنر البريطانى ، قائد الجيش المصرى وأمر بطرد رمزى طاهر من حاشية الخديو العسكرية ، وعينه وكيلاً لوزارة الحربية ، فلما أحيل إلى المعاش خرج من مصر لأنه لم يحتمل غطرسة الإنجليز وتوفى فى تركيا ، وترك من أولاده ولداً ناقص الإدراك ، فطلب معاشاً استثنائياً ، ورفضت الحكومة ذلك الطلب ، لأنها استلزمت أن يأتى طالب المعاش إلى مصر ، ليوقع عليه أطباء الحكومة الكشف ، وكان دفاع شقيق هذا الولد المقيم فى تركيا أن نقله إلى مصر ، يعرض حياته للخطر ، ومن هنا كانت الدعوى دقيقة ، وكان المطلوب فيها مبلغاً ضخماً ، وقد كتب الله لى التوفيق فيها ، وكسب المدعى دعواه ، فسر والد صديقى أحمد ورضى عنى ، ولكن أهم من ذلك ، أن القضية استغرقت بضع سنوات ، كان والد أحمد يتردد على مكتبى خلالها ، فنتبادل الحديث ، حتى لم يعد ينقضى شهر دون أن أراه ، وأستمع إليه ،

ويستمع إلى ، حتى ألفت ضحكته ، وأحببتها ، على خشونتها ، وغرابة صدورها من رجل له مظهره . ولقد شعرت بما يطوى على صدره من الحب للناس والحرص على مجاملتهم ، حينما عرف أننى لن أقبض مقابل هذا الجهد الطويل المثمر قرشاً ولا مليماً لصعوبات إدارية . فقد كان مهموماً مشغول البال يقترح الحلول ، ويغير فيها ، رجاء أن أصل إلى حق .

وعرفت فى بيت العباقرة ، عبقريا بحق ، هو الأخ الأوسط لأخى أحمد وقد كان موظفاً فى قسم قضايا وزارة الأشغال ، عمل مع أحد أساتذتى المحبوبين والأفذاذ هو المرحوم الدكتور عبدالمنعم رياض ، أستاذ القانون الدولى بكلية الحقوق ، وكان مصطفى – رحمه الله – موظفاً مشهوداً له بالكفاية ، وكان العمل فى عقود وزارة الأشغال التى أصبحت وزارة الرى – كله باللغة الإنجليزية ، ومن ثم فقد أتقنها ، وأذكر أننا تكلمنا معاً على أسلوب القانونيين فى صياغة العقود ، فانطلق يكرر أمثلة مما تمتلئ به تلك العقود من تحفظات واحتياطات مثل : ولا تسأل الوزارة عما يقع للطرف الآخر ، من أخطار محتملة أو غير محتملة ، أو تنتج عن العقد مباشرة أو بطريق غير مباشر فى أثناء تنفيذ العقد أو بعده ، من موظفى الوزارة أو من غيرهم . وقال كل ذلك بلغة إنجليزية سليمة وطلاقة عرفت منها كيف تمكن من هذه اللغة ؟

غير أن هذا ليس سوى جانب ثانوى وقليل الشأن إذا قورن بما اتسعت له نفس هذا الشاب الذى وافاه الأجل وهو فى غضارة العمر ونضارته . فقد انصرف فجأة وبلا تمهيد إلى الدراسات الدينية فقرأ الغزالى ، وقرأ غيره من أمهات الكتب الإسلامية ، ورأيته يوماً ، يقرأ البخارى ويستخرج منه الأحاديث التى يخيل إليه أنها مصنوعة كحديث جناحى الذبابة الذى فى أحدهما داء وفى الآخر دواء ثم غلبته نزعة

للتصوف ، فضؤل شأن الدنيا فى حياته ، حتى زهدها وانصرف عنها ، مخلصاً غير مـدع ، ولا متظاهر ، ولا راغب فى التحدث عن تصوفه للناس ، وقد شهدته فى تلك الفترة ومازلت أذكر عينيه اللتين رفعها إلى يوماً ، وقد امتلأتا بفرحة طفل ، وفاضتا بذكاء عجيب ، وأؤكد أنه كان للمرحوم مصطفى أثر فى حياة أحمد ، بقى معه إلى اليوم .

وسأروى للقارئ حادثة طريفة من طرائف شبابنا ، تؤكد هذا الاستنتاج . وقد يعجب الإنسان من هذا التطور الضخم فى حياة مصطفى إذا علم أنه كان رياضيا من أوائل الذين اقتحموا ميدان سباحة المسافات الطويلة ، وأنه كان يقوم بتمرينه من مصر القديمة إلى المنيل وأحياناً إلى روض الفرج ، وقد اتفق يوماً مع شقيقه أحمد ، لينتظره بثيابه عند المنيل ، والظاهر أنهما اختلفا على المكان الذى تواعدا عليه ، فبقى مصطفى فى الماء ولست أدرى ما الذى ساقنى إلى هذا الموقع من النيل ؟ فلما رآنى ، رجانى أن أعدو إلى المنزل لأحضر له ملابس ، وانطلقت كما طلب ، ولكنى لقيت والده فى البيت ، ولما سألنى عن طلبى ، ترددت قليلاً ، ولكن لم يكن ثمة مناص من المصارحة ، فثار الرجل ، وأرغى وأزبد ، واستنزل لعناته على مصطفى ونزواته ، وأقسم ألا أتسلم من البيت قطعة واحدة من الملابس ، ولكن رحمة الأم وحنانها ، لم تحفل بهذا الفيض المتدفق من الحمم ، وأحسنت التدبير وسلمتنى لفة فى جريدة ، وانطلقت ثانية إلى النيل ، فإذا بى أرى أحمد عائداً ، فسألته أين كان ؟ وكبر عليه أن يضبط متلبساً بهذا الخطأ الجسيم ، فتركنى ومضى فى حال سبيله دون أن يرد على سؤالى ، وأنا فى غاية الحنق ، من هذا الصمت الفياض بالتعالى .

أما العبقرى الثالث فهو الأستاذ عبد الفتاح ، الذى لم يتم تعليمه ، ومع ذلك ،

كان رياضيا موهوباً ، وكان فوق ذلك فيلسوفاً بحق ، لا يسمع شيئاً إلا استخرج منه معنى ، أو علق عليه تعليقاً طريفاً ذكيا ، ولقد ألف أن يكتب خواطر فى كراسات من كراريس المدارس ، يقيدها بغير اكتراث ولا احتفال ويكتبها فى منتصف الصفحة حيناً ، وفى جانب منها حيناً آخر ! ويبدؤها وربما لا يكملها . . وعاش بعد ذلك عيشة الفلاسفة حقا وصدقاً ، لا يكترث بشيء ، ولا يحمل هما ، ولا يعتنى بملبس ، ولا يعالج مرضاً ، ويضحك من كل شيء ، ضحك العقلاء الأذكياء . ولقد توثقت علاقتى به ، ومحبتى له ، حتى كان مكتبى ، واحداً من الأماكن التى يألفها ويتردد عليها ، ويطيل الجلوس أيا كان موقع هذا المكتب . وقد كنت أفرح بمقدمه ، وأستمتع بحديثه ، وقد كان عندى ، قبل وفاته المفاجئة فى حادث ، بيومين أو ثلاثة . . وأؤكد أنى لو تمكنت من جمع كراساته ، ثم من طبعها ونشرها لوقع الناس على الكثير المثير واللطيف من الخواطر والأفكار.

وقد كان للمرحوم عبد الفتاح أو حلمى ولع بلعب النرد « الطاولة » وكان شقيقه أحمد أكثر منه تمكنا من اللعبة وتمرسا بها ، فكانا يلعبان معا الساعات الطويلة ، فإذا ذهبت إلى بيت شارع مراسينة ، وكانا فى حمى الوطيس لم يلتفتا إلى ، وقد كان للمرحوم عبد الفتاح قدرة ، إذا غلب أحمد يوما مرة ، على إغاظته ، مع أن أحمد يغلبه بالعشرات ، دون أن ينجح أحمد فى إغاظته أو إحراج صدره ولو لمرة واحدة .

أما أنا وأحمد ، فقد كانت لنا جولات وشطحات ، تتردد بين سهرات فى المسجد الزينبى ، نسمع الخطب ثم الدروس ، وبين سهرات فى نادى الشبيبة الرياضى الذى كان فى شارع الدواوين الذى أصبح شارع نوبار الآن ، وفى ذات ليلة نسينا أنفسنا ، ورحنا نشاهد عروض الملاكمة ، وكان بين المتلاكمين شاب

اسمه « مراد مينا » كان يوصف بأنه بطل الملاكمة . فلما عاد كل منا إلى بيته ، دخل أحمد إلى فراشه سالما ، فلم يكن فى بيته – مع شدة والده – نظام كنظام بيتنا الحديدى ، فقد استقبلتنى أمى ، بالكفوف ، حتى التهبت خدودى ، فتجلدت ولم أبك ، لأنى وجدت أنه لا يليق بى أن أبكى ، وقد كنت منذ قليل ، بين جمهور رياضى ، كواحد من الرياضيين .

وفى فترة ، زادت فيها أشواقنا الروحية ، تواعدنا أحمد وأنا على أن نصلى الفجر حاضرا ، وجاء أحمد يطرق بابى فى غبشة الليل ، والدنيا هاجعة ، والشوارع خالية ، واستيقظ والداى منزعجين فقد توهما أن وراء الطارق نبأ مفزعا ، وإذا بى أتحرك فى فراشى ، وأنا لا أقوى على التكلم ، وأخيرا أفضيت لهما بما اعتزمنا القيام به استفتاحا لعهد من التصوف والتهجد ، والتقرب إلى الله ، فوضعا حدا لكل هذه الآمال العريضة بصرخة ومضى أحمد وحده فى الشارع المظلم . وقد أبى عليه وفاؤه أن يصلى الفجر وحده ، وأجل دور التسامى الروحى إلى فترة أستطيع معه أن أتحرر من قيود المنزل .

وقد كان لأحمد جار فى حى طولون قبل أن يبنيا منزل شارع مراسينة ، وقد كان لهذا الجار ولع بالنشاط المسرحى إذ كان غالب الأمر ، من متعهدى الحفلات المسرحية ، الذين يستأجرون هذه الحفلات مقابل مبلغ يجعلونه لمدير الفرقة ثم يجربون حظهم فى توزيع تذاكر المسرح على الجمهور وأصدقائهم ومعارفهم ، فاستطاع هذا الجار أن يزود أحمد بتذاكر فى عدد من حفلات مسرح الأزبكية فى وقت كانت فرقة أولاد عكاشة تقدم فيه مسرحيات غنائية وغير غنائية ، وكان أحمد فى الأيام التالية لليلة التى يذهب فيها إلى المسرح ، يقص على ما شاهد ، ويمثل بعض المشاهد ، ويؤدى بعض الأغانى ، وأجلس أمامه وأنا مأخوذ اللب بهذا

المسرح الذى يقدمه صاحبى بهذه البراعة والقدرة والسهولة . وجاء ذات أصيل ليزورنى فلم يجدنى ، فانتظر عودتى ، فلما طال الانتظار ابتدأ يسلى نفسه وأخواتى بإسماعهم عشرات من الأغانى التى كانت شائعة آن ذاك ، وكان أكثرها من تلحين سيد درويش كلحن السقايين والشيالين ، فلما عدت فى المساء ، وجدت أخواتى ، كأسعد ما يكن بعد أن شَبِعْنَ من هذه الوجبة السخية من الأغانى والأدوار.

وأقيمت حفلة بمدرسة محمد على ، فهالنى أن علمت أن من بين العروض فى الحفلة ، حوارا تمثيليا بين اثنين ، مما يقدم عادة فى حفلات المدارس ، وأن « أحمد » قد تقدم ليكون أحد المتحاورين ، وشعرت بأن صديقى من قوة الأعصاب ، بحيث جرؤ على الإقدام على مجازفة كانت تساوى عندى الصعود إلى القمر ، ولم أعد أراه فى فترات الراحة بين الدروس فقد كان منهمكا فى تجارب التمثيل التدريبية ، ولكن هذه الحفلة لسوء الحظ ألغيت ولم نتمتع برؤية بواكير عبقرية أحمد الفنية والخطابية . ولكن هذه البواكير سرعان ما أعلنت عن نفسها بعدما سافرت إلى أسيوط ، وأصبحت من قراء مجلة « المسرح » أكبر المجلات الفنية ، فى ذلك العصر ، إن لم تكن المجلة الفريدة آن ذاك ، فقرأت يوما نقدا لحفلة المدرسة الخديوية التمثيلية ، عرفت منه أن صاحبى أحمد مثل دورا خطيرا فى مسرحية أبى مسلم الخراسانى الذى أعدها هو ، عن رواية جورجى زيدان ، وقد وصف الناقد الذى كان يوقع مقالاته بإمضاء « الأحنف » طريقة أحمد فى التمثيل فقال إنه يمثل وكأنه « شضلى » وشضلى تساوى عصبجى . وفى العدد التالى قرأت ردا طريفا على هذا النقد بإمضاء « أحمد محمود حسين الشضلى » وكان هذا المقال بداية اتصالنا معا بالصحف وبالكتابة فيها . ثم تلقيت منه خطابا قال لى فيه : إنه فى نهاية الحفلة تقدم إليه أمير الشعراء أحمد شوقى مهنئا .

وقد وعدتك أن أروى لك شاهدا على تأثر أحمد بأخيه مصطفى ، عندما زهد الدنيا وتصوف ، وهو شاهد طريف حقا ، فقد تعرفنا – فى فترة تالية مباشرة لصبانا – بالأستاذ المرحوم مصطفى العلوى الذى كان معاونا للمرحوم العلامة فريد وجدى فى المطبعة ودائرة المعارف التى كان يصدرها آن ذاك . وكان الأستاذ العلوى مشتغلا بالتنويم المغناطيسى وقد نجح فى تنويم أكثر من وسيط أمامنا ، وحاول أن ينيم أحمد ، فتظاهر أحمد بأنه نام فعلا ، وقد كان من بين ما حدثنا به المرحوم العلوى أنه يستطيع أو يوحى إلى وسيطه بأنه صغر سنا ، فتظهر على الوسيط علائم السن الصغرى حتى يبلغ سن الطفولة ، فيصبح صوته كصوت الأطفال ، وعندها يروى ذكريات طفولته وهذا ما يساعد على شفاء بعض الأشخاص المصابين بأمراض عصبية أو نفسية إذا كان سبب الإصابة ، صدمة جرت لهم فى الطفولة ، ثم زاد طموح الأستاذ العلوى فقال : إنه يستطيع أن يعود بالإنسان القهقرى ، حتى يصل به إلى ما قبل الولادة ، ثم إلى ما قبل ولادة آبائه وأجداده بمئات السنين ، وأوهم أحمد الأستاذ المنوم بأنه وصل بروحه إلى عهد الفراعنة ، وأبدى تألمه الشديد ، فلما سأله عن سبب هذا التألم قال : إنه يجلد بوصفه أحد العمال فى معبد فرعونى ، وخيل إلى الأستاذ العلوى أنه بذل طاقة روحية فى تلك الليلة أكبر مما يجب ، فانتفض انتفاضة أفزعتنا . . ولكن أحمد طلب ورقة وقلما وهو نائم لأن روحا من أرواح الموتى الأعزاء تحوم حوله وتود أن تملى شيئا فلما وضعنا القلم بين أصابعه كتب ما لم نستطع أن نقرأه ، فلما طلبنا إليه هو أن يقرأ ما كتب قال : هذه رسالة من أخى مصطفى يقول فيها : احذوا حذوى . . وقد أطاع أحمد – فى الجملة – هذا الأمر من أخيه ، فى كثير من مراحل حياته الحافلة الغنية الطويلة العريضة .

وداعاً أيام الصبا

هل حقا انتهت أيام الصبا ؟

وهل انتهت فى عامنا هذا الذى كتبت فيه ذكريات الصبا . أو أنها انتهت منذ نحو أربعين عاماً عندما بلغت الرابعة عشرة ، وقام فى وهمى ، أننى رجل ، لى حق الرجال ، فى أن أقول ما أشاء وأفعل ما أريد وأبدى الرأى فى شئون البيت والمدرسة والأمة ، وأرتاد مجامع الكبار ، وأختلف إلى حيث يخطب الزعماء ويتناقشون ، ويهاجمون بعضهم بعضاً ، فى رفق حيناً وفى عنف أحياناً .

نعم إنها انتهت عندما انتهيت من تحرير ذكرياتها .

فيوم أن وصلت وأنا بين الطفولة والصبا ، إلى عتبة الشباب أطمح إليه ، وأشفق منه ، وأحلم به ، وأتصوره ، وأتصور نفسي فيه لم أحس بأنها انتهت ، فالزمن الساحر ينقلنا من دور إلى دور ومن حال إلى حال ، ونحن لاندرك

ولا نشعر ، تفاجئنا الشعرات الأولى تحت الأنف ، وحول الذقن ، فنطيل النظر إلى وجوهنا فى المرآة ، وفى أعماق نفوسنا ، يدور سؤال هامس خجل ، ممزوج بالدهشة والسرور والاحتجاج متى حدث هذا ، وكيف وهل صحيح . ؟ هل صحيح أننا خرجنا من إهاب الفرح غير المسئول والنشاط غير المقيد ، والحرية غير المدركة لذاتها ، إلى عالم لا ندرى قواعده ، ولم نجرب الخضوع لقوانينه ؟

وعندما تلوح الشعرة البيضاء فى رءوسنا ، نهتز من منبت الشعر إلى أخمص القدم ، بنفس المشاعر ، ممزوجة بحزن خفى ، مع أن الشعرة البيضاء شىء جديد ، ولمقدم كل جديد فرحة ، ولكن هذه اشعرة شىء جديد مخوف ، إنها نذير بالنهاية ، التى تتأخر عقوداً ، وتتلكأ فى طريقها سنين ، ولكن آخر الأمر ، تشير إليها ، وتعلن قدومها . . ويالها من شعرة ، تتألق بياضاً ، وتبدو بريئة ضعيفة ، غريبة بين زميلاتها السوداء الحالكة السواد . وهى شعرة لا تعترف بالمنطق ، ولا تسلم به ، بدلالة أنها بيضاء فى رأس أحد من أبناء آدم الذين تواصوا ، على اعتبار البياض صنو النور ، والسواد صنو الظلام بجامع القتام فى كل ، والشعرة البيضاء ، نذير المغيب ، والمغيب هو غروب الشمس وقد قالت لى ، الشعرة البيضاء ، : أنا بيضاء رمز العلم والنضج ، والرضا ، والتجربة بعد الخفة والطيش وقلة العلم . إذا كان المغيب ، يعنى أفول الشمس فهو يعنى أيضاً شروق القمر بنوره الفضى الوضاء ، وقد جعل الله القمر ضياء ، وزين به السماء ، مع الكواكب والنجوم ، ثم منذ متى ولبنى آدم منطق مستقر ؟ فالسواد عندهم رمز الجلال والأبهة ، لا يلبس إلا فى أجل المناسبات ، وأعظمها مهابة ، وقد اتخذته حركات ذات شأن فى القديم والحديث شعارها المفضل ، ولونها المحبب !

وأرادت الشعرة البيضاء ، يوم ذاك أن تسترسل فى حديثها لولا أننى أحسنت

الاعتذار لها فقلت : علم الله أنني لم أحزن لمقدمك ، ولم أنقبض لمرآك ، بل فرحت بك ، فرحي بكل جديد ، وأطلت النظر فيك ، ثم عدت أتأمل داخل نفسي ، وخارجها ، وفي ظاهر بدني ، وفي باطنه متسائلاً هل لهذه الشعرة البيضاء التي تعدها ضيفاً جديراً بالإكرام والإعزاز والتحية أثر في هذه النفس ، أو في ذاك البدن ؟ فلم أجد شيئاً ، بل وجدت كلا منهما غافلاً عنها ، زاهداً في الحديث حولها ، فشكرت لهما حسن نياتهما وعدم اهتزازهما ، وإن كنت قد أخفيت عنهما ، وعن الشعرة البيضاء ، رأيي فيهما من أنهما ساذجان ، لا يدريان ماذا يعني هذا اللمعان الفضي في ظلام شعري الكثيف الذي لم ينل مني ما يستحقه من العناية والرعاية ، مع أنه عند غيري عظيم المكانة ، كبيرَ القدر . . ؟

لكن قبل أن تظهر الشعرة البيضاء التي وجدت من زميلاتها السوداء حبا شديداً في محاكاتها ، ربما هرباً من السواد اللامع ، إلى البياض الناصع ، فقد تكاثرت الشعرات البيضاء ، حتى اشتعل الرأس شيباً قبل الأوان ، فبدوت بين الناس شابا شيخاً ، أو شيخاً شابا ، وألف الناس أن يواسوني فيقولوا . إن هذا الشيب المبكر ، زانني . فابتسمت يوم ذاك ابتسامة أسى حقيقي ، لأنني أدركت يومها ، أن هؤلاء الصحب ، رأوني جديراً بالمواساة ، فواسوني ، وليس أوجع لنفسي ، من أن أصبح ، هدفاً للمواساة ، لأنها تزيدني إحساساً بقدر الإنسان ، يحمل وحده مصابه ، وأقرب الناس إليه يشاهدونه ، ولا يملكون له إلا دموعاً تترقرق في المآقي يخفونها ، وآهات تتلهب في الصدور يكتمونها ، وصدق الله تعالى إذ قال « وإن تدع مثقلة إلى حملها ، لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى » وقد عرفت وأنا في مطلع الشباب ، هذا الإحساس ، المر ، فقد وضعت على محفة تتحرك على عجلات ، ودفعت المحفة إلى أعماق حجرة ، انتظرني فيها رجال مكممون يلبسون

أردية بيضاء ، فيخفون وجوههم ، فتبدو عيونهم ، وكأنها عيون أعوان شر ، وهى عيون رسل رحمة ، وقد وقف على باب الحجرة ، أخواتى ومعهن صديق الصبا «أحمد» ألمح – وأنا بين الموت والحياة – على وجوههم آيات الجزع ، فأشفق عليهم ، أكثر مما يشفقون لحالى ، لأنى أعرف مدى ما يعذبهم شعورهم بالعجز عن إنقاذى ومد يد المعونة لى فى محنتى .

ولكن لقد دلفت إلى الشباب ، بعد أن فرغت أيام الصبا ، دون ألم ، فلم أبكه ، ولم أودعه فقد كنت وأنا أستقبل الشباب ، أشبه ما أكون بإنسان فقد شيئا غالياً ، فى مناسبة سعيدة ، فأنسته المناسبة ، ألم الخسارة ، وبقيت غير مدرك أن الصبا ، أجمل عهود الحياة ، قد انتهى إلى غير رجعة ، حتى جلست لأكتب ذكريات هذا العهد ، فإذا به يعرض على مفاتنه ، ولطائفه وخفاياه وأسراره ، فأزداد إحساساً بغفلة الإنسان ، الذى يدع هذا الدور الجميل الذى أتقنت يد الله الخلاق العظيم نسج خيوطه ، من حيوية الطفل ومرحه ، ومن سذاجته وعدم تجربته ، ومن تفتح الشباب ، وإقباله على الدنيا فى دهشة وترقب وتطلع واحجام أكثر إمتاعاً من الاندفاع والجرأة ، التى لا تتهيب شيئاً لفرط الثقة .

وطوال الفترة التى كنت أكتب فيها ذكريات الصبا ، كنت أملأ رئتى من عبقه وأرجه وحلو رائحته ، كنت أمتع عينى من رؤية هذا الصبى ، الذى لا يستقر فى مكان ، ولا يشبع من القفز والوثب والركض والعدو ، والتعلق بأغصان الأشجار والتسلق فوق الجدران والأسوار . كنت أملأ أذنى بصيحات وصرخات لداته وزملائه من الصبيان ، وهم يتخاطفون الكرة ، ويتقاذفون بالطوب ، ويتدافعون للظفر بشىء يتسابقون إليه ، وعيونهم تلمع بالسرور ، ووجوههم تطفح بالسعادة ، وأصواتهم تفيض بالفرح . ولما وضعت القلم إلى جانبى ، بعد أن فرغت من آخر

كلمة فى آخر سطر ، شعرت بأنى كنت أشبه شىء بمتفرج فى دار سينما ، يتابع شريطاً متقناً لطيفاً مسلياً موحياً ، فنسى نفسه ، حتى إذا أضاءت الأنوار وبددت ظلام القاعة ، بددت معها الحلم ، تلفت حوله ، فإذا الناس يغادرون أماكنهم ، فى صفوف طويلة ، يجرون أرجلهم جراً ، فى حين بقى فى مكانه يأبى أن يسلم بأن الشريط انتهى ، أو بأن الحلم قد اختفى ، وأنه ترك للواقع جالساً على مقعد ، وأمامه حائط بارد ، لا تجرى عليه صورة ، ولا ينعكس فوقه ضوء ، ولا يبعث فى القلب شعوراً ، ولا يوحى للناظر إليه بإحساس . . ثم هو لا يدرى ماذا يفعل ؟ أيترك مكانه ، ويسير مع الناس ، ويفعل كما يفعلون . أيمكن أن يخرج من هذا الحلم الجميل ، كما يخرج الواحد منا من قاعة مسرح ؟

قد يبدو للإنسان أن ذلك سهل ، وهو فى الواقع سهل لو أن هذا كان حلماً ، ككل الأحلام التى نراها فيما يرى النائم ، ولكنه كان فترة من عمر ومرحلة من حياة ، وجزءاً من وجود ، وفصلاً من تجربة . وقد بعث من الماضى ، فأصبح حاضراً ، بكل حرارة الحياة ، ومادياتها وإحساساتها حتى لقد نسيت تماماً ، ساعة أو ساعات من كل شهر ، أننى جاوزت الصبا والشباب والرجولة ، وأننى شيخ من الشيوخ الأمر الذى لم أحس به قط ، ولم أجد ما يدعونى إلى التفكير فيه أو التسليم به .

يوم أن تجاوزت عتبة الشباب ، لم أحس قط أن الصبا قد انتهى ، ولكن الآن أحس بشدة وبعمق ، أن هذا الصبا ، أصبح ماضياً بحق ، وأنه أفلت من يدى ، كعصفور ، طار إلى غصن عال من أغصان حديقة فسيحة لا نهاية لها ولا حدود . وأنه ليس لى منه إلا أن أروى وقائعه للناس ، ثم أقرأ ما كتبت .

ولقد عدت إلى مجلد يحوى صور الصبا ، يسميه الغربيون « البوم » ورحت أتأمل

فى هذا الصبى الذى أجلسه المصورون منذ طفولته على مقعد ، أو على عمود طويل ، بجانب إحدى شقيقاته أو والده ، ولم ينس هؤلاء المصورون فى جميع الأحوال أن يضعوا تحت إبط هذا الصبى أو بين يديه ، كتاباً . فهل كان هؤلاء الأجانب يعتقدون فى تلك الأيام أن الكتاب حلية للكبير والصغير معاً ، أو أنهم كانوا يقرءون الغيب فيعرفوا أن الكتاب سيصاحب هذا الصبى ، حينما يكبر ، فى الليل والنهار ، وفى الحل والترحال ، وفى العمل ، وعند الراحة ، وأنه سيكون أداته ، وعمله وتسليته وسلاحه الذى يقيه الاستسلام لآلام الدنيا ، ووسيلته للهرب من حقائقها ، فهو مقو ، ومخدر وملهم ، ومانع من الحركة ، بما يبعث فى النفس من رؤى وأحلام ، وأخيلة وأوهام .

ولكن أين هذا الصبى ، الذى يقف خلافاً للحقيقة – هادئاً وادعاً ، يطبق الشفتين يفكر فى شىء ما ؟ لقد اختفى حقاً وصدقاً ، فلم يعد له وجود : وبعبارة أخرى لقد مات ، فلا سبيل إلى بعثه ، ولا إلى التحدث إليه ، ولا إلى العثور عليه ! ومع ذلك لم يشيعه مشيع ولم يبكه باك ، ولم ينعه ناع ؛ فحياتنا التى نحسبها دقائق متصلة من الوجود ، حلقات متصلة من الموت ، فما من لحظة تمر ، حتى يختفى شخص كنا إياه ثم انقضى ! ليوجد شخص آخر ، غير الأول ، وعندما تتراكم لحظات العدم ، يحل محل الطفل صبى ، ثم يحل محل الصبى ، شاب ، وفى كل دور ينتهى كائن حى بجسمه ونفسه وملامحه وقسماته ، وأخلاقه ومزاجه ؛ ليأتى كائن جديد بصورة جديدة وصوت جديد ، وعقل ونفس ، لم يعرفها الكائن السابق !

فهل نحزن لأن الواحد منا هو ألوف الألوف من الأشخاص يحمل اسمنا ، ويحسبه الناس حقيقة واحدة لا تتغير ، ولا ينقطع وجودها ، وهو فى الواقع ،

أموات إلى جانب أموات ، لأن تدفق الزمن لا ينقطع ، وهو مع استرساله واتصاله ، يخفى فى طياته حقائق صغيرة ، ولكنها هى عناصر الحقيقة الكبرى .

غير أن هذا الصبى لم يمت ، كما لم يمت من قبل الطفل الذى كانه ، فقد قلت من قبل ، يبقى الطفل مختفياً فى ركن من أركان نفس الصبى ، كشأن الأطفال الذين يهربون من ذوى قرابتهم حينما يريدون أن يحملوهم معهم إلى مكان لا يحبونه ، وقد تصادق الطفل والصبى ، وأنشأ معاً حلفاً ، فلما جاء الشاب تآمر عليهما واختفيا فى طيات إهابه ، وتعب حتى أخذاه معهما إلى جانب من الرجل الذى استحال إليه وهكذا .

لا موت ولا حياة ، وإنما صور تتلاحق ، تظهر وتختفى ، ونفرح بكل منها ومن تلاحقها السحرى الخفى تتكون حياتنا بما تنطوى عليه من عناصر نسميها حقائق ، وعناصر أخرى نسميها أوهاماً ، كما تتلاحق الصور فى شريط ، يعرض علينا معكوساً على جدار أو قطعة من قماش ، فيضحكنا ، ويبكينا ، ويعلمنا ويلهمنا ، كما لا تفعل الحياة نفسها .

إذن هذا الصبا لم ينقض إنه معى ، داخل نفسى ، يشارك فى توجيهها ، ويبدى الرأى فى كل ما تقول وتفعل ، بل أحياناً فى كل ما يتداول فيه من شأن ونفسها . ولقد علمت الآن أنه ما من قرار تصدره النفس حتى يلتف حول مائدة مستطيلة أو مستديرة عدد من الأشخاص قد يبلغون الملايين ، بقدر ما مر على هذه النفس من لحظات الوجود والعدم : أطفال ، يخطئهم العد ، وصبيان لا يقوى على حصرهم إحصاء وشبان وكهول بنفس الكثرة ، ويحاول كل منهم أن يكون صاحب الكلمة الأخيرة ، ولهذا لا نرى إنساناً يبحث عن قرار حتى يبدو لنا كأنه قدر يغلى على نار ؛ لأن الدعوة إلى القرار دعوة لملايين وملايين من البشر بتجاربهم غير

المتشابهة ولا المتساوية ، وتجارب أطفال وصبيان وشبان ورجال وكهول . وربما شيوخ أيضاً إذا وصل الباحث عن القرار إلى الشيخوخة

فالمرء منا إنما هو فى الواقع عمارة طويلة ، تتركب من ملايين من البشر ، لو وضع أحدهم فوق رأس الآخر ، فقد يصلون بيسر وبلا أدنى عناء إلى المريخ أو أبعد من ذلك ، ومن هنا كان هذا المخلوق العجيب الذى نسميه « الإنسان » قادراً على إتيان عجائب وغرائب ، مما يحير ويذهل نفس الإنسان صانعها ومحققها ، ولولا أنه « أمة » ما سخر الله له الشمس والقمر والأنهار والبحار والنجوم والكواكب ، وجعله سيدها ، وآمرها وما كان كل هذا التراث المتراكم من الحضارات والثقافات والفنون والآداب ، والمذاهب والفلسفات المقرونة بجرائم أخذت شكل حروب ، وغزوات ، أحرقت وأبادت ، ودمرت وخربت كل ما صنعه الإنسان الفنان والإنسان البناء ، والإنسان الكاتب والإنسان المقنن والمشرع والمهندس !

أيها الصبى الذى عرفته وعاشرته ، الذى عانى أهوال المرض ، والذى تحرك وجرى ، وأراد أن يكون ملاكماً ومصارعاً وعدّاء ، وممثلاً ؛ وخيل إليه أنه يستطيع أن يكون – لفرط جهله – نبيا أو وليا . . أيها الصديق العزيز ، الذى اختنى ، إنك لم تمت . إنك حى ترزق ، إنك معى ، إنك فى خفايا نفسى ، تقول وتوحى ، وتوافق وتعارض ، إنك تضحكنى وتكايدنى وتجلس معى ، وتتألم إلى جوارى ، وتقاسمنى اللقمة وتحاول أن تفهم ما أقر ، وأن تنقض ما أبرم !

لقد كتب الله علينا صحبة لا تفصم ، وجواراً لا ينتهى ، إنى أقبلك ولا أرفضك ، فلولاك ، لحرمت الحيوية ، والبهجة والأمل ؛ فكل ذلك من خصائص الصبا . . لم تأخذها كلها منى حينما اختفيت . فى الظاهر – لتفسح الطريق لأخيك الأكبر سنا والأكثر رواء ، والأعظم مسئولية ، والأعلى صوتاً ،

والأشد ادعاء ، واختيالاً : الشباب !

ولكم ضبطت نفسى متورطاً فى نزوة أو فى حلم ، أو فى رغبة ، فأراك فيها أو على الأقل أدعى أنها من عملك ووحيك ، فقد تكون أيها الصبا العزيز بريئاً منها ، ولكنها رغبة الإنسان – فى أى سن كانت – فى أن يتخفف من أخطائه ، ويتخلص من عيوبه ، فيلقى بها على شىء أو شخص أو ظرف ، ولما كان يحس أنه فى الصبا غيره فى الشباب أو الرجولة ، فيقول : هذه نزوة صبيانية ، هذه هفوة صبيانية ، هذه بقية من أيام الصبا !

وأنت تظلم ، ولكنك تسكت ؛ لأنك ترى فى إلقاء اللوم عليك واتهامك بغير دليل دليلاً على أنك حى لم تمت ، وأن دورك لم ينته . . وهكذا تنتقل إليك عدوى الإنسان الذى يأبى إلا أن يتشبث بالحياة ، ولو كان ثمن ذلك ، تحمل آثام الآخرين ، وأخطائهم وادعاءاتهم .

وبعد فيأيها الصديق ، والصاحب الكريم ، أيها الصبا .

آن لنا أن نفترق ، ولعلك وأنت منصرف عنى ، وأنا منصرف عنك ، راضٍ ؛ فقد حدثت عنك الناس طويلاً وبعض هذا الحديث ألف هذا الكتاب وصنفه ، ولا أحسب أنك ظفرت من صاحب قلم بما ظفرت منى ، والحق أنى تحدثت عن الشباب وعن الشيخوخة وأحياناً عن الطفولة ، وأنا أتحدث عنك ، ولكن لم يكن هذا الحديث كله إلا فرعاً عن أصل وكنت أنا الأصل .

وأنت تعرف ، أن الكائن الملهم ، أعظم قدراً من الكائن الذى يقتصر الحديث عنه ولا يتفرع منه . ولقد أوحيت إلى بالكثير وأنا أشرق وأغرب ثم أعود إليك وكنت فى هذا الجولان أحس أننى أمارس هواية من هوايات الصبا ، فقد كنت خلال أيامك السعيدة لا أستقر فى مكان ، ولا أستقر عند شىء ، ولا عند شخص ، وكان

الطواف والتشرد والتنقل شعار حياتى ، وقانونها .

وشيء آخر أيها الصديق العزيز؟

إذا قدر لى أن أتحدث عن دور آخر من أدوار حياتى فإنى أعدك أنى لن أنساك ، سأعود إليك ، المرة بعد المرة ، وسأذكرك ، وأذكر الناس بك ، وأقارن بين حكمة الصبا التى لا فضل لى فيها ، ولا يد ، وحكمة الشباب المستفادة من تجاربه المؤلمة والمرضية ، ومغاساراته الفاشلة والناجحة ، ثم حكمة ما بعد ذلك ، ولعلى غير قادر على أن أخدعك ؛ فأنت تعلم أننى كلما ذكرتك ذكرت نفسى ، وكلما أرضيتك أرضيتها فالذكرى هى كل ما يبقى للإنسان ، من كل ما مر به من حلو ومر ، وعظيم وتافه وداعاً أيها الصبا .

وداعاً . . .

رقم الإيداع	١٩٧٩/٥٠٧٠
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧ - ٢٤٧ - ٨٦٢ - ٥

١/٧٨/١٢١

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)

